كتاب الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري المكنى بالجاحظ ،ولد في البصرة سنة 159 هـ وتوفي فيها سنة 255 للهجرة

الجزء الأول

كتاب الحيوان

الجزء الأول

خطبة الكتاب

جَنَّبَك اللّهُ الشُّبْهة، وَعصَمك من الحَيرة، وجَعلَ بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سَبَباً، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعرَ قلبكِ عِزَّ الحقّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القِلّة، ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرك، وأدلَّ عَلى مقدارِ وزنك، وعلى الحال التي وضعْتَ نفسك فيها، ووسَمْت عرضَك بها، ورضيتها لدينِك حظًّا، ولمروءتك شِكلاً، فقد انتهى إليَّ مَيلُكَ على أبي إسحاق، وحَملُك عليه، وطعنُك على مَعْبَدٍ، وتنقّصك له في الذي كان جَرَى بينَهما في مساوي الديكِ ومحاسِنِه، وفي ذكرِ منافع الكلب ومضارِّه، والذي خرجَا إليه من استقصاءِ ذلك وجمْعِه، ومن تتبُّعِه ونظمِه، ومن الموازَنَة بينَهما، والحُكم فيهما، ثم عبتَني بكتاب حيل اللصوص، وكتاب غِشّ الصناعات، وعبتَني بكتاب المُلح والطُّرَف، وما حَرَّ من النوادر وبَرُد، وما عاد بارده حارًّا لفَرْط برده حتى أمتَعَ بأكثر من إمتاع الحارّ، وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضَتِهم للسُّمَحاء، والقول في الفرق بين الصدق إذا كان ضارّاً في العاجل، والكذب إذا كان نافعاً في الآجِل، ولِمَ جُعل الصدقُ أبداً محموداً، والكذبُ أبداً مذموماً، والفرق بين الغَيرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط في الحميّة والأنَفَة، وبين التقصير في حفظ حقِّ الحرمة، وقلّة الاكتراثِ لِسوء القالة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيُّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحريّة، وحقيقة الجوهريَّة، ما كانت العقولُ سليمة، والآفات منفيَّة والأخلاطُ معتدلة، وعبتَني بكتاب الصُّرَحاء والهُجَناء، ومفاخرة السُّودان والحمران، وموازنة ما بين حقِّ الجئولة والعمومة، وعبتَني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أيِّ موضع يَغلبن ويفضُلْن، وفي أي موضع يكنَّ المغلوباتِ والمفضولات، ونصيب أيِّهما في الولد أوفَر، وفي أيِّ موضع يكون حقُّهنّ أوجب، وأيَّ عملٍ هو بهنَّ أليق، وأيّ صناعةٍ هنَّ فيها أبلغ،

وعبتَني بكتاب القحطانيَّة وكتاب العدنانيَّة في الردّ على القحطانية، وزعمتَ أنّي تجاوزتُ الحميَّة إلى حدِّ العصبيَّة، وأنّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيَّة إلا بتنقُّص القحطانيّة، وعبتَني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أنّي بَخَسْت الموالِيَ حقوقَهم، كما أنّي أعطيتُ العربَ ما ليس لهم، وعبتَني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القولَ في فرق ما بين العرب والعجم، هو القولُ في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتَني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعَاد من الخَطَل، وحَمْلِ الناسِ المؤن، وعبتَني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العِلّة مع اتّفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البدَدَة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدَّ الديّانين إلْفاً لما دانوا به، وشغفاً بِمَا تعبَّدوا له، وأظهَرَهم جِدّاً، وأشدَّهم على من خالفهم ضِغناً، وبما دانو ضِنّاً، وما الفرق بين البُدِّ والوثن، وما الفَرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدُّمية والجثَّة، ولِمَ صوَّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صُوَرَ عظمائهم ورجال دعوتهم،

ولم تأنَّقوا في التصوير، وتجوَّدوا في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوَّليَّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النِّحل، ومن أيّ شكل كانت خُدَع تلك السدنة، وكيف لم يزالوا أكثرَ الأصنافِ عدداً، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناسَ المختلفة، وعبتني بكتاب المعادن، والقولِ في جواهرِ الأرض، وفي اختلاف أجناس الفِلِزِّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها، ويُبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يَصبُغ ولا ينصبغ، وبعضها يَنْصبغُ ولا يصْبَغُ، وبعضها يصبغُ وينصبغ، وما القولُ في الإكسير والتلطيف، وعبتَني بكتاب فرق ما بين هاشمٍ وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القولُ في معرفة الهدهد واستطاعة العفريت، كان عنده اسم الله الأعظم، وعبتني بكتاب الأوفاق :وفي الذي كان عنده عِلْمٌ من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم والرياضات، وما القولُ في الأرزاق والإنفاقات وكيف أسباب التثمير والترقيح، وكيفَ يجتلب التجار الحُرَفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبُّب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غشَّ الصناعات والتجارات، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موَّهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله، وعبتني برسائلي، وبكلّ ما كتبت به إلى إخواني وخُلَطائي، من مَزْح وجدٍّ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافُل وتوقيف، ومن .هجاء لا يزال مِيسَمه باقياً، ومديح لا يزال أثرُه نامياً ومن مُلَح تُضحِك، ومواعظ تُبكي

وعبتَني برسائلي الهاشميّات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيَها، وتصويري لها في أحسَن صورة، وإظهاري لها في أتمِّ حلية، وزعمتَ أنّي قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى حد الزيديّة، ومن حدّ الاعتدال في التشيُّع والاقتصاد فيه، إلى حدِّ السرف والإفراط فيه، وزعمتَ أنّ مقالة الزيدية خطبة مقالةِ الرافضَة، وأنّ مقالة الرافضة خطبة مقالة الغاليَة، وزعمتَ أنّ في أصل القضيّة والذي جَرَتْ عليه العادة، أن كلَّ كبير فأوّلهُ صغير، وأنَّ كلَّ كثير فإنما هو قليل جُمع مِنْ قليل، وأنشدت قول :الراجز

لأفِيل   بالجليل

:وأنشدت قول الشاعر

ق البحورُ   صـغيرٌ

:وقال يزيدُ بن الحكم :وقلت

ٰيم   ا

:وقال الآخر :وقلتَ

ـب حت به

:وأنشدت قول الآخر

ـِر وردة فيكم

ـاء تصبب كبير صغيرة

:وقالت كَبْشة بنت مَعْدِ يكَرِب

ـب راعي المحزم آنـف قـومـه

:وقال الآخر

.العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّة إلا حَيَّةٌ :وتقول العرب

وعبتَ كتابي في خلْق القرآن، كما عبت كتابي في الردِّ على المشبّهة؛ وعِبْتَ كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه، وعبتَ معارضَتي للزيدِيَّة وتفضيلي الاعتزالَ على كلِّ نِحْلة، كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصارى واليهود ثمَّ عبتَ جملة كتبي في المعرفة والتمست تهجينَها بكلِّ حيلة، وصغَّرت من شأنها، وحطَطت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبتَ كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتابَ أصحابِ الإلهام، وكتابَ الحجَّة في تَثْبيت النبوّة، وكتاب الأخبار، ثمّ عبتَ إنكاري بصيرةَ غنام المرتدِّ، وبصيرةَ كلِّ جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغُمْر، وبين استبصار المحقّ، وعبتَ كتابَ الردِّ على الجَهْمِيّة في الإدراك، وفي قولهم في الجَهْالات، وكتاب الفرق ما بينَ النبيّ والمتنبي، والفرق ما بينَ الحِيَل والمخاريق، وبينَ الحقائق الظاهرة والأعلام الباهِرة، ثمّ قصدتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقير لمعانيه، فزَرَيت على نحْتِهِ وسَبْكه، كما زَرَيت على معناهُ ولفظِه، ثمّ طعنتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا، والغاية التي إليها قصَدنا، على أنّه كتابٌ معناه أنبَهُ من اسمِهِ، وحقيقتهُ آنَقُ من لفظه، وهو كتابٌ يحتاجُ أما الرّيض فللتعلُّم والدرْبة، :إليه المتوسِّط العامي، كما يحتاجُ إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الرَّيِّض كما يحتاج إليه الحاذق وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمْكين العادة، إذْ كان جليلُه يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدِّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزّلة، وأما الحاذقُ فلكفايةِ المُؤنة، لأن كلَّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمَّهات العلم مجموعاً، كان له غُنْمه، وعلى مؤلّفه غُرمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحِبِه كَدُّه، معَ تعرُّضِهِ لمطاعِن البُغَاةِ، ولاعتراض المنافِسِين، ومع عرْضِهِ عقلَه المكدودَ على العقولِ الفارغة، ومعانيه على الجهابِذة، وتحكيمه فيه المتأوِّلين والحسَدَة، ومتى ظَفِر بمثله صاحبُ علم، أو هجمَ عليه طالبُ فقه، وهو وادعٌ رافِه، ونَشِيط جَامٌّ، ومؤلّفه مُتعَبٌ مكدود، فقد كُفي مَؤُونَة جمعه وخزنِه، وطلبه وتتبُّعِه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، واستفادِ العمر وفلِّ الحدِّ، وأدرَك .أقصى حاجتِه وهو مجتمعُ القُوَّة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعَلَ هُجومه عليه من التوفيق، وظفَره به باباً من التسديد

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأمم، وتتشابَه فيه العُرْبُ والعَجَم، لأنه وإن كانَ عَرَبيًّا أعرابياً، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخَذَ من طُرَفِ الفلسفة، وجمع بين معرفةِ السماع وعلْم التجربة، وأشرَكَ بين علمِ الكتاب والسنة، وبينَ وِجْدان الحاسَّة، وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيُوخ، ويشتهيه الفاتِكُ كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللَّهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحَزْم، ويشتهيه الغُفْلُ .كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن

:وقالت العثمانية والضراريَّة، كما سمعتَني أقول :وعبتَني بحكاية قول العثمانِيَّة والضِّرَارية، وأنت تسمعني أقول في أوَّل كتابي

قالت الرافضة والزيدية، فحكمتَ عليَّ بالنصْب لحكايتي قول العثمانية، فهلاَّ حكمتَ عليّ بالتشيُّع لحكايتي قول الرافضة وهلا

كنتُ عندَك من الغالِية لحكايتي حجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصِبة لحكايتي قولَ الناصِبة وقد حكينا في كتابنا قولَ

الإباضيَّة والصُّفْرية، كما حكينا قولَ الأزارقة والزيدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَت الخارجية، وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو

فرعٌ ونتيجةٌ، واشتقاقٌ منها، ومحمولٌ عليها، وإلاَّ كنَّا عندَك من الخارجية، كما صرنا عندَك من الضِّرَاريَّة والناصِبَة، فكيف

رضيتَ بأن تكون أسرع من الشيعة، أسرع إلى إعراض الناس من الخارجية، اللهم إلا أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانيَّة

والضِّراريَّة أشبعَ وأجمعَ، وأتمَّ وأحكم، وأجود صنعة، وأبعد غاية، ورأيتني قد وهَّنت حقَّ أوليائك، بقدر ما قوَّيتُ باطل أعدائك

.ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على ما ادعيت واضحا

وعبتَني بكتاب العباسية، فهلاَّ عبتَني بحكاية مقالِة مَن أبى وجوبَ الإمامة، ومَنْ يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أنّ تَركَ النَّاس سُدًى بلا قيِّم أردُّ عليهم، وهملاً بلا راع أربحُ لهم، وأجدَرُ أنْ يجمع لهم ذلك بين سلامَةِ العاجل، وغنيمة الآجل، وأنَّ تركَهم نَشَراً لا نظامَ لهم، أبعد من المَفاسِد، وأجمعُ لهم عَلى المراشد بل ليس ذلك بك، ولكنَّه بهرَك ما سمعتَ، وملأ صدرَك الذي قرأت، وأبعَلك وأبْطَرَك، فلم تتّجه للحجّة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تَعرف بابَ المخرج إذ .جهلتَ بابَ المدخَل، ولم تعرف المصادر إذ جهلتَ الموارد

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغَ في شفاء سَقَمك، ورأيتَ أن إرسالَ اللسان أحضَرُ لَذَّةً، وأبعدُ من النَّصَب، ومن إطالة .الفكرة ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة

ولو كنتَ فطِنت لعجْزك، ووصَلْتَ نقصَك بتمامِ غيرك، واستكفيْتَ من هو موقوفٌ على كفايةِ مثلك، وحَبيسٌ على تقويم أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجِل، وأحقَّ بالمثُوبة في الآجل، وكنتَ إنْ أخطأتك الغنيمةُ لم تُخْطِك السلامة، وقد سَلِم عليك المخالفُ بقدر ما ابتُلي به منكَ الموافِق، وعلى أنَّه لم يُبتَل منك إلا بقدرِ ما ألزمَته من مُؤنةِ تثقيفك، والتشاغُلِ بتقويمك، وهل كنتُ في ذلك إلاّ :هَلْ يَضرُّ السَّحابَ نَبْاحُ الكلابِ، وإلاّ كما قال الشاعر :كما قال العربي

مُ بَحجَرْ أمسى زَاخِراً

:وهل حالُنا في ذلك إلاّ كما قال الشاعر

لَحَ البَحْرَانِ لِ أهجَوْتَها

:وكما قال حسَّانُ بنُ ثابت

غَيْبٍ لئِيمٌ ّزْنِ تَيسٌ

وما أشكُّ أنَّكَ قد جعلت طول إعراضنَا عنك مَطِيَّةً لك، ووجَّهتَ حِلمَنا عنك إلى الخوف منك، وقد قال زُفَر بنُ الحارث لبعض :مَنْ لم ير حقَّ الصفح، فجعل العفْوَ سبباً إلى سوء القول

غِرَارَين أزْرَقَا لذي فوقَ عَرْشِهِ
ضُ حتى يغرّقا أن تُضْرَبَ الطُّلَى

:وقال الأوّل

عُقُودِ حُقُودا بضغائن

:وقال الآخر

الاّ بجُهّال ماَ أنت خائفُهم

الأ بـمـثـقـالِ واحدَبْ إذا قعسوا

فإنّا وإن لم يكن عندنا سِنَان زُفَرَ بن الحارث، ولا معارضةُ هؤلاء الشرَّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقد بالحِقد، فإن عندي ما

:قال المسعوديُّ

ـسيرُ إلى الحشر ض منه خُلقتُما
شَرًّا من الكِبْر عا فتسلّما

ـدي في السِّرِّ كما غير واحد
يَلِجُّ ويَسْتَشْري م أنّهَ عنكُما

:وقال النَّمِر بن تَولَب

انةِ كـاذِبِ جَمرَةَ ابنة نوفلٍ
في النـوائِب الوُشاةَ ليكذِبـوا

أخرجتْ خَبرَها، فخرج إلى من أحبُّ أن يعابَ عندها ولو شئتَ أن نعارضَك لعارضناك في القول بما هو أقبحُ أثراً :يقول

وأبقى وَسْماً، وأصدقُ قِيلاً، وأعدلُ شاهداً، وليس كلُّ مَن تَرَكَ المعارضَة فقد صفح، كما أنَّه ليس من عَارضَ فقد انتصرَ، وقد

:قال الشاعر قولاً، إن فهمتَه فقد كفَيْتَنا مئونة المُعارضَة، وكفيتَ نفسَك لزوم العار، وهو قوله

ي عن الجاهلِ ُ ذمّي لِمَا
ـا القـائلِ . أنا منـصـت
كـالآكِلِ ـريكٌ لـهُ
در سـائلِ ، أهلـهـا
لـبـاطـلِ ، إلـى ذمِّـه
ـة العـاقـلِ تَ ذا إربَةٍ
ٍ خـابـلِ هِـجْـتَـه
رَرِ الآجـلِ ِ شـدَّاتـه

:إنّ العفوَ يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم، وقد قال الشاعر :وقد يقال

ـوم تـدريبُ القوم موعظة

فإنْ كنَّا أسأنا في هذا التقريع والتوقيفِ، فالذي لم يأخُذ فينا بحُكم القرآن ولا بأدَب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يَفزَع إلى

ما في الفِطَن الصحيحة، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ المطّردةُ، والأمثالُ المضرُوبة، والأشعار السائرة، أولى بالإساءَة وأحقُّ

باللائمة

أخذ البريء بذنب المذنب

، وهذا "لا يَجْن يمينُكَ عَلَى شِمَالك" :، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام"وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" :قال اللّه عزَّ وجل

.حكمُ اللّه تعالى وآدابُ رسوله والذي أُنْزِلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَج العقول

فأمَّا ما قالوا في المثل المضروب رَمَتْني بِدَائِهَا وانسلَّتْ، وأمّا قولُ الشعراءِ، وذمُّ الخطباءِ لِمنْ أخَذَ إنساناً بذنْب غيره، وما

:ضَرَبُوا في ذلك من الأمثال، كقول النابغة حيث يقول في شعره

غيرُه وهو رَاتِع رِئ وتـرَكْـتَ

.وكانوا إذا أصاب إبلَهُم العُرّ كَوَوُا السليمَ ليدفعَه عن السقيم، فأسقمُوا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئوا السقيم

وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدِهم فبَلَغَت الألف، فقئوا عَينَ الفحْل، فإنْ زادَت الإبلُ على الألف فقئوا العينَ الأخرى، وذلك المفقَّأ

.والمعمَّى اللذان سمعتَ في أشعارهم

:قال الفرزدق

الخافقاتِ المعنَّـى

:وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف والغارة، فقال الأوّل

سامِع والحامي حِيل عِيَافة

إذا :يذبح العتيرة وكانوا يقولون في موضع الكَفّارة والأمْنِيَّة، كقول الرجل -التي تشقّ أذنها وتترك مدلأة، لكرمها، :الرعلاء

بلغَتْ إبلي كذا وكذا وكذلك غنَمي، ذبحْتُ عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة من نُسُك الرَّجبيّة والجمع عتائر والعتائر من

إنَّما قلتُ إنّي أذبحُ كذا وكذا شاة، والظباء شاء كما أنّ :الظباء فإذا بلغتْ إبلُ أحدِهم أو غنمُه ذلك العددَ، استعملَ التأويلَ وقال

:الغنم شاء، فيجعل ذلك القربانَ شاءً كلَّه ممَّا يَصِيد من الظباء، فلذلك يقول الحارثُ ابن حِلِّزةَ اليشكُريُّ

ّبيض الظّباءُ ا كمـا تُـع

:بعد أن قال

لجزاءُ دَةَ أن يَغ

وكانوا إذا أورَدُوا البقرَ فلم تشرَبُ، إمَّا لكَدر الماء، أو لقلّةِ العطش، ضربوا الثورَ ليقتَحِم الماء، لأنَّ البقرَ تَتْبَعه كما تتبع الشَّوْلُ

:الفحل، وكما تتبع أتُنُ الوحش الحِمار، فقال في ذلك عَوْفُ بن الخَرِع

رْا خـلائي ؛ وجُبْـنـاً
بقر الظّمـاء تُ جبَال سَلمى

:وقال في ذلك أنَس بن مُدْرِكة في قتله سُليك بنَ السُّلَكَة

مَّا عافَتِ البَقرُ ثمَّ أعْـقِـلـهُ
جعائها النَّفَـرُ كتْ حَلِيلـتُـه

:وقال الهَيَّبان الفهميّ

تِ الماءَ بـاقـرُ وب أنْ عافَ باقِرٌ

.ولمّا كان الثورُ أميرَ البقر، وهي تطيعُه كطاعة إناث النحل لليعسوب، سمَّاه باسم أمير النحْلِ

:وكانوا يزعمون أنَّ الجنَّ هي التي تصدُّ الثّيران عن الماء حتى تُمْسِكَ البقرُ عن الشرب حتى تهلِك، وقال في ذلك الأعشى

أعقَّ وأحربـا ـي وربِّـكـم

تِ الماءَ مَشرَبا بَضرِبُ ظَهرَه
اءَ إلاَّ ليُضرْبَا تِ الماءَ باقِرٌ
:إذا كان يُضْرَب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنَّها إنما عافتِ الماءَ ليُضْرب، وقال يحيي بن منصور الدُهليّ في ذلك :كأنّه قال

نِ الجِنُّ ظالِمه بَضْرِبُ وَجْهَه
:وقال نَهْشَلُ بنُ حَرِّيٍّ

م بَـراءُ بنـو عَـدِيٍّ
ُ الظّمَـاءُ ـَبُ بالهَراوى
والسَّمـاء عرَى سُهيلاً
:وقال أبو نُوَيرة بن الحصين، حين أخذه الحكم بن أيُّوب بذنْب العَطرَّق

بعِتَني بالمحلَّق تَ تَعلمُ طاعَتي
بَ العطـرق لعِرَافة صالحٌ
:وقال خِداش بن زُهير حين أُخذ بدماء بني محارب

ولا نصرُهُم نَصْري لستُ مِنـهـمُ
فَ لَـهُ قِدْري ن عِيص شُواحِط
:وقال الآخر

ِ ذنبَ بَني عِجْلٍ بنا ذنْبَ طـيِّءٍ
:ولما وَجَد اليهودِيُّ أخا حنبض الضبابيّ في منزله فخصَاه فمات، وأخذ حنبض بني عَبْس بجنايَة اليهوديّ ، قال قيس بن زُهَيْر

:واللّه أنْ لو قتلته الريح، لودَيْتُمُوه فقال قيس لبني عَبس :فقال ?أتأخذُنا بذنْبِ غيرنا، وتسألنا العَقلَ والقاتلُ يهوديٌّ من أهل تيماء

:الموتُ في بني ذُبيانَ خَيْرٌ من الحَياةِ في بَني عامر ثم أنشأ يقول

اً وإن كنتُ شاطنا ن إن كان ظالمـاً
والجـنُّ كـائنـا آلِ تيمـاءَ طـائر
جِ إن كُنْتَ رَاهِنا أمُّكَ هَـابِـلٌ
ّه مُتَبـاطِـنـا من شَرِّ حنبـض
ِ العِضاهِ الكرازنا ا تجـتـويكُـمُ
قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته

ألسْتِ امرأة وذلك أنّه قد كان تزوج عِدَّةَ نساء، كلُّهنَّ :قال حين قتَلها -وهي صُحْر أختُ لُقَيم -ولما قتَل لُقمان بنُ عادٍ ابنَته

وأنت أيضاً امرأة :خُنَّهُ في أنفُسهنّ، فلمَّا قتَلَ أُخراهنَّ ونزل من الجبل، كان أوَّلَ من تلقاه صُحْر ابنته، فوثَبَ عليها فقتلها وقال

هذه ليلةُ طُهْرِي وهي ليلتُك، فدَعيني أنامُ في :وكان قد ابْتُلِي بأنَّ أختَه كانت مُحْمِقة وكذلك كان زوجُها، فقالتْ لإحدَى نساءِ لُقْمان

:مَضجَعِك، فإنَّ لقمانَ رجلٌ مُنْجِب، فعسَى أن يقع عليَّ فأُنْجِبَ، فوَقَعَ على أُختِه فحَمَلَت بلُقَيْم، فهو قولُ النَّمِرِ بن تَولَب

ُ وابنَما ، أُختِـهِ
لِما حصنَتْ
مُحْكِمَا كِـمٌ

:فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمان ابنتَه صُحراً، فقال خُفافُ بن نَدْبة في ذلك

بَ صُحْر المنـايا

:وقال في ذلك ابن أُذَيْنَة

كما ظَلِمَتْ صُحْرُ لِـى إذا نـأتْ

:وقال الحارثُ بن عُبَاد

ِ عَنْ حِيال ةِ مِنِّـي

ومَ صالِي ا عَلِمَ الـل

:وقال الشاعر، وأظنُّه ابنَ المقفّع

نْبـَ شأنِهِ

:وقال آخر

ِ هْوَ مُليم تَ تَلُـومُ

حديث سنمَّار وقال بعض العرب، في قتل بعض الملوك لِسِنمَّار الرومي؛ فإنه لما علا الخَوَرْنَق ورأى بُنْياناً لم يرَ مثله، ورأى

في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثلَ ذلك البنيانَ لرجُلٍ آخرَ من الملوك، رمَى به من فوق القصر،

:فقال في ذلك الكلبيّ في شيءٍ كان بينَه وبين بعض الملوك

ـا كـان ذا ذنـب ـهُ شَـرَّ جـزائه

ِبيدِ والـسَّـكَـبِ انَ سَبـعـين حِـجَّة

ْدِ ذي الباذِخ الصَّعْبِ تـمَّ سُـحُـوقـه

ودَّةٍ والـقُـرب ه كُـلَّ حـبـوة

نْ أعظَم الخَـطْـب مِنْ رأسِ شـاهـق

لآخُذَنَّ الوَلِيَّ :وجاء المسلمونَ، يروي خَلَفٌ عن سلف، وتابعٌ عن سابق، وآخَرُ عنْ أوّل، أنَّهمْ لم يختلِفُوا في عيبِ قول زِياد

:بالوَلِيِّ، والسَّمِي بالسَّمِيِّ، والجارَ بالجار، ولم يختلفُوا في لَعْن شاعِرهم حيث يقول

السقيمُ غَيْرِ ذَنْبٍ

لولا أنَّ المجنونَ يَلِدُ عاقلاً لخلَّيت :إنَّه مجنون فقال :إنّ فلاناً لما قدَّم رجلاً ليُضْرَبَ عُنُقه، فقيل له :وقِيل لِعَمْرو بن عُبَيد :قال

فضَّ اللهُ فاكَ وأعماك، وأطالَ :ما خَلَقَ اللهُ النَّارَ إلاّ بالحق ولمّا قالت التغلبيَّةُ للجَحَّافِ، في وَقْعَة البِشْر :فقال عَمْرو :سبيلَه، قال

لولا أن تَلِدَ هذِهِ مثلَها لخَلَّيتُ سَبيلَها :سُهادَك، وأَقَلَّ رُقادَك، فوَاللّه إنْ قَتَلتَ إلاّ نساءً أعالِيهنَّ ثُدِيٌّ، وأسافِلُهُنَّ دُمًى فقال لِمنْ حَولَه

.أمَّا الجَحَّاف فجَذْوةٌ من نار جهنَّم :فبلغ ذلك الحسنَ فقال

.رُبَّ مَلومٍ لا ذَنْبَ له :وذمَّ رجلٌ عند الأحنَفِ بن قيس الكَمْأَةَ بالسَّمْن، فقال عند ذلك الأحنَف :قال

.فبهذِهِ السيرةِ سرتَ فينا

:وما أحسنَ ما قال سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن

جَنَى لسَعيدُ وأصْبَحَ سالماً

عناية العلماء بالملح والفكاهات

وما بالُ أهل العلم والنظر، وأصحابِ الفكر والعِبَر، وأربابِ النِّحَل، والعلماءِ وأهل البصر بمخارج المِلل، وورثةِ الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتُبُون كتبَ الظُّرَفاءِ والمُلَحَاء، وكُتب الفُرَّاغ والخُلَعاء، وكتبَ الملاهي والفُكَاهات، وكتبَ أصحابِ الخُصوماتِ، وكتبَ أصحابِ المِراءِ، وكتبَ أصحاب العصبيَّةِ وحَمِيَّةِ الجاهليّة ألأنَّهُمْ لا يحاسِبون أنفسهم، ولا يُوازنون بينَ ما عَنْ -يَرْحَمُكَ الله -فهلاّ أمسكتَ ?عليهم ولهم، ولا يخَافُون تصفُّحَ العلماءِ، ولا لائمة الأرَبَاء، وشنف الأكْفَاء، ومَشْنأة الجُلَساء ?عَيْبها والطَّعْنِ عليها، وعن المَشُورَةِ والموعِظة، وعن تخويفِ ما في سوء العاقبةِ، إلى أنْ تبلغَ حالَ العلماء، ومراتبَ الأكْفاء فأمَّا كتابُنا هذا، فسنذكرُ جُمْلَة المذاهب فيه، وسَنَأتِي بعد ذلك على التفسير، ولعلَّ رأيَك عند ذلك أنْ يتحوَّل، وقولك أن يتبدل، فتُثْبتَ أو تكونَ قد أخذتَ من التوقُّفِ بنصيب، إن شاء الله.

أقسام الكائنات

وأقول: إنّ العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متَّفق، ومختلف، ومتضادٌّ؛ وكلُّها في جملةِ القول جمادٌ ونامٍ، وكان حقيقةُ القول في الأجسام من هذه القِسْمة، أن يقال: للنامي اسماً، لاتبّعنا أثرَهُمْ؛ وإنما ننتهي إلى حيثُ انتهوا، وما أكثرَ ما تكونُ دلالةُ قولِهِمْ جماد، كدَلالةِ قولهم مَوَات، وقد يَفترقان في مواضعَ بعضَ الافتراق، وإذا أخرجت من العالم الأفلاكَ والبروجَ والنجومَ والشمسَ والقمر، وجدتَها غيرَ نامية، ولم تجدْهم يسمُّون شيئاً منها بجَماد ولا مَوات، وليس لأنَّها تتحرَّكُ من تِلقاءِ أنفُسِها لم تُسَمَّ مواتاً ولا جماداً، وناسٌ يجعلونها مدبِّرة غير مدبَّرة، ويجعلونها مسخِّرة غير مسَخَّرَة، ويجعلونها أحْيَا من الحيوان؛ إذْ كان الحيوانُ إنَّمَا يَحْيا بإحيائها له، وبما تُعطيه وتُعِيره، وإنما هذا منهم رأي، والأمَمُ في هذا كلّه على خلافِهم، ونحنُ في هذا الموضع إنَّما نعبِّر عن لُغَتنا، وليس في لُغتنا إلاّ ما ذكرنا.

والناسُ يسمُّون الأرضَ جماداً، وربّما يَجعلونها مَوَاتاً إذا كانتْ لم تُثبتْ قديماً، وهي مَوَات الأرض، وذلك كقولهم: مَنْ أحيَا أرضاً مواتاً فهي له.

وهم لا يجعلون الماء والنارَ والهواءَ، جماداً ولا مَوَاتاً، ولا يسمُّونَها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى النَّماء والحسّ.

والأرضُ هي أحدُ الأركان الأربعة، التي هي الماءُ والأرضُ والهواءُ والنار، والاسمان لا يتعاوَرَان عندَهم إلاّ الأرض.

تقسيم النامي

شيءٌ يمشي، وشيء يطير، وشيء يسْبَحُ، وشيءٌ يَنْسَاح، إلاّ :حيوان ونبات، والحيوانُ على أربعة أقسام :ثمَّ النامِي على قسمين ناس، وبهائم، وسباع، :أنّ كلَّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يَمشي ولا يَطِير يسمى طائراً، والنوعُ الذي يَمشي على أربعةِ أقسام وحشرات، على أنّ الحشَرَاتِ راجعةٌ في المعنى إلى مشاكلةِ طباع البهائم والسباع، إلاّ أنّنا في هذا كلّه نتبع الأسماءَ القائمة المعروفة، البائنات بأنفُسِها، المتميِّزاتِ عند سامعيها، مِنْ أهلِ هذه اللغةِ وأصحاب هذا اللسان، وإنَّما نُفرِد ما أفرَدوا، ونَجْمَع ما جَمَعوا.

تقسيم الطير

فمنها العِتاقُ والأحرارُ والجوارحَ، ومنها البغاث وهو كلُّ ما :والطيرُ كلٌّ سَبُع وبَهيمة وهَمَج، والسباعُ من الطير على ضَرْبَيْن سبعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكنْ من ذواتِ السلاح والمخالبِ المعقّفة، كالنُّسورِ والرَّخَم والغِربان، وما أشبهها مِنْ :عظمَ من الطير لئام السباع، ثم الخَشَاش، وهو ما لطُف جرمُه وصَغُر شخصه، وكان عديمَ السلاح ولا يكون كالزُّرَّق واليُؤيُؤ والباذنجان.

فأما الهَمَج فليس من الطير، ولكنَّه ممَّا يطير، والهمَجَ فيما يطيرُ، كالحشراتِ فيما يمشي، والحيّاتُ من الحشرات، وأيُّ سبع ولكن ليس ذلك من أسمائها، وإن كانتْ من ذوات الأنيابِ وأكَّالة اللُّحوم وأعداِء ?أدخَلُ في معنى السَّبُعيَّة مِنَ الأفاعي والثعابين الإنس وجَميع البهائم، ولذلك تأكلُها الأوعَال والخَنازيرُ والقَنافِذُ والعِقبان والشاهْمُرك والسنانير، وغير ذلك من البهائم، والسباع، فَمنْ جَعَلَ الحيَّاتِ سِباعاً، وسمَّاها بذلك عندَ بعضِ القول والسببِ فقدْ أصابَ، ومن جَعلَ ذلك لها كالاسمِ الذي هو العلامةُ كالكَلْبِ والذئب والأسَد فقد أخطأ.

ومن سِباعِ الطير شكلٌ يكون سِلاحُه المخالبَ كالعُقابِ وما أشبهها، وشيءٌ يكونُ سِلاحُه المناقيرَ كالنُّسُور والرَّخَم والغِرْبان، وإنَّما جعلناها سباعاً لأنّها أكَّالةٌ لحوم.

ومِنْ بهائم الطير ما يكون سلاحُه المناقيرَ كالكَرَاكِيِّ وما أشبهها، ومنه ما يكونُ سلاحُه الأسنانَ كالبُوم والوَطْوَاطِ وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحُه الصياصي كالدِّيَكَة، ومنه ما يكون سلاحه السَّلْح كالحُباري والثعلب أيضاً كذلك.

ما أكلت الحبَّ خالصاً، وفي الفنِّ الذي يجمعها من الخلْقِ المركَّبِ والطبع :ما أكل اللحمَ خالصاً، والبهيمةُ :والسَّبع من الطير المشتَرَك، كلامٌ سنأتي عليه في موضعه إن شاء الله تعالى، والمشتَرَك عندهم كالعصفور؛ فإنَّه ليس بذي مِخْلَبٍ معقَّف ولا مِنْسَر وهو يلقط الحبَّ، وهو مع هذا يصيد النَّمْل إذا طار، ويَصِيد الجرادَ، ويأكُلُ اللحم، ولا يَزُقُّ فِرَاخَه كما تزقُّ الحمامُ، بل يُلْقِمها كما تُلْقِمُ السباعُ من الطير فراخَها، وأشباهُ العصافيرِ من المشترَك كثيرٌ، وسنذكُر ذلكَ في موضِعه إن شاء الله تعالى.

وليس كلُّ ما طار بجَناحين فهو من الطير؛ قد يطير الجعْلان والجَحْلُ واليَعاسِيبُ والدّبابُ والزَّنابيرُ والجَرادُ والنمْل والفَراشُ

والبَعوضُ والأرضَة والنحلُ وغيرُ ذلك، ولا يسمَّى بالطير، وقد يقال ذلك لها عند بعض الذكرِ والسبب، وقد يسمُّون الدجاجَ طيراً ولا يسمُّون بذلك الجراد، والجرادُ أطْيَر، والمثلُ المضروبُ به أشهر، والملائكةُ تطِيرُ، ولها أجنحةٌ وليستْ من الطير، وجَعفر بن أبي طالب ذو جناحين يَطير بهما في الجنَّة حيثُ شاء، وليس جعفرٌ من الطير.

واسم طائرٍ يقَع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجَناح، وليس بالريش والقَوادِمِ والأباهِرِ والخوافي، يسمَّى طائراً، ولا بعدمه يسقط ذلك عنه، ألا ترى أنَّ الخفَّاشَ والوَطواط من الطير، وإن كانا أمْرَطين ليس لهما ريشٌ ولا زَغَبٌ ولا شَكِيرُ ولا قَصَب وهما مشهوران بالحمل والولادة، وبالرَّضاع، وبظهور حَجْم الآذان، وبكثرة الأسنان، والنعامة ذاتُ ريشٍ ومِنقارٍ وبَيضٍ وجَناحين، وليست من الطير.

وليس أيضاً كلُّ عائمٍ سمكة، وإن كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه، ألا تَرَى أنّ في الماء كَلْبَ الماء، وعنْزَ الماء، وخِنزيرَ الماء؛ وفيه الرِّقُّ والسُّلحْفاة، وفيه الضِّفْدَع وفيه السرطان، والبَيْنيبُ، والتِّمساح والدُّخس والدُّلفين واللَّخْمُ والبُنْبُك، وغيرُ ذلك من الأصناف، والكَوسَج والد اللُّخْم، وليس للكوسج أبٌ يُعرَف، وعامَّةُ ذا يَعيش في الماء، ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطّ ويَبِيضُ بيضاً له صُفْرَةٌ، وقَيْضٌ وغِرْقِئٌ، وهو مع ذلك ممّا يكون في الماء مع السمك.

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يَصْنَع صمتاً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لِمَا لَمْ يتكلَّمْ قطُّ، فيحملون ما يرغو، ويَثْغو، ويَنهَق، ويَصْهل، ويَشْحَج، ويَخُور، ويَبْغَم، ويَعوي، ويَنبَح، ويَزْقو، ويَضْغُو، ويَهْدِر، ويَصْفِر، ويُصَوْصِي، ويُقَوْقِي، ويَنْعَبُ، ويَزْأر، ويَنْزِبُ، ويكِشُّ، ويَعِجُّ، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض، ولذلك أشباهٌ، كالذكور والإناث إذا اجتمعا، وكالعِير التي تسمَّى لطِيمة، وكالظُّعُن؛ فإنَّ هذه الأشياءَ إذا وجد بعضُها إلى بعض، أو أخَذ بعضُها من بعض، سُمِّيَتْ بأنبَه النوعَين ذِكْراً، وبأقواهما، والفصيحُ هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوتٍ لا يفهَمُ إرادتَه إلاّ ما كان من جنسه، ولعمري إنا نفهم عَن الفَرس والحمارِ والكلبِ والسِّنَّور والبعير، أنّ بكاءَه يدلُّ على خلافِ ما -وهو من جليل العلم -كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره، كما نفهم إرادةَ الصبيِّ في مَهْده ونعلم يدُلُّ عليه ضَحِكُه، وحَمْحَمَةُ الفرَس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما يدلُّ عليه حَمحمتُه عند رؤية الحِجْر، ودُعاء الهرَّةِ الهرَّ خلافُ دعائها لولدها، وهذا كثير.

والإنسانُ فصيح، وإنْ عبَّرَ عن نفسِه بالفارسيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة، وليس العربيُّ أسوأ فهماً لِطَمْطَمَةِ الروميِّ من الرومي فصيح وأعجَم، فهذا هو التأويل في قولهم أعجم، وإذا لبيان لسان العربيّ، فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا:

قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنَّما يَعنُون أنَّه لا يتكلَّم بالعربيَّة، وأنَّ العربَ لا تفهم :عنه، وقال كُثيِّر

ى ابنُ ليلى وناطقُه ابنُ ليلـى بـنِـيَّةٍ

ويقال جاء بما صأى وصمت، فالصامت مثل الذهب والفضّة، وقوله صأى يعني الحيوانَ كلَّه، ومعناه نطق وسكت؛ فالصامت .في كلّ شيءٍ سِوَى الحيوان

شيءٌ جُعِلَ حكمة وهو لا يَعقِل الحكمة ولا عاقبة الحِكمة، :ووجدْنا كونَ العالَم بما فيه حكمةً، ووجدْنا الحِكمَة على ضربَين وشيءٌ جُعِل حكمة وهو يَعْقِل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بذاكَ الشيء العاقلُ وغير العاقل في جهةِ الدَّلالةِ على أنَّهُ حكمة؛ واختلفا من جهةِ أنَّ أحدهما دَليلٌ لا يَستَدِلّ، والآخر دليل يستدل، فكلُّ مُستَدِلٍّ دليل وليس كلُّ دليل مستدلاً، فشارك كل حيوانٍ سوى الإنسان، جميعَ الجمادِ في الدَّلالة، وفي عدم الاستدلال، واجْتَمَع للإنسان أنْ كان دليلاً مستَدِلاًّ، ثُمَّ جُعِل للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ .به على وجوهِ استدلاله، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال، وسمَّوا ذلك بياناً

وسائل البيان

لفظ، وخطّ، وعَقْد، وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدِلُّ تَمْكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه، :وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلالة، وأُودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة، ناطقة مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبة من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة، مخبرٌ لمن استخبَرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللون، عن سُوءِ الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحُسْنُ النَّضْرَة، عن حسن الحال، :وقد قال الشاعر وهو نصيب

عليك الحقائب ي أنْتَ أهلُـه:

:وقال آخر

أو صديقٍ ن القلوبِ

:وقد قال العُكْليُّ في صِدق شمِّ الذّئب وفي شدّةِ حسِّه واسترواحه

ا لم يَسْمَع فا الموقَّع

:وقال عنترة، هو يصف نَعِيبَ غُراب

ٌ لَحْيَيْ رأسه هَشٌ مُولـع

مَنْ شقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لم :سَل الأرْضَ، فقلْ :وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه فموضوعُ الجسم ونَصْبته، دليلٌ على ما فيه وداعية إليه، ومنبهة عليه، فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من .تُجبكَ حِواراً، أجابتْكَ اعتباراً

هذا الوجه، قد شارَكَ في البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق، فمَنْ جَعَل أقسام البيان خمسة، فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللغة، وشاهدٌ في العقل، فهذا أحدُ قِسمَي الحكمة، وأحَدُ مَعْنَيَيْ ما استخرنها الله تعالى من الوديعة.

ما يعجز عنه الإنسان والحيوان

والقسمة الأخرى ما أودَع صدور صنوفِ سائر الحيوان، مِنْ ضُرُوبِ المعارف، وفطرها عليه من غريب الهداياتِ، وسخَّر حناجِرَها لهُ من ضروبِ النَّغَم الموزونة، والأصواتِ الملحنة، والمخارج الشجيَّة، والأغاني المطربة؛ فقد يقال إنَّ جميعَ أصواتها معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثمَّ الذي سهَّل لها من الرفق العجيبِ في الصنعة، مما ذلّله الله تعالى لمناقيرها وأكُفِّها، وكيف فَتَحَ لها من باب المعرفةِ على قدر ما هَيَّأ لها من الآلة، وكيفَ أعطى كثيراً مِنها مِنَ الحسِّ اللطيفِ، والصنْعةِ البديعة، من غير تأديبٍ وتثقيف، ومن غير تقويمٍ وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبَلَغَتْ بعَفوها وبمقدار قوى فِطرتها، من البَديهةِ والارتجال، ومن الابتداءِ والاقتضاب، ما لا يَقْدرُ عليه حُذّاقُ رجالِ الرأي، وفلاسفةُ علماءِ البشر، بيَدٍ ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُهُمْ خصالا وأتمُّهُمْ خلالاً، لا مِنْ جهة الاقتضاب والارتجال ولا من جهة التعسُّف والاقتدار، ولا من جهة التقدُّم فيه، والتأنِّي فيه، والتأتِّي له، والترتيبِ لمقدِّماته، وتمكين الأسباب المُعِينةِ عليه، فصار جهد الإنسان الثاقبِ الحسِّ، الجامِع القُوى، المتصرِّفِ في الوجوه، المقدَّم في الأمور، يَعجِز عن عَفْوِ كثيرٍ منها، وهو ينظرُ إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوتُ، وكما أعطِيَت السُّرْفة، وكما عُلِّم النحْل، بل وعُرِّفَ التُّنَوِّطُ مِن بديع المعرفة، ومِن غَريبِ الصنعة، في غير ذلك مِن أصناف الخلق، ثم لم يوجب لهم العجز في أنْفُسِهِمْ في أكثر ذلك، إلاّ بما قوي عليه الهَمَجُ والخشَاشُ وصِغارُ الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلُّفِ والتجربَة، وذا التأتِّي والمنافَسَة، وصاحبَ الفهْم والمسابَقَة، والمتبصِّرَ شأنَ العاقبة، متى أحسَنَ شيئاً كان كلُّ شيءٍ دونَه في الغُمُوض عليه أسهلَ، وَجَعَل سائِرَ الحيوان، وإن كان يحسنُ أحدُها ما لا يحسنُ أحذَقُ الناس متى أحسنَ شيئاً عجيباً، لم يمكنْهُ أن يُحسِن ما هو أقربُ منه في الظنّ، وأسهلُ منه في الرأي، بل لا يحسِنُ ما هو أقرب منه في الحقيقة، فلا الإنسانُ جَعَلَ نفسه كذلك، ولا شيءٌ من الحيوان اختارَ ذلك، فأحسَنَتْ هذه الأجناسُ بلا تعلُّم، ما يمتَنِع على الإنسان وإن تعلَّم، فصار لا يحاوله؛ إذْ كان لاَ يطمع فيه، ولا يحسُدُها؛ إذا لا يؤمِّل اللّحَاقَ بها، ثمّ جعل تعالى وعزَّ، هاتين الحكمتين بإزاء عُيون الناظِرين، وتُجَاهَ أسماع المعتَبرين، ثمَّ حثَّ على التفكير والاعتبار، وعلى الاتّعاظ والازدِجار، وعلى التعرُّفِ والتبَيُّن، وعلى التوقُّفِ والتذكُّر، فَجَعَلَها مذكّرةً منبِّهة، وجَعَلَ الفِطر تُنْشِئُ الخَواطرَ، وتجُولُ بأهلها في المذاهب، ذَلِكَ اللّهُ رَبُّ العالمِينَ. "فَتَبارَكَ اللّهُ أحْسَنُ الخَالِقِينَ".

مزج الهزل بالجدّ في الكتاب

وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقُّهٍ وتنبيه، وأراكَ قد عِبتَه قبل أن تقفَ على حُدودِه، وتتفكَّرَ في فصوله، وتَعتبِرَ آخَره بأوله، ومَصَادِرَه بموارده، وقد غلطك فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مزحٍ لا تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطَّلِعْ على غَورها؛ ولم تدرِ لم اجتُلِبت، ولا لأيِّ علّة تُكلِّفت، وأيّ شيءٍ أُريغَ بها، ولأيِّ جِدٍّ احتُمِل ذلك الهزل، ولأيِّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة؛ ولم تَدْرِ أنَّ المزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلِب ليكون علّةً للجِدِّ، وَأنَّ البَطالة وَقارٌ ورزَانة، إذا تُكلِّفت لتلك العافية، ولمَّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه، حتَّى يتعلَّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّه إن حَمَلْنَا جميعَ من يتكلَّف قراءة هذا الكتابِ على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجِدّ، وثِقل المؤونة، وحِلية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلاّ من تجرَّدَ للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزِّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من الكَدّ، والكثرةُ من السآمة، وما أكثر مَن يُقَاد إلى حظّه بالسواجير، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم لم أرَكَ رضيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لي بعينه، حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ، وكيفَ تصرفتْ بها الوجوه، وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم، حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علم، ثم تجاوزْتَ ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَابَ؛ ونعم الذخر والعُقدة هو، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخِيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً، وَظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً؛ إنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِه، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه، وَمَنْ لكَ بواعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ، وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ:

حـى وشـدا ... تَ مِهْذارُ
لـبُـرُودَةِ ح ... ، كَأَنَّكَ النارُ
رن مِنْ صِفَتِي ... دٌ حـارُ

ومَنْ لكَ بطبيب أعرابيّ، وَمَنْ لكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقَدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لكَ الأوَّلَ والآخِر، والناقص والوافر، والخفيَّ والظاهر، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسمين، والشَّكْلَ وخِلافَه، والجِنسَ وضدَّه.

فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ، وناطقاً ينطِق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء وَمَنْ لك بمؤنس :وبعد لا ينام إلاّ بنومِك، ولا ينطق إلاّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعربين، بل مِنَ الصِّبيان قبلَ اعتراض الاشتغال، ومن العُميان قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تنقص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم، والإرادَةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطبائع، والقضيبُ رطبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرَّق قُواها، وكانت كما قال الشاعر:

أنْ أعرفَ الهَوى بأ فتمكّنا

وقال عَبْدة بن الطَّبيب:

بِبُّ صبيُّهم اوةِ يُنْشَعُ

التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقش في الحجر، وقد قال جِرَانُ العَودِ :ومن كلامهم:

رحاء حتَّى ى البَصير
رةِ أو وُشُومِ ةِ النَّؤُور

وقال آخر، وهو صالحُ بن عبد القُدُّوس:

، الصِّبَى اءَ في غَرْسِهِ
ا ناضِراً في يُبْسِهِ

وقال آخر:

لام المؤدِّبُ والرأسُ أشيَبُ

وقال آخر:

دَ ما هَرِمَتْ مَهُ الهَرِم

اكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ، لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها :وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ لعيسى بن عمر ليلته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام.

وعبتَ الكتابَ، ولا أعلمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهة، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَكَ لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب، ولا أعلمُ قريناً أحسنَ موَافاةً، ولا أعجَل مكافأة، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مؤونة، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمعَ أمراً، ولا أطيَبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجتَنى، ولا أسرَعَ إدراكاً، ولا أوجَدَ في كلّ إبَّانٍ، من كتاب، ولا أعلمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكان وُجوده، يجمَعُ من التدابير العجيبَة والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمودِ الأذهان

اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجاربِ الحكيمة، ومِنَ الإخبار عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازحة، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ، قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(فوَصَفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنْ علَّمَ بالقلم، كما وصف نفسَه بالكرَم، واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام، وفي أياديه الجِسام، وقد قالوا: القلَمُ أحدُ اللسانَين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النِّعمة في بَيان اللسان، كان بفضل النِّعمة في بيان القلم أعرَف، ثمَّ جعله في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب، جَعَلَ هذا الأمرَ قرآناً.

كون الاجتماع ضرورياً

ثمَّ اعلمْ، رحِمَك اللّه تعالى، أنّ حاجة بعض الناس إلى بعضٍ، صفة لازمة في طبائِعهم، وخِلقة قائِمة في جواهِرهم، وثابتة لا تُزَايلُهم، ومُحيطة بجماعَتِهم، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم، وحاجَتُهُمْ إلى ما غاب عنهم ممَّا يُعِيشُهم ويُحْيِيهم، ويُمسِك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالهم، وَيَجْمَع شملهم، وإلى التعاوُن في دَرْكِ ذلك، والتوازُر عليه كَحَاجَتِهم إلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تَغِبْ عنهم، فحاجَةُ الغائِبِ مَوصُولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفةِ الأدنى، معانٍ متضمّنةٌ، وأسبابٌ متَّصلة، وحبالٌ منعقدة، وجعل حاجتَنَا إلى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلنا، كحاجةِ من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب اللّه البشارات بالرُّسل، ولم يسخِّر لهم جميعَ خلْقه، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه، وجعلَ الحاجَة حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلِّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد، وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساع معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قدْر احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة، ثم لم يقطع الزيادةَ إلا لعجْز خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز، إلاّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق اللّه تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجتِه بنفسه دونَ الاستعانة ببعض من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقة إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه، ثُمَّ جَعَلَ اللّه تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خَوَلاً، وفي يَدِه مُذَلَّلاً مُيَسَّراً إمّا بالاحتِيال له والتلطُّفِ في إراغَتِه واستِمالتِه، وإمّا بالصَّوْلةِ عليه، والفتكِ به، وإمّا أنْ يأتِيَهُ سهواً ورهواً، على أنَّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها، إلاّ أنّ الحاجة تفتَرق في الجنس والجهةِ والجِبِلَّة، وفي الحظّ والتقدير.

ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّر فيها، والنظر في أُمورها، والاعتبار بما يَرَى، ووَصَلَ بينَ عُقولهم وَبيْنَ معرفةِ تلك الحكَم الشريفة، وتلك

الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكير، وبالتنقيب والتنقير، والتثبت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بمواقع حاجاتِهم إليها، وتشاعُرهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

البيان ضروري للاجتماع

وهو البيانُ الذي جعله اللّه تعالى سبباً فيما بينَهم، ومعبِّراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفاً لمواضع سدِّ الخَلّة ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباحِ الماثلة، والأجسامِ الجامدة، والأجرامِ الساكنة، التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيعِ العلم، إلاّ بالعقل الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكر، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَع، والتحفُّظِ مِن دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشّكلَ أفهَمُ عن شِكله، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع، والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً" :أنزَع، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال اللّه عزّ وجلّ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان .لأنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيان التي بها يتعارَفُون معانِيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة :جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وَضِعت له وصُرفتْ إليه، وهذه الخصال هي الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالةِ، وصدقِ الشهادة ووُضوح البرهان، في الأجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تُفهَم ولا تتحرَّك إلاّ بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلّي عنها، بعد أنْ كان تقييده لها.

ثمَّ قسّم الأقسامَ ورتَّب المحسوسات، وحصَّل الموجوداتِ، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارةَ للناظر، وأشرَك الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد، إلاّ بما فضّل اللّه به نصيبَ الناظر في ذلك على قدْر نصيبِ اللامس، وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيباً.

خطوط الهند

ولولا خطوطُ الهندِ لضاع من الحساب الكثيرُ والبسيط، ولبطلت مَعرفةُ التضاعيف، ولعدِموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدرَكوا ذلك لما أدرَكوه إلاّ بعد أنْ تغلُظ المؤونة، وتنتَقِضَ المُنّةُ، ولصارُوا في حال مَعْجَزَةٍ وحسور، وإلى حال

مَضيعَةٍ وكَلالِ حدّ، مع التشاغُلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه الدَّلالةِ لكان أربحَ لهم، وأرَدَّ عليهم، أن يُصرَف ذلك الشغلُ في أبوابِ منافع الدين والدنيا.

نفع الحساب

:، ثم قال"الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" :ونفع الحساب معلوم، والخَلّةُ في موضع فقدِه معروفة، قال اللّه تعالى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً، " :، وبالبَيَانِ عَرَفَ الناسُ القرآنَ، وقال اللّه تباركَ وتعالى"الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بحُسْبَانٍ" فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيان بالقرآن، وبحُسْبان منازلِ القمر، عَرَفنا حالاتِ المدِّ "وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ والجزْر، وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهِلَّة وأنصافِ الشهور، وكيف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار

.

فضل الكتابة

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلب سُلطانُ النِّسيان سلطانَ الذكر، ولمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضع استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقدار حفْظ الناس لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يَبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محموداً، ولو كُلِّفَ عامّةُ مَن يطلب العلمَ ويصطنِع الكتب، ألاّ يزال حافظاً لفِهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شططاً، ولَشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به، وفهمُك لمعاني كلامِ الناس، ينقطع قبل انقطاع فهْم عين الصوتِ مجرَّداً، وأبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلك والمعاونِ لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمَتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدَّلالة، فجعل اللفظ رَفْعُ :لأقرَب الحاجاتِ، والصوتَ لأنفَسَ من ذلك قليلاً، والكتابُ للنازح من الحاجاتِ، فأمّا الإشارة فأقربُ المفهوم منها الحواجبِ، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاهِ وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمَّ ينقطع عملُها ويدرُس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعدُ كلُّ شيءٍ فضَل عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوطِ والكتب، فأيُّ نفع أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعوَنُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا وليس للعَقْد حظُّ الإشارةِ في بُعد الغاية.

فضل القلم

فأقسَمَ "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"فلذلك وضع اللّه عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذِكره في المنْصِب الشريف حين قال بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ غايتِه، لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائِر الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائِمة واكدة، وراهِنةً ثابتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم أمراً يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلاّ ما خُصَّت به الدواوين؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم.

فضل اليد

فاللسانُ الآنَ إنَّما هو في منافع اليدِ والمرافق التي فيها، والحاجاتِ التي تبلُغها، فمن ذلك حظُّها وقِسْطُها من منافع الإشارة، ثم نَصِيبُها في تقويم القلم، ثم حَظُّها في التصوير، ثم حَظُّها في الصناعات، ثم حَظُّها في العَقْد، ثم حَظُّها في الدَّفْع عن النفس، ثمَّ حَظُّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضُّؤ والامتساح، ثم انتقادِ الدنانيرِ والدراهمِ ولُبسِ الثِّياب، وفي الدفع عن النفس، وَأَصْنَافِ الرَّمْي، وأصنافِ الضرْب، وأصناف الطعْن، ثم النَّقْر بالعُود وتحريكِ الوتر؛ ولولا ذلك لبَطل الضرْبُ كلُّه أو عامَّتُه، وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطبْل والدُّفّ، وتحريكُ الصفَّاقتين، وتحريك مخارِق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس، ولو لم يكنْ في اليدِ إلاّ إمساكُ العِنان والزِّمام والخِطام، لكانَ من أعظمِ الحظوظ، وقد اضطرَبوا في الحكْم بين العَقْد والإشارة، ولولا أنّ مغْزانا في هذا الكتابِ سوى هذا الباب، لقد كانَ هذا ممَّا أُحِبُّ أن يعرفَه إخوانُنَا وخلطاؤنا، فلا ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلاّ بعدَ الفَراغ ممَّا هو أولى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تَعِبْ كتبي، من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنَّما قَصَدْنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

فضل الكتاب

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حال شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبّاً، وورُوده خِمْساً، وإن شئت لزمَك لزومَ ظلّك، وكان منك مكانَ بعضِك.

منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لمَا فهموا عنك :والقلمُ مكتفٍ بنفسه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيره؛ ولا بدَّ لبيان اللسان من أمور خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستَمِيح الذي لا يستَريبُك، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَك بالملَق، ولا يعامِلُك بالمَكر، ولا يخدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب، والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَك، وَعمَّر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَة الملوك، وعَرفتَ به في شهر، ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوفِ بباب المكتِسب بالتعليم، ومِن الجُلوس بين يَديْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقاً، وأكرمُ منه والكتابُ هو الذي يُطِيعُك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعُك في السفر .عِرْقاً، ومع السلامةِ من مجالسَة البُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعتَّريه كَلالُ السهر، وهو المعلِّمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك، وإن قطعتَ عنه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزلتَ لم يَدعْ طاعتَك، وإن هبَّتْ ريحُ أعادِيك لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلِّقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبْل، كان لك فيه غنًى من غيره، ولم تَضْطرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء، ولو لم يكن مِن فضْله عليك، وإحسانِه إليك، إلاّ منعُه لكَ من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارَّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوق التي تَلزَم، ومن فُضول النظَر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك، ومِن ملابسةِ صغار الناس، وحضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسِدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النعمة وأعظمَ المِنَّة.

وقد علمنا أنَّ أفضلَ ما يقطع به الفُرَّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم، الكتاب، وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثرٌ في ازدِياد تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة، ولا في صون عرض، ولا في إصلاح دِين، ولا في تثمير مال، ولا في رَبِّ صنيعة ولا في ابتداء إنعام.

يا بَنيَّ لا تقوموا في الأسواق إلاّ على زَرَّادٍ :أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب وقال أبو عبيدة، قال المهلَّب لبنِيه في وصيَّتِه أو وَرَّاق.

ذهبَت المكارمُ إلاّ من الكتب :قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه مِن مآثر غطفان فقال :وحدَّثني صديقٌ لي قال.

غَبَرتُ أربعين عاماً ما قِلْتُ ولا بتُّ ولا اتكأت إلاّ والكتابُ موضوعٌ على صدري :وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول.

فإذا اعتراني ذلك تناولتُ :قال -وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة -إذا غشِيَني النعاس في غير وقتِ نوم :وقال ابن الجهْم كتاباً من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائِد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والذي يغشَى قلْبي من سرور

.الاستبانة وعزِّ التبيين أشدَّ إيقاظاً مِن نَهيق الحمير وهَدَّةِ الهدْم

فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم -إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه :وقال ابن الجهم فقد تَمَّ عيشي -بقي من ورقِهِ مخافَة استنفاده، وانقطاع المادَّة من قِلّيه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثير الورق، كثير العدد .وكَمُلَ سروري

لكنِّي ما رغّبني فيه إلاّ الذي زهّدك فيه؛ :لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه، فقال ابن الجهم :وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال .وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخْلاني من فائدة، وما أُحصِي كم قرأتُ من صغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلت

ألا تتعجَّبُ من فلانٍ نَظَر في كتابِ الإقليدس مع جارية سَلْمَويه في يومٍ واحد، وساعة واحدة، :وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم فقد فرغتِ الجاريةُ من الكتابِ وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنَّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأُرَاك تزعم أنّه قد فرغ من :الكتاب مِن سَلْمَوَيهِ على تعليمِ جارية، قال ابن الجهم كم أنفقتَ على كتابِ :لأنّي سمعتُه يقول لابنِه :قال ?وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب :مقالة قال العتبي إنَّما رَغّبَني في العلم أنّي ظننتُ أنّي أنفق عليه قليلاً وأكتسِب كثيراً، فأمّا إذا صرتُ أنفِق الكثيرَ، :أنفقت عليه كذا، قال :قال ?كذا .وليس في يدي إلاّ المواعيدُ، فإنّي لا أريد العلمَ بشيء

السماع والكتابة

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلف إليه، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله، ألذَّ عندَه من الإنفاق من مال عدوِّه، ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب، ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهتَرين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضِيّاً، وليس يَنتفِع بإنفاقِه، حتَّى يؤثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابي وقال إبراهيم .حرص الزنادقة على تحسين كتبهم -فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤَمِّل الأعرابي في فرسه، ودِدْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرق :بن السِّنديّ مرة البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنّي لم أرَ كورَق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطّاً، وإذا غرمتُ كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيم العلم، وتعظيمُ العلم دليل -مع حبِّي للمال وبُغْضِ الغُرْم -مالاً عظيماً إنّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على :على شرف النفس، وعلى السلامَة من سُكْر الآفات، قلت لإبراهيم البيَع، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكمٍ وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين، أو لو كانت كتُبهم كتباً تُعرِّف الناسَ -أبوابَ الصِّناعات، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب

لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التبيُّن، ولكنَّهم -وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غِنًى ولا يُبْعِد من مأثَم ذهبوا فيها مذهبَ الدِّيانة، وعلى طريق تعظيم المِلّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارَى على صُلْبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سَدَنةِ البدَدَة، ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبذولةٌ، والطرقُ إليها سهْلةٌ معروفة، فما بالُهُم لا يصنعون ذلك إلاّ بكتُب دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم ولو كان هذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخُشوع، لبلغُوا في ذلك بعَفْوهم، ما لا تبلُغُه النصارى بغاية الجَهْد.

مسجد دمشق وقد رأيتُ مسجِدَ دِمَشْق، حين استجاز هذا السبيل ملِكٌ من ملوكها، ومَنْ رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه، وأنَّ الرومَ لا تسخوا أنفُسهم به، فلمَّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جَلّله بالجِلال، وغَطّاه بالكرابيس، وطبَخَ سلاسلَ القناديلِ حتَّى ذهب عنها ذلك التلألؤُ والبريق؛ وذهب إلى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِبٌ لسنَّة الإسلام، وأنَّ ذلك الحُسنَ الرائعَ والمحاسنَ الدِّقاق، مَذهَلةٌ للقلوب، ومَشغَلةٌ دونَ الخشوع، وأنّ البالَ لا يكون مجتمِعاً وهناك شيء يفرِّقه ويعترض عليه.

صفة كتب الزنادقة والذي يدلُّ على ما قلنا، أنّه ليس في كتبهم مثلٌ سائر، ولا خبرٌ طريف، ولا صنعةُ أدبٍ، ولا حكمةٌ غريبة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلاميَّة، ولا تعريفُ صِناعة، ولا استخراجُ آلة، ولا تعليمُ فِلاحةٍ، ولا تدبير حرب، ولا مقارَعة عن دِين، ولا مناضَلة عن نِحْلة، وجُلُّ ما فيها ذِكر النور والظلمة، وتناكُحُ الشياطين، وتسافُدُ العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة والهمامة، وكلُّه هَذْرٌ وعِيٌّ وخُرافة، وسُخْريَة وتكذُّب، لا ترى فيه موعظةً حسنة، ولا حديثاً مُونِقاً، ولا تدبيرَ مَعاشٍ، ولا سياسة عامة، ولا ترتيبَ خاصَّة، فأيُّ كتابٍ أجهلُ، وأيُّ تدبيرٍ أفسدُ من كتابٍ يوجِب على الناسُ لا ?الناس الإطاعة، والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبَّة، وليس فيه صلاحُ مَعاشٍ ولا تصحيحُ دين فأمَّا الدّنيا فإقامةُ سوقها وإحضار نفعها، وأما الدِّين فأقلُّ ما يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصَّة، :يحبُّون إلا ديناً أو دنيا أنْ يصوَّر في صورةٍ مغلّطة، ويموَّهَ تمويهَ الدِّينارِ البَهْرَج، والدرهم الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرفُ حقيقته القليل، فليس إنفاقُهم عليها من حيثُ ظننت، وكلُّ دين يكون أظهر اختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر، وقد علمْنا أنَّ النصرانيَّة أشدُّ انتشاراً من اليهوديَّة تعبداً، فعلى حسب ذلك يكون تزيُّدُهم في توكِيده، واحتفالُهم في إظهار تعليمه.

فضل التعلم

اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإن أخسَّ ما تسمعُ :كنتُ عندَ بعض العلماء، فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدَعُ بعضاً، فقال لي :وقال بعضهم

.خيرٌ من مكانه أبيض

.تكثَّرْ من العلم لتعرف، وتقلّلْ منه لتحفَظ :وقال الخليل بن أحمد

.القليل والكثير للكتب، والقليلُ وحدَه للصدر :وقال أبو إسحاق

:وأنشد قول ابن يَسِير

ـا أسمَـع	ـا أجمعُ
ـا قد جمع	ـم المِصقَّع
كـلّ نـو	ـُه تنـزعُ
ـد جَمـع	ـمعه أشبعُ
ـي مجلسي	ـِ مستودَعُ
ـه هكـذا	ـى يرجِعُ
ـاً واعـياً	ينـفـع

كلَّفَ ابنُ يسيرٍ الكتبَ ما ليس عليها، إن الكتبَ لا تحيي الموتَى، ولا تحوِّل :التخصص بضروب من العلم وقال أبو إسحاق الأحمقَ عاقلاً، ولا البليد ذكِيّاً، ولكنَّ الطبيعة إذا كان فيها أدنى قَبُول، فالكتبُ تشحَذُ وتَفتِق، وتُرهِف وتَشفي، ومن أرادَ أن يعلَمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهلهِ أن يداووه فإنّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه فَمنْ كان ذكيّاً حافظاً فليقصِد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارَحَة، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدَر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواصّ، ويكون غيرَ غفلٍ من سائر ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه، ومن كان مع الدرس لا يحفظ .شيئاً، إلاّ نسيَ ما هو أكثرُ منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد

جمع الكتب وفضلها

.ما كان في خِزانةِ كتبِ يحيى، وفي بيت مدارسه كتابُ إلاّ وله ثلاثُ نسخ :وحدَّثني موسى بنُ يحيى قال

ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغُ اليد، إلاّ اعتقدتُ أنَّه :وقال أبو عمرو بنُ العلاء إنّ في دار فلانٍ ناساً قد اجتمعوا على سَوءة، وهم جُلوسٌ على :قِيل لنا يوماً :وقال أبو عمرو بن العلاء .أفضلُ منه وأعقل خميرة لهم، وعندهم طُنبُورٌ، فتسوَّرنا عليهمْ في جماعةٍ من رجال الحيِّ، فإذا فتىً جالسٌ في وسط الدار، وأصحابُه حوله، وإذا السَّوءة في ذلك البيت، وإنْ دخلتموه عثَرتم عليها :همْ بيضُ اللِّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر، فقال الذي سعى بهم :واللّه لا أكشفُ فتىً أصحابُه شيوخ، وفي يده دفترُ علم، ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بن زكريَّاء وأنشد رجلٌ يُونُسَ النحويَّ :فقلت

ـطاساً فضيّعَـه	ـعلمِ القراطيسُ

قاتَلَه اللّه، ما أشدَّ ضَنَانَتَه بالعلم، وأحسنَ صِيانته له، إنَّ علمَكَ مِن روحِكَ، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ :قال، فقال يونس .!بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن

لقد أُضيع من :فقيل له -وأخرجَ كتابَ أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفيَّة، ودَقَّتَين طائفيّتَين، بخطٍّ عجيب -وقيل لابن داحة لا جرم واللّه إنَّ العلمَ ليُعطيكم على حسابِ ما تعطونه، ولو استطعتُ أن أودِعَه سُويداءَ قلبي، أو :تجوَّدَ بشعر أبي الشمَقْمق فقال .أجعله محفوظاً على ناظري، لفعلت

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطين والرجالَ مُثُولاً كأنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيتِ كتبه، وحواليه الأسفاطُ والرُّقوق، والقماطِرُ والدفاتِر والمَساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزَل منهُ في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَة المحبَّة، ومع الفَخامة الحَلاوة، ومع السُّؤدَد .الحِكْمة

كان عبدُ اللّه بنُ عبدِ العزيز بن عبد اللّهِ بن عمر بن الخطَّاب، لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبُرَةً من المقابر، وكان :وقال ابن داحة لم أرَ أوْعظ من قبر، ولا أمنَع من كتاب، ولا :لا يكادُ يُرى إلاَّ وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئِل عن ذلك، وعن نزولِه المقبُرة فقال .ما أفسَدَها للجاهِل وأصلحها للعاقل :قد جاء في الوَحدة ما جاء فقال :أسلَمَ من الوَحدة، فقيل له

منفعة الخط

وقال "يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون .كِرَاماً كَاتِبِينَ"قال اللّه تبارَك وتعالى .وضروبٌ من الخُطوطِ بعد ذلك، تدلُّ على قدر منفَعَة الخطّ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ "وقال "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ"وقال "بأيْدِي سَفَرَةٍ .مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ .فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ"اللّه عزّ وجلَّ ."اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً"وقال "وَرَاءَ ظَهْرِهِ

ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظ نِسيانٌ، ولكنَّه تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه، أوكَدُ وأبلغُ .في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور

:وكان فيهم حليس الخطَّاط الأسديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم .وخط آخر، وهو خطُّ الحازي والعرَّاف والزَّاجر

لخَمِيس إذا غزَوْا اطيطُ في التُّرْبِ

وخُطوطٌ أخَر، تكون مستراحاً للأسير والمهموم والمفكّر، كما يعتري المفكر من قَرْع السنّ، والغضبانَ من تصفيق اليد

:وقال تأبَّط شَرّاً .وتجحيظ العين

نَّ مِنْ نَـدَمٍ بعضَ أخلاقي

:وفي خطِّ الحزين في الأرض يقول ذو الرُّمَّة

ـهٌ غيرَ أنَّـنِـي خطٌ في الدار مُولعُ
ـطَّ ثـم أُعِيدُه ـي الـدار وُقَّـعُ

:وذكر النابغةُ صنيعَ النساء، وفزَعَهنَّ إلى ذلك، إذا سُبين واغتربن وفكّرن، فقال

ن في كلِّ منزلِ		دِي النـواهـدِ

:وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلّل، كما يفزع إليه المهمومُ وهو قولُ القاسم ابن أمية بن أبي الصَّلْت

نَ عند سُؤالهم		الـعِـيدان
هَهم فتَرَى لها		ن الألـوان

:وقال الحارث بن الكِنْديّ، وذكرَ رجلاً سأله حاجة فاعتراه العبثُ بأسنانه، فقال

؛ ضِرساً		ضِرْس

:وربما اعترى هؤلاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضع حصى، ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرئ القيس

كَ رأسِي قاعداً		تقضِي حَسَراتِي

:وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت

ا عِـليّاً		فضلُ نداكا
كارم جَزْلٍ		صـاكـا

:وقال الآخر، وهو يصِف امرأةً قُتِل زوجُها، فهي محزونة تلقط الحصى

كأنَّ وشـاحَـها		مُقْلَتَين خَـذُولِ
جَها عَدَدَ الحصى		، جُنح كلّ أصيلِ

لم أُعْطِهَا عقلاً عن زوجها، ولم أورثها إلاّ الهمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى، يخبر أنَّه لمنِعَتِه، لا يُوصَل منه إلى عقلٍ :يقول

.ولا قوَد

أقوال الشعراء في الخط

:قال المقنَّع الكنديُّ في قصيدةٍ له مدح فيها الوليدَ بنَ يزيد :ومّما قالوا في الخطّ، ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبي قال

الغلام أجـادَه		أقـلامـهِ
ـامةِ مـائلٌ		عـلامـه
يشاءُ بناءَهـا		أرسـامـهِ
لمداد سُخامـه		بسُـخـامِـه
شَعيرة أنفِـه		من قلامِـه
فـاسـتَـوى		في تَلاَمِـه
صبيحُ بكلِّ مـا		على استعجامِه
ـنةٍ لـهـمْ		ن تَرجَـامِـه
به كتّـابـه		لى استكتامِه
م بـعـدهـا		ل لامِـه

:ثم قال

ـزَيَّلُ إذ رأت		راءِ لِثامِـه
عـتـراه أدْمَةٌ		ادْهِيمـامِـه
امِها مهريّة		بُويزل عامِه
لها وزمامها		بهِ، وزمامـه
بدَّ لِنيِّهِ		بلءَ حِزامِهِ
جها ولجامها		جه، ولِجَامـه

يدِ قصيدةً … حدُّه بحُسامه
يشِ كلِّها … موتِ هشامِه

وقال الحسن بن جَماعة الجُذامِيُّ في الخطِّ:

يُرقِلُ عالمٌ … رورِفُ السِّنِّ طائعُ
إليه وما لَهُ … ا هُوَ سامعُ
بِ باح بِسرِّه … ثُهُ الأصابعُ
فرثٍ تمدُّه … صفَّقتها الأضالِعُ

وقال الطائيُّ، يمدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات:

اً إليكَ نوازعاً … لك الرسائل
لذي بشباته … الكُلَى والمفاصلُ
لولا نجيُّها … تلك المحافلُ
اتلاتِ لُعابُه … ارَته أيدٍ عَواسِلُ
كنَّ وقعَها … ق والغرب وابلُ
فْتَه وهو راكبٌ … تَه وهو راجِلُ
مسَ اللِّطافَ وأُفرغت … وهي حَوافِلُ
القَنا وتقوَّضَتْ … خيامِ الجَحافلُ
الجلِيّ وأقبلتْ … اس وهي أسافلُ
صَران وسدَّدت … ثلاثُ الأنامِلُ
هُ وهو مُرْهَفٌ … لْبُه وهو ناحلُ
وانَ أمَّا لِقاؤُه … فيه فعادلُ

وقد ذكر البُحتُريُّ في كلمةٍ له، بعض كهولِ العسكر، ومن أنبَل أبناء كتّابهم الجِلّة فقال:

ثم انتحَتْ … دُّجَى في كتبه

الكتابات القديمة

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مُرَكَّبةً في البُنْيان، فربَّما كان الكتابُ هو الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمر جَسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّةُ غُمْدَان، وعلى باب القيرُوان، وعلى باب سَمَرْقَند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقَّر، وعلى الأبلَق الفَرْد، وعلى باب الرُّها، يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعدِ المواضع من الدُّثور، وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات

وأقول: لولا الخطوطُ لبطلت العهودُ والشروطُ والسِّجِلاَّتُ والصِّكاك، وكلُّ إقطاع، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جوارٍ وحِلف، ولتعظيم ذلك، والثقة به والاستنادِ إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّةِ مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحِلف والهُدْنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارثُ بن حِلِّزة، في شأن بكرٍ وتغلب:

ي المَجَاز وما قُ   الـكـفـلاءُ
ـدِّي وهلْ يَنْ   رِق الأهـواءُ

.والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مَهارقُ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهودٍ، ومِيثاقٍ، وأمان

الرقوم والخطوط

وليس بين الرُّقومِ والخطوط فرق، ولولا الرقوم لهلكَ أصحابُ البَزِّ والغُزول، وأصحابُ الساج وعامَّةِ المتاجر، وليسَ بينَ الوُسومِ التي تكون على الحافر كلّه والخفِّ كلّه والظّلفِ كلّه، وبين الرقومِ فرق، ولا بينَ العقودِ والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلُّها فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتابٌ، أو في معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصورَّةِ من يصنَع في جَوبة الفم :الصوت المقطّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوّرة من السواد في القرطاس فرق واللسان وهوائه الذي في جوفِ الفم وفي خارجه، وفي لهاته، وباطن أسنانه، مثلَ ما يصنع القلمُ في المدادِ واللّيقة والهواءِ والقرطاس، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل، ودَلالات، فيعرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوَّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلُّوا بالضَّحك على السرور، وبالبكاء على الألم، وعلى مثل ذلكَ عرفوا معاني الصوتِ، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقبه، والكلبَ اسمَه، وعلى مثل ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدّ حُضْرُ الدابّة مع رفع الصوت، حتّى إذا رأى سائسَه حمحم، وإذا رأى الحمامُ القيِّمَ عليه انحطّ للقطِ الحبّ، قبل أن يُلقِيَ له ما يلقطه، ولولا الوسومُ ونُقُوش .الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائن الناس الضررُ الشديد

الخط والحضارة

وليس في الأرض أمّةٌ بها طِرْق أوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط، إلاّ ولهم خطّ، فأمّا أصحاب الملك والمملكة، والسلطان والجباية، والدِّيانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقن، والحساب المحكَم، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسنَد المنمنم .والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثَمُ بن عدي، وابن الكلبي

.فكلُّ أمّةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكل من الأشكال :تخليد الأمم لمآثرها قال تخليد العرب لمآثرها وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أنّ الشعرَ يُفيد فضيلة البيان، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلة المأثُرة، على السيِّد المرغوبِ إليه، والممدوح به، وذهبت العجَم عَلَى أن تقيِّد مآثرَها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كرد بيداد، وبنى أرْدشير بيضاء إصطخْر،

ثمَّ إنّ العربَ أحبَّتْ أن تشارك العجمَ في :وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس، قال البناء، وتنفرد بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبة نَجْران، وقصرَ مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب والأبلق الفرد، وفيه وفي مارد، ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء، :قالوا تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق وغيرَ ذلك من البُنيان، قال إلاّ لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمَّامات والقِباب الخضر، والشُّرَف على حيطان الدار، وكالعَقْد على الدِّهليز وما كُتُبُ الحكماءِ وَما دَوَّنت العلماءُ من صنوف البلاغات والصِّناعات، والآداب والأرفاق، من :أشبهَ ذلكَ ، فقال بعض من حضر القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيَّة ومن لا بقيّة له، أبقى ذكراً وأرفعُ قدراً وأكثر ردّاً، لأنَّ الحكمة أنفعُ لمن ورثها، من .جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحدوثة، لمن أحبَّ الذكر الجميل

طمس الملوك والأمراء آثار من قبلهم والكتبُ بذلك أولى من بُنيان الحجارة وحِيطان المدَر؛ لأنَّ من شأن الملوك أن يطمِسوا على آثار مَن قبلَهمُ، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هدَموا بذلك السبب أكثرَ المدنِ وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيَّامَ العجَم وأيَّامَ الجاهليّة، وعلى ذلك همْ في أيّام الإسلام، كما هدم عُثمانُ صومعة غُمدان، وكما هدمَ الآطامَ التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادٌ .كلَّ قصر ومصنَع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات لبني مروان

تاريخ الشعر العربي

امرؤ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بنُ ربيعة، :وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد، صغير السنِّ، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّل الطريقَ إليه وكُتُبُ أرسطاطاليسَ، ومعلِّمِه أفلاطون، ثم بَطْلَيموس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبلَ بدءِ الشعر بالدهور قبلَ الدهور، .والأحقاب قبلَ الأحقاب

:ويدلُّ على حداثةِ الشعر، قولُ امرئ القيس بن حُجْر

نَوا حسنـاً خـفـارتـه ـــي ولا عُــدَسٌ ذِمَّتِه لا قِصَر عابَهُ ولا عَوَرُ
إذ غَـدَرُوا بـ مَنْ نَصَرُوا جـكـهـا الـثّـفـر

فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له إلى ?فانظرْ، كم كان عمرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام .أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام

والشعر لا يُستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، .وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلّم بلسان العرب :قال ومتى حوِّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقط موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور، والكلامُ المنثور المبتدأُ على ذلك .أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر

وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلِّ ما أقام لهم المعاشَ وبوَّب لهم أبوابَ الفِطَن، قال:
وعرَّفهم وجوهَ المرَافق؛ حديثُهم كقديمهم، وأسودُهم كأحمرهم، وبعيدُهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملة لهم.

صعوبة ترجمة الشعر العربي

وقد نُقِلتْ كتبُ الهند، وتُرجمتْ حكم اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس، فبعضها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن، مع أنَّهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكرْه العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم وفِطنهم وحِكمَهم، وقد نُقِلتْ هذه الكتبُ من أمَّةٍ إلى أمّة، ومن قُرن إلى قرن، ومِن لسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورثها ونظر فيها، فقد صحَّ أنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشعر.

إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبداً ما قال الحكيمُ، على خصائِص معانيه، وحقائق: ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له مذاهِبه ودقائق اختصاراته، وخفيَّاتِ حدوده، ولا يقدِر أنْ يوفيها حقوقها، ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَريّ، وكيف يقدِر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقّها وصدقها، إلاّ أنْ يكونَ في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريفِ ألفاظِها، وتأويلاتِ مخارجِها ، ومثلَ مؤلّف الكتاب وواضعِه، فمتى كان رحمه اللّه تعالى ابنُ البطريق، وابن ناعمة، ومتى كان خالدٌ مثلَ أفلاطون ?وابن قُرَّة، وابن فِهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفَّع، مثلَ أرسطاطاليس?

قيمة الترجمة

ولا بدَّ للتَّرجُمانَ من أن يكون بيانهُ في نفس الترجمة، في وزْن علمه في نفسِ المعرفة، وينبغي أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتَّى يكون فيهما سواءً وغاية، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهما، لأنَّ كل واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذُ منها، وتعترضُ عليها، وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكُّنِه إذا انفرد بالواحدة، وإنَّما له قوَّةٌ واحدة، فإنْ تكلّمَ بلغةٍ واحدة استُفْرِغَتْ تلك القوَّةُ عليهما، وكذلك إنْ تكلَّم بأكثرَ مِنْ لغتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميع اللغات، وكلَّما كانَ البابُ من العلم أعسرَ وأضيق، والعلماءُ به أقلَّ، كان أشدَّ على المترجِم، وأجدرَ أن يخطئ فيه، ولن تجد البتَّة مترجماً يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء.

ترجمة كتب الدين

هذا قولُنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتبَ دينٍ وإخبار عن اللّه عزَّ وجلَّ بما يجوز عليه ممَّا لا يجوز عليه، حتىَّ يريد أنْ يتكلَّم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلَّمَ في

وجوه الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ويكونَ ذلك متضمِّناً بما يجوز على الله تعالى، ممَّا لا يجوز، وبما يجوزُ على الناس مما لا يجوز، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ، والمقابلاتِ التي تَلقَى الأخبارَ العامِّية المخرَج فيجعلها خاصيَّة، وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر، ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، وحتَّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صِدقاً أو كذبا، وما لا يجوز أن يسمَّى بصدقٍ ولا كذب؛ وحتَّى يعرفَ اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المُحال من الصحيح، وأيّ شيءٍ المُحال أم الكذب، وفي أيِّ موضع يكون المحالُ :تأويلُ المحال؛ وهل يسمَّى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأيّ القولين أفحشُ أفظع، والكذب أشنع؛ وحتَّى يعرف المثلَ والبديع، والوحي والكناية، وفصْل ما بين الخطل والهَذْر، والمقصور والمبسوط والاختصار، وحتَّى يعرف أبنية الكلام، وعاداتِ القوم، وأسبابَ تفاهمهم، والذي ذكرنا قليلٌ من كثير، ومتى لم يعرفْ ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين، والخطأُ في الدين أضرُّ من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفةِ والكَيْمِياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وما ?وإذا كان المترجِم الذي قد تَرجَم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدْرِ نقصانه من الكمال، وما عِلْمُ المترجِم بالدليل عن شبه الدليل وما علمُه ?وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب ?وما علمه بالحدود الخفيّة ?علمه بالأخبار النجوميّة وقد علمنا أنَّ المقدَّمات لا بدَّ أنْ تكون اضطراريّة، ولا بدَّ أن تكون مرتَّبة، وكالخيط ?ببعض الخطرفة لبعض المقدَّمات الممدود، وابنُ البطريق وابن قرّة لا يفهمان هذا موصوفاً منزَّلاً، ومرتَّباً مفصَّلاً، من معلّمٍ رفيقٍ، ومن حاذقٍ طبٍّ فكيف بكتابٍ ولو كان الحاذقُ بلسان اليونانيِّين يرمي إلى الحاذق بلسان !?قد تداولته اللغاتُ واختلافُ الأقلام، وأجناسُ خطوطِ المِلل والأمم العربيّة، ثم كان العربيُّ مقصِّراً عن مقدار بلاغة اليونانيّ، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يَجِد اليونانيُّ الذي لم يرضَ بمقدار بلاغته في لسان العربيّة بُدّاً من الاغتفار والتجاوز، ثمّ يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين، وذلك أن نسختَه لا يَعدَمها الخطأ، ثمَّ ينسخُ له من تلك النسخة مَن يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة، ثمّ لا ينقص منه؛ ثم يعارض بذلك مَن يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقَط الذي لا يجدُه في نسخته.

مشقة تصحيح الكتب

ولربَّما أراد مؤلّف الكتاب أن يصلِح تصحيفاً، أو كلمةً ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقاتٍ من حرِّ اللفظ وشريفِ المعاني، أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردَّه إلى موضعه من اتِّصال الكلام ، فكيف يُطيق ذلك المعرض المستأجَر، والحكيمُ نفسهُ قد قد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صَلاحاً، ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً :أعجزه هذا الباب وأعجب من ذلك أنَّه يأخذ بأمرَين

لإنسان آخَرَ، فيسير فيه الورَّاقُ الثاني سيرَةَ الوَرَّاقَ الأوَّل؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتَّى يصير غَلَطاً صِرفاً، وكذِباً مصَمتاً، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطَّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتابٍ متقادِم الميلاد، دُهْرِيّ الصنعة.

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

إذا كان الأمرُ على ما قلتم، والشأنُ على ما نزَّلتم، :قال الآخر ?فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشعر المقفَّى :قالوا أليس معلوماً أنَّ شيئاً هذه بقيَّتُهُ وفضلتُه وسُؤرهُ وصُبَابته، وهذا مظهرُ حاله على شدَّة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفسادِ وتداوُل النقص، حريٌّ بالتعظيم، وحقيقٌ بالتفضيل على البنيان، والتقديم على شعرٍ إن هو حُوِّل تهافَتَ، ونفعُه مقصورٌ على أهله، وهو يُعدُّ من الأدب المقصور، وليسَ بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحيَّة وليست بحقيقة بيِّنة ، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دونَ الأشعار، وهاهنا كتبٌ هي بيننَا وبينكم، مثل كتاب أُقليدِس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسْطي، ممّا تولاّه الحَجّاج، وكتبٌ كثيرةٌ لا تحصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغَيَّرة، فالباقي كافٍ شاف، والغائب منها كان تكميلاً لتسلُّط الطبائع الكاملة.

فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعِه إلى حيث انتهى بنا القول.

وحسْبُك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطبّ، والمنطق، والهندسة، ومعرفةِ اللُّحون، والفِلاحة، والتِّجارة، وأبواب الأصباغ، والعِطر، والأطعمة، والآلات، وهم أتوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمَّامات وفي الأصطرلابات والقَرسطونات وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفُسَيفِساء، والأسرنج والزنجفور واللازَوَرد والأشربة، والأثْبَجَات، والأيارجات ولكم المينا، والنشادر والشَّبَه وتعليق الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم، ولهم صبُّ الزردج، واستخراج النَّشَاسْتَج، وتعليق الخَيش، واتّخاذ الجمَّازات، وعمل الحَرَّاقات، واستخراج شراب الداذِيّ وعمل الدّبابات.

ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل

وكان الحجَّاجُ أوّلَ مَن أجرى في البحر السفن المقيَّرة المسمَّرة غيرَ المخرَّزة، والمدهونة والمسطّحة، وغيرَ ذواتِ الجؤجؤ، وكان أوَّلَ من عمِل المحامل، ولذا قال بعضُ رُجَّاز الأكرياء:

مَحامِلا ... لاً وآجِلا

وقال آخر:

هُنَّ بيضُ ... يضُ

:وقال آخر

هن بـيَّضُ   ل قبَّـضُ
يغرضوا

لولا ما عرَّفوكم من أبواب الحُمْلانات لم تعرفوا صنعة الشَبَه، ولولا غَضارُ الصين على وجه الأرض لم تعرفوا :وقال القوم الغَضار، على أنَّ الذي عَمِلْتُم ظاهرٌ فيه التوليد، منقوصُ المنفعة عن تمام الصِّينيّ، وعلى أن الشَّبَهَ لم تستخرجوه، وإنَّما ذلك من الأُمور التي وقعت اتّفاقاً، لسقوط الناطف من يد الأجير في الصُّفْر الذائب، فَخِفتم إفساده، فلمَّا رأيتم ما أعطاه من اللون عَمِلْتم في إمَّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علمِ :الزيادة والنقصان، وكذلك جميعُ ما تهيَّأ لكم، ولستم تخرُجون في ذلك من أحدِ أمرَين !إما أورثوكم، وإمّا أن يكون ذلك تهيَّأ لكم من طريق الاتّفاق

الجمازات

وقد علمتم أنَّ أوَّل شأن الجَمَّازاتِ، أنَّ أمَّ جعفر أمرت الرحَّالِينَ أن يَزيدُوا في سيرِ النجيبة التي كانت عليها، وخافت فوتَ الرشيد، فلما حُرِّكت مشَت ضروباً من المشي، وصنوفاً من السير، فجَمزت في خلال ذلك، ووافقت امرأةً تحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمزِ راحةً، ومع الراحة لذّة، فأمرتْهم أن يسيروا بها في تلك السِّيرة، فما زالوا يقرِّبون ويبعِّدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كلِّ ذلك تصوِّبهم وتخطئُهم على قدر ما عرفتْ، حتى شَدَوا من معرفة ذلك ما شَدَوا، ثمَّ إنّها .فرّغتهم لإتمام ذلك حتى تمَّ واستوى، وكذلك لا يخلو جميعُ أمركم، من أن يكون اتّفاقاً، أو اتّباعَ أثر

الترغيب في اصطناع الكتاب

إنّ من شكر النعمة :ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على مَنْ زَرَى على واضِع الكتب، فأقول في معرفة مغاوي الناس ومَرَاشدِهم، ومضارِّهم ومنافِعهم، أن يُحتَمَل ثِقْلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأن يُتَوَخَّى إرشادُهم وإن جهلوا فضلَ ما يُسْدَى إليهم، فلن يُصانَ العلمُ بمثل بذْله، ولن تُستَبقى النعمةُ فيه بمثل نشره، على أنَّ قراءة الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التّلاقي يشتدُّ التصنُّع، ويكثُر التظالُم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الحَمِيَّة، وعند المواجَهةِ والمقابلة، يشتدُّ حبُّ الغلَبة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفِة من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن، ويظهرُ التباين، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفِة وعلى هذه الهيئة، امتنعتْ من التعرُّف، وعمِيت عن مواضع الدلالة، وليست في الكتب عِلَّةٌ تمنَع من دَرْك البُغْية، وإصابة الحجَّة، لأنَّ المتوحِّد بدَرْسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسَه ولا يغالب عقلَه، .وقد عَدِم مَنْ له يُباهي وَمِنْ أجله يغالب

الكتاب قد يفضل صاحبه

منها أنّ الكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على :والكتابُ قد يفضلُ صاحبَه، ويتقدَّم مؤلِّفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانِه بأمور كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوتِ ما بينَ الأعصار، وتباعُدِ ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب، ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوتِه، وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودوَّنت من أنواعِ سِيَرِها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، فجمَعنا إلى قليلنا كثيرَهم، وأدركنا ما لم نكن ندركُه إلاّ بهم، لما حَسُنَ حظُّنا من الحكمة، ولضعُف سبَبُنَا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر قوَّتِنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهدهُ نفوسنا، لقلَّت المعرفةُ، وسَقَطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطِر فاسداً، ولكلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل.

أفضل الكتب

وأكثرُ مِنْ كتبهم نفعاً، وأشرف منها خَطراً، وأحسنُ موقعاً، كتُبُ اللّه تعالى، فيها الهُدَى والرحمة، والإخبارُ عن كلِّ حكمة، المَ ذلكَ "وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحسَنة، ومازالت كتبُ اللّه تعالى في الألواح والصُّحُف، والمهارق والمصاحف، وقال اللّه عزَّ وجلَّ :، ويقال لأهل التَّوراةِ والإنْجيل"مَا فَرَّطْنَا في الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ" :، وقال"الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ أهل الكِتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لمَنْ بعدَنا، كسبيل مَن كان قبلنا فينا، على أنَّا وقد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممّا وجدوا، كما أنَّ مَن بعدَنا يجدُ من العِبرة أكثرَ ممّا وجدْنا، فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه، وما يمنَع الناصرَ للحقِّ من القيامِ بما يلزمُه، وقد أمكن القولُ وليس يجدُ الإنسانُ في ?!وصلحَ الدهرُ وخوى نجم التَّقِيَّة، وهَبَّتْ ريحُ العلماء، وكسَدَ العِيُّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم كل حينٍ إنساناً يدَرِّبه، ومقوِّماً يثقّفه، والصبرُ على إفهام الريِّض شديد، وصرفُ النفس عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمتعلِّم يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثرَ مَن فرَّط في التعليم أيَام خُمول ذكره، وأيَّام حَداثةِ سنِّه ولولا جِيادُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختَصرَها، لمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنِفَتْ من حال الجهل، وأن تكون في غِمار الحَشْو، ولدخل على هؤلاء من الخَلل والمضرَّة، ومن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلاّ بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي اللّه تعالى عنه :"تفقَّهوا قبلَ أن تسودوا"

كتب أبي حنيفة

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القرآن، ويجالس الفقهاءَ خمسين عاماً، وهو لا يُعدُّ فقيهاً، ولا يُجعَل قاضياً، فما هو إلاّ أن ينظرَ في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفَظ كتبَ الشروط في مقدارِ سنةٍ أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظن أنه من باب بعض العُمَّال، وبالحَرَا ألاّ يمرَّ عليه من الأيّام إلاّ اليسير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار، أو بلدٍ من البلدان، وجوب العناية بتنقيح المؤلفات وينبغي لمن كَتبَ كتاباً ألا يكتُبَه إلا على أنَّ النَّاس كلَّهم له أعداء، وكلُّهم عالمٌ بالأمور، وكلُّهم متفرِّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفْلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنَّ لابتداء الكتابِ فتنةً وعُجُباً، فإذا سكنت الطبيعةُ وهدأت الحركة، وتراجَعَتِ الأخلاطُ، وعادت النفسُ وافرة، أعاد النَّظر فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقُّفَ من يكونُ وزنُ طمَعُه في السلامة أنقَصَ من وزَنِ خوفِه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر:

لقومَ خلوتُه ٍّ وإكثـارُ

كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ فيخاف أن يعتريه ما اعترى مَنْ أحرى فرسه وحدَه، أو خلا بعلمه عند ويقفُ: عند قولهم في المثل فقدِ خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

تداعي المعاني في التأليف

وليعلم أنَّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعتري المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يَعزِم على خمسةِ أسواط فيضرب مائة? لأنَّه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطباع، فأراه السكونُ أنَّ الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرَّك دمُه، فأشاع فيه الحرارةَ فزادَ في غضبه، فأراه الغضبُ أنّ الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثرَ من يبتدئ الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة والحفظُ مع الإقلال أمكَن، وهو مع الإكثار أبعَد.

مقايسة بين الولد والكتاب

واعلم أنَّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه من ولده، أنْ يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلمْ أنَّ لفظه أقربُ نسباً منه من ابنه، وحركَتَه أمسُّ به رحْماً من ولده، لأنَّ حركتَه شيءٌ أحدثَه من نفسه وبذاتِهِ، ومن عين جوهره فَصلَت، ومن نفسِه كانت؛ وإنَّما الولدُ كالمخْطَةِ يتمخَّطها، والنُّخَامةِ يقذِفها، ولا سواءٌ إخراجُك مِنْ جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكن حتَّى كانت منك، ولذلك تجِدُ فتنة الرجُل بشِعره، وفتنتَه بكلامِه وكتبه، فوقَ فتنتِه بجميع نعمته.

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حَتَّى لا يحتاجُ السامع لما فيه من الرويَّة، ويحتاجُ مِنَ اللفظ إلى مقدارِ

يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلةِ والحَشْو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشِيِّ الكلام، وليس له أنْ يهذِّبَه جدّاً، وينقّحَه ويصفّيه ويروّقه، حتى لا ينطِقَ إلاّ بلُبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَه، وأسقطَ زوائِده، حتّى عاد خالصاً لا شَوْب فيه؛ فإنَّه إنْ فعل ذلك، لم يُفْهَمْ عنه إلا بأن يجدِّد لهم إفهاماً مِرَاراً وتَكراراً، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها، ألا تَرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولو سمِعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه، لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَف جهة الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرج من جميع الكلام.

قول صحار العبدي في الإيجاز

أن تجيبَ فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ، قال :قال ?ما الإيجاز :قال معاويةُ بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، لصُحَارٍ العبدي لا تخطئ :فلو أنَّ سائلاً سألك عن الإيجاز، فقلت .أقِلْنِي يا أمير المؤمنين لا تخطئ ولا تبطئ :أو كذلك تقول قال صحار :معاوية ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بنُ صفوان، لما عرَفَ بالبديهة وعندَ أوَّل وهلة، أنَّ قولك لا تخطئ متضمِّنٌ بالقول، وقولك لا تبطئ .الاختصار :لظننتُ أنّه يقول ?ما الإيجاز :متضمِّن بالجواب، وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضُوه، ولو أن قائلاً قال لبعضنا

حقيقة الإيجاز

والإيجاز ليس يُعنَى به قلّةُ عددِ الحروفِ واللفظ، وقد يكونُ البابُ من الكلام مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طُومارٍ فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنَّمَا ينبغي له أن يحذف بقدرِ ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردِّد وهو يَكتفي في الإفهام بشِطره، فَما فضَل عن المقدار فهو الخطل.

أنت أعلمُ الناس بالنَّحو، فلم لا تجعَلُ كتبَك مفهومة كلَّها، وما بالُنا نفهمُ :استغلاق كتب الأخفش وقلتُ لأبي الحسن الأخفش أنا رجلٌ لم أضَعْ كتبي هذه للّه، وليست هي :قال ?بعضَها ولا نفهم أكثرها، وما بالُك تقدِّم بعضَ العويص وتؤخِّر بعض المفهوم من كتبِ الدين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلَّت حاجاتُهم إليَّ فيها، وإنَّما كانت غايتي المَنَالة، فأنا أضعُ بعضَها هذا الوضع المفهومَ ، لتدعوَهم حلاوةُ ما فهموا إلى التماس فهْم ما لم يفهموا، وإنَّما قد كسَبتُ في هذا التدبير، إذ كنتُ إلى التكسُّب ذهبت، ولكنْ ما بالُ إبراهيم النظَّام، وفلانٍ وفلان، يكتبون الكتبَ للّه بزعْمِهم، ثم يأخذُها مثلي في مواقفته، وحُسْن لو أنَّ يوسف السَّمْتيَّ، كتب هذه الشروط ، أيَّام جلسَ سَلمان بن ربيعة شهرين :وأقول ?نظره، وشدَّةِ عنايته، ولا يفهمُ أكثرَها

للقضاء، فلم يتقدَّم إليه رجُلان، والقلوب سليمةٌ والحقوقُ على أهلِها موفَّرة، لكان ذلك خطلاً ولغواً؛ ولو كتبَ في دهره شروطَ سَلمان، لكان ذلك غَرارةً ونقصاً، وجهلاً بالسياسةِ، وبما يصلحُ في كلِّ دهر.

مواضع الإسهاب

ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السِّماطين في مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عَجْز.

ولولا أنِّي أتَّكل على أنَّك لا تملُّ بابَ القول في البعير حتَّى تخرجَ إلى الفيل، وفي الذَّرَّة حتَّى تخرجَ إلى البعوضة، وفي العقربِ حتَّى تخرجَ إلى الحيّة، وفي الرجل حتَّى تخرجَ إلى المرأة، وفي الذِّبان والنحل حتى تخرج إلى الغِرْبان والعِقْبان، وفي الكلبِ حتَّى تخرجَ إلى الديك، وفي الذئب حتَّى تخرج إلى السبُع، وفي الظِّلفِ حتَّى تخرجَ إلى الحافر، وفي الحافر حتَّى تخرج إلى الخُفّ، وفي الخفِّ حتَّى تخرجَ إلى البُرثُن، وفي البرْثُن حتَّى تخرج إلى المِخلب، وكذلك القول في الطير وعامَّةِ الأصناف، لَرأيتُ أنَّ جملة الكتاب، وإنْ كثُر عددُ ورقِه، أنَّ ذلك ليس مما يُمِلُّ، ويُعتَدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأنَّه وإن كان كتاباً واحداً فإنَّه كتبٌ كثيرة، وكلُّ مُصحَف منها فهو أمٌّ على حِدَة، فإن أرادَ قراءةَ الجميع لم يَطل عليه الباب الأوّل حتَّى يهجمَ على الثاني، ولا الثاني حتَّى يهجمَ على الثالث، فهو أبداً مستفيدٌ ومستَطْرِف، وبعضُه يكون جَماماً لبعض، ولا يزالُ نشاطُه زائداً، ومتى خرج منْ آي القرآن صارَ إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعرِ إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمٍ عقليّة، ومقاييس سِداد، ثم لا يترك هذا البابَ؛ ولعلَّه أن يكون أثقلَ ، والملالُ إليه أسرع، حتَّى يفضِيَ به إلى مزحٍ وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخُرافة، ولست أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سِيرة الحكماء، وآدابَ العلماء.

مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأعْرَابَ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم، جعلَه مبسوطاً، وزاد في الكلام، فأصوبُ العمل اتِّباعُ آثار العلماء، والاحتذاءُ على مثال القدماء، والأخذُ بما عليه الجماعة.

أقوال بعض الشعراء في صفة الكتب قال ابن يسير في صفِة الكتب، في كلمةٍ له:

آلو مُباعدةً ... فَلم يُحْصِنِّيَ الهربُ
والت خنادِقُه ... ماخورُ فالخَرب
اعتصمتُ به ... أ منهمُ الطلبُ
لستُ معجزَهم ... رَّبت أحتجِبُ
مسروراً بهم جَذِلاً ... كوَى ولاشَغَبُ
تى وتنطِقُ لي ... عنِّي منهمُ الكتبُ
ف غَنِيتُ بهمْ ... غيرهم أرَبُ

لا جَلـيسـهـمُ ... ـوءِ مـرتَـقِبُ
يخشى رفيقُـهـمُ ... ـمَـنْـطِقٌ ذَربُ
ى منـافِـعُـهَـا ... ى الأيَّام وانشعبـوا
م مـددتُ يدي ... ـن يَدِي كَـثَـبُ
كَم الآثارِ يرفعُـهـا ... خِـيرةٌ نُـجُـبُ
بٍ علماً بـأوَّلِـهـم ... ي بـه الـعـرب
الأملاكِ مِنْ عَجَمٍ ... ـ الـرأيُ والأدبُ
هدتُ عصـرَهُـمُ ... م من دَهرِهم حِقَبُ
في العلم نُـهْـيَتُـهُ ... فيما قال ينتسِـبُ
وا بـعـلـمـهـم ... انوا وقدْ ذهـبـوا
أبقى لـنـا أدبـاً ... مات نَكـتِـسـبُ

:وقال أبو وَجْزة وهو يصف صحيفةً كُتب له فيها بِستِّينَ وَسْقاً

ْقاً في حقيبـتـه ... الأدنى ولا السِّدَدا
ـاً قبلها حَمَلت ... جابت به بـلـدَا

:وقال الراجز

والـقـلـمْ ... ثُ الدَّهر الغَنَمْ

.كتابُكَ الذي تكتبُه عليَّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنَمي فيما يذهب :يقول

نشر الأخبار في العراق ومِمَّا يدلُّ على نفع الكتاب، أنَّه لولا الكتابُ لم يجُزْ أن يعلمَ أهل الرَّقَّة والموصِل وَبغدادَ وواسط، ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفِة في بياض يوم، حتَّى تكون الحادثةُ بالكوفِة غُدوة، فتعلمُ بها أهل البصرة قبلَ المساءَ.

وَتَفَقَّدَ "وذلك مشهورٌ في الحمام الهدَّى، إذا جُعِلت بُرُداً، قال اللَّه جلَّ وعزَّ وذكر سليمانَ وملكه الذي لم يؤت أحداً مثله فقال جِئتُكَ مِنْ سَبأ بِنَبَأ " :فلمْ يلبثْ أن قال الهُدْهُدُ "أوْ لأذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسلْطَانٍ مُبِينٍ" :إلى قوله "الطَّيرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أرَى الهُدْهُدَ وقد كان "اذْهَبْ بكتابي هذا فَألْقِهْ إليَهِمْ" :قال سليمان "يَقِينٍ، إنِّي وَجَدْتُ امرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وأوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ مِن عِفريت، ومِن بعض مَن عنده علمٌ من الكتاب، فرأى أنَّ الكتابَ أبهى وأنبَلُ، وأكرمُ وأفخمُ .عندَه مَن يبلِّغ الرسالة على تمامها ، فهذا مما "يَا أيُّها المَلأُ إنِّي ألْقِيَ إليَّ كِتَابٌ كريمٌ"من الرسالة عن ظهر لسان، وإن أحاط بجميع ما في الكتاب، وقالت مَلَكةُ سَبَأ يدل على قدْر اختيار الكتب استخدام الكتابة في أمور الدين والدنيا وقد يريد بعضُ الجِلَّةِ الكبار، وبعضُ الأدباءِ والحكماءِ، أن يدعو بعضَ مَن يجري مَجْراه في سلطانٍ أوْ أدبٍ، إلى مأدُبةٍ أو نِدام، أو خُروج إلى متنزَّه، أو بعض ما يشبهُ ذلك، فلو شاءَ أن ولو .يبلِّغهُ الرسولُ إرادته ومعناه، لأصابَ من يُحسن الأداء، ويصدُق في الإبلاغ، فيرى أنَّ الكتاب في ذلك أسرى وأنبَه وأبلغ شاءَ النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم ، ألاّ يكتبَ الكتبَ إلى كسرَى، وقيْصَرَ، والنَّجَاشيِّ، والمقوقِس، وإلى ابني الجُلَنْدَى، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هوذَة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلِّغَ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنّهُ عليه الصلاة والسلام، عِلم أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغُ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أن يجعَل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتمُّ وأكمل، وأجمع وأنبل.

وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتَّى يخزمه ويختمه، وربَّما لم يرض بذلك حتى يُعَنْونه ويعظمه، قال الله جلَّ وعز: "أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى" فذكر صحف موسى الموجودة، وصحفَ إبراهيم البائدة المعدومة، ليعرف الناس مقدارَ النفع، والمصلحة في الكتب.

نظام التوريث عند فلاسفة اليونانية قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العَين، وتورث البنين الدين بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابنَ من المال، إلاّ ما يكونُ عوناً له على طلب المال، واغذُوه بحلاوة العلم، واطبَعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمْع العلم أغلبَ عليه من جمع المال، وليرى أنَّه العُدَّة والعتاد، وأنّه أكرم مستفاد.

وكانوا يقولون: لا تورِّثوا الابن من المال إلاّ ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛ فإنَّه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحاً كان فِيما أورثتموه من العلم وبقّيتم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأنَّ المال لم يَزَلْ تابعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفضول بعرَض فساد، وعلى شفا إضَاعة، مع تمام الحنكَة، واجتماع القوَّة، فما ظنُّكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراثٍ ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجَّل لك حلاوة المحبة، وبقّى لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.

وليس يجمع ذلك إلاّ كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب، ومعرفِة الصناعات، وفوائدِ الأرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور، ويعود القلب معموراً، والعزُّ راسخاً، والأصل فسيحاً.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه، وتنفي الخَبَث عنه، وتفيدك العلم ، وتصادق بينك وبين الحجَّة، وتعوّدك الأخذ بالثقة، وتجلب الحالَ، وتكسب المال.

وراثة الكتب ووراثة الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة للمورِّث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حقُّ السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورِّث مذكوراً في الحكماء ومنوّهاً باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً وعَلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبَّة نامية، ما كانت تلك الفوائد قائمة، ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال

من ورَّثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغِل ولا :من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر، وقالوا يَستَغِلّ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خَرْج، وسوَاء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواءٌ دفْعُك إليه الكفاية، أو ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلاّ على دفع السبب، ولم يجب عليه ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً، وكانت مواريثه :وقالوا .إحضار المسبَّب، فكُتب الآباء، تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليمُ إليه، ويرى تركه خطأً، وأجدرَ أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدرَ أن يسري إليه عِرقْ مَن نَجله، وسقي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب، النظر في الكتب ، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة، وإنَّما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته، وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدَث الغرير، والمنقوص فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب، فخير ميراثٍ وُرّث كتبٌ وعلم، وخير المورّثين من أورث ما .الفقير يجمع ولا يفرِّق،، ويبصِّر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنزَ الذي ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للُّصُوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه .حجَّة، ولا على الجار فيه مَؤونة

ينبغي أن يعرف أنه لا بدَّ من أن يكون لكلِّ كتابٍ علمٍ وضعَه أحدٌ من :قول ديمقراط في تأليف كتب العلم وأما ديمقراط فإنه قال منها الهمَّة، والمنفعة، والنسبة، والصحَّة، والصِّنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، فَأوَّلها أن تكون :الحكماء، ثمانيةُ أوجه لصاحبه هِمَّة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنْسَب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير .موصوف

.فذُكِر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى أفوريسموا تفسيره كتاب الفصول

وما بلغَ من قدر الكلب مع لؤم أصله ، وخُبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلّةِ خيره :مقاولة في شأن الكلب وقولك وكثرة شره، واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه، واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كلّه به، ومع حاله التي يعرف بها، ومن العجز عن صولة السِّباع واقتدارها، وعن تمنُّعها وتشرُّفها، وتوحُّشها وقلة إسماحها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة

بالمواضع الحريزة من المواضع المخُوفة، ولأنَّ الكلب ليس بسبع تام، ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلق المركَّب والطبائع الملفَّقة، والأخلاط المجتلبة، كالبغل المتلوِّن في أخلاقه، الكثير العيوب المتولِّدة عن مزاجه.

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادَّة، والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبيِّ من الحمام، الذي ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورَشان، وقوَّة جناحه وشدة عصبه، وحسنُ صوته، وشَحْو حلقه، وشكل لحونه، وشدَّة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب، وفي الراعبي أنّه مُسرْوَل مثقل، وحدث له عِظَمُ بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمِّه.

وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما، ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر، فلو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيدَ في قوتهما، وأتمَّ لشدتهما، فمع البغل من الشّبق والنَّعظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من السَّوَس، وطلب السفاد، ما ليس مع أمِّها، وذلك كلُّهُ قدح في القوَّة، ونقص في البنية، وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما، ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبويه، وأصبرَ على الأثقال من أبويه.

أو كابن المذكَّرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السِّمع، وأكثر عيوباً من العِسبار، ومنْ كلّ خلقٍ خلق إذا تركب من ضدّ، ومن كل شجرة مُطعَّمَةٍ بخلاف.

وليس يعتري مثلُ ذلك الخِلاسيّ من الدجاج، ولا الورداني من الحمام.

وكلُّ ضعف دخل على الخلقة، وكل رقَّة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه، وعلى وزن مقداره وتمكنه، يظهر العجزُ والعيب.

وزعم الأصمعيُّ، أنَّه لم يسبق الحلبة فرسٌ أهضم قط.

لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بلقاء :وقال محمد بن سلاّم.

والهداية في الحمام، والقوَّة على بعد الغاية، إنما هي للمصْمَتَة من الخضر.

الشيات في الحيوان ضعف ونقص.

وزعموا أنَّ الشِّياتِ كلَّها ضعف ونقص والشِّيَة :وقال اللّه جلّ وعزّ -كلُّ لون دخل على لون إنَّه يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ " الأَرْضَ ولاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فيهَا".

ابن المذكرة من المؤنث وزعم عثمان بن الحكم أنَّ ابن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوي، وأنَّه إذا خرج كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولا يَطمع في علاجه طبيب، وأنَّه رأى في دور

ثقيف، فتًى اجتمعتْ فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يومٌ، إلاّ وهم يتحدثون عنه بشيءٍ، يصغُر في جنْبه أكبرُ ذنبٍ كان يُنسَب إليه.

وزعمتَ أنَّ الكلب في ذلك كالخنثى، والذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لمَّا قُطع منه ما صار به الذَّكر فحلاً، خرجَ من حدِّ كمالِ الذكَر بفقدان الذكَر، ولم يكملُ لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وبقيّةِ الجوهريّة.

وزَعَمْتَ أنَّه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراطُ الحرّ، فيخرجه من حدِّ الخل، ولا يدخلهُ في حدِّ النبيذ.

وقال مرداس بن خذام:

يّةِ شَـرْبَةً	لِيِّ عِقَـالِ
يا عِقالُ فإنَّما	لها بِخَـيالِ
حبَّةَ قلـبِـه	لاثَ لـيالِ

الخمرُ -إذ كان خمراً مرة -فجعل الخمر أُمَّ الخلّ قد يتولد عنها، وقد يتولّد عن الخل.

وقال سعيد بن وهب:

جهك تُشْتَهَـى	شَعْرِ العارض
بخـدِّك لـحـية	كفِّ القابضِ
خمرُ عصيرها	مرٍ حـامـض

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنادرة الفاترة، التي لم تخرج من الحرِّ إلى البرد فتضحك السِّن، ولم تخرُج من البرد إلى الحر فتضحك السِّن.

ما يعتري الإنسان بعد الخصاء

وكيف ما كان قبل الخصاء

قالوا: كلُّ ذي ريح مُنتِنةٍ، وكُلُّ ذي دَفْرٍ وصُنَانٍ كريهِ المشَمَّةِ، كالنَّسر وما أشبهه، فإنَّه متى خُصي نقص نتنُه وذهبَ صُنانه، غيرَ الإنسان، فإنَّ الخصيَّ يكون أنتنَ، وصنانُه أحدَّ، ويعمُّ أيضاً خبْثُ العرق سائرَ جسدَه، حتى لتُوجَد لأجسادهمْ رائحةٌ لا تكون لغيرهم، فهذا هذا.

وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخصَى فإنَّ عظمَه يدِقُّ، فإذا دقَّ عظمُه استرخَى لحمه، و تبرَّأ من عظمه، وعاد رَخْصاً رطْباً، بعد أن كان عَضِلاً صُلْباً، والإنسان إذا خُصِيَ طال عظمُه وعرُض، فخالف أيضاً جميعَ الحيوان من هذا الوجه.

وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدامٍ، واعوجاج في أصابع اليد، والتواءٌ في أصابع الرِّجْل، وذلك مِن أوَّلِ طعْنهم في السنِّ، وتعرض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة والبضاضة ومَلاسة الجلد، وصفاءِ اللون ورقَّته، وكثرةِ الماء

وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض والتخَدُّد، وإلى الهُزال، وسوء الحال، فهذا الباب يعرض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة مِن أهل الزرع والنخل، لأنّكَ ترى الخصيَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع في لونه، وكأنَّه مِرْآةٌ صينيَّة، وكأنه وَذيلة مجلوَّة، وكأنه جُمَّارَة رَطْبة، وكأنه قضيبُ فِضَّةٍ قد مسَّهُ ذهب، وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيْئاتٍ يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذهاباً لا يعود، وإن كان ذا خِصبٍ، وفي عيش رَغَد، وفي فراغ بالٍ، وقلّةِ نصَب.

من طرائف عبد الأعلى القاصّ

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصّ، قوله في الخصي، وكان لغلبة السلامة عليه يُتوهَّم عليه الغفلة، وهو الذي ثمَّ ذكر :قالوا .الفقير مرقته سُلقة، ورداؤه عِلقة، وجَرْدَقته فِلقة، وسمكته شِلقة، وإزاره خرقة :ذكر الفقيرَ مرة في قصصه فقال إذا قُطِعت خُصيته، قويت شَهوته وسخُنت مَعِدته، ولانَتْ جِلدتُه، وانجردت شَعْرته، واتَّسعت فقْحته، وكثُرتْ :الخَصيَّ فقال دمعته.

وقالوا، الخصيُّ لا يصلَح كما لا تصلَع المرأة، وإذا قطع العضوُ الذي كان به فحلاً تامّاً، أخرجه ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجه من ذلك الكمال، صيَّره كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً، وتصيرُ طباعُه مقسومة على طباع الذكر والأنثى، وربما لم يَخْلُص له الخلقُ ولم يَصْفُ، حتّى يصير كالخلق من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكنَّه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وربما خرجت النتيجة وما يولّده التركيب، عن مقدار معاني الأبوين، كما يجوزُ عمرُ البغْل عمرَ أبويه، وكذلك ما عددنا في صدر هذا الكلام.

طلب النسل

وللإنسان قوًى معروفةُ المِقدار، وشهواتٌ مصروفةٌ في وجوهِ حاجاتِ النفوس، مقسومة عليها، لا يجوزُ تعطيلُها وتركُ :وقالوا استعمالِها ما كانت النفوسُ قائمةً بطبائعها ومِزاجاتها وحاجاتها، وبابُ المنكَح مِن أكبرها، وأقواها، وأعمِّها.

ويدخل في باب المنكَح ما في طبائِعهم من طلبِ الولد، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من يطلبه للكثرة والنُّصرة، وللحاجة إلى العدد والقوَّة، ولذلك استلاطت العربُ الرجالَ، وأغضتْ على نسب المولود على فراش أبيه، وقد أحاط علمُه بأنَّه من الزوج الأوَّل، قال الأشهبُ بن رُمَيلة:

غرُرْكَ كثرتُنا كثـرتَـهـم ... أيها الرجُلُ انـاً فيكتهـل

وقال الآخَر:

يَفِيُّون ‏ ِبْعِيُّونْ

.يشكو كما ترى صِغَر البنين، وضعف الأسر

وما أكثر ما يطلب الرجل الوَلَدَ نفاسة بماله على بني عمِّه، ولإشفاقِه من أن تليه القضاةُ وترتع فيه الأمناء، فيصيرَ مِلكاً للأولياء، .ويقضيَ به القاضي الذِّمامَ ويصطنع به الرجال

وربما همَّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذكْر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلَبِ الثواب في مباهاة المشركين، والزيادةِ في عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية، وللمدافعة والنُّصْرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع الله تعالى تعالى بني آدم عليه، من حبِّ الذُّرِّيَّةِ وكثرةِ النسل، كما طبع الله تعالى الحمام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في هَمِّه ونصبه، وفي الوَلَد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ فيحتمل في الولد المُؤَن المعروفة، والهموم الموجودة لغير شيء قصَد له، " :جُبْنِه وبخْله، وقد قال النبي .وليس في ذلك أكثرُ من طلب الطباع، ونزوع النفس إلى ذلك

:وذكر أبو الأخزَر الحِمَّاني عَير العانة بخلاف ما عَليه أصحابُ الزِّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سِفاده

ِلا بالعازِل

لأنَّ الإنسانَ من بين الحيوان المُزَاوِج، إذا كرِهَ الولدَ عزَل، والمزاوج من أصناف الحيوانات إنَّما غايتُها طلبُ الذرْء والولد، لذلك سُخِّرت، وله هيِّئت، لِما أراد الله تعالى من إتمام حوائِج الإنسان، والحمارُ لا يطلبُ الولدَ، فيكون إفراغه في الأتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد الولد عزَل كما يعزل الإنسان، غير أنّ غايتَه قضاءُ الشهوة فقط، ليس يَخْطُر على باله أنَّ ذلك الماءَ يُخلَق .منه شيء

.ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار :وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال

وعامَّة اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمِّهم وتصنُّعهم، وتحسينهم لما يملكون، إنَّما هو مصروفٌ إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلاّ التنمُّص والتطيُّب والتطوُّس والتَعرُّس والتخضُّب، والذي يُعَدُّ لها من الطيب والصِّبغ، والحَلْي، والكِساءِ، والفُرُش، والآنية، لكان في ذلك ما كفى، ولو لم يكن له إلاّ الاهتمامُ بحفظها وحراستها، وخوفُ العارِ من جنايتها والجناية عليها، .لكان في ذلك المؤْنةُ العظيمة، والمشقة الشديدة

قوله في الغرائز وبيان سبب شره الخصي

فإذا بطل العضوُ الذي من أجله يكون اشتغالُ النفس بالأصناف الكثيرة، من اللذَّة والألَم، فباضطرارٍ أنْ تعلَمَ أنَّ تلك القوَى لم تَبطل من التركيب، ولم تَعدَمْها الخلقة، وإنَّما سُدَّ دونَها بسدٍّ، وأدخل عليها حجاب، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودةً من عمل ، لأنَّ عملَ كلِّ جوهرٍ لا يُعدَمَ إلاّ بعدم ذاته، فإذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضَتْ من وجه، ولا سيما إذا جمَّت ونازعتْ، ولا بُدَّ إذا زخرت

وغَزُرت، وطغت وطمَتْ، من أن تفيضَ أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعُ كموقع المطعم، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكَح وما يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوَّة التي عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوَّتان في بابٍ واحد كان أبلغ في حكمِهِ، وأبعدَ غايةً في سبيله، ولذلك صارَ الخَصيُّ آكَلَ من أخيه لأمِّه وأبيه، وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه، وعلى قدر حاجةِ طبعه وحركة نفسه والحرارةِ المتولّدةِ عن الحرَكة يكونُ الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام

ودوامُ الأكل في الإناثِ أعمُّ منه في الذكور، وكذلك الحِجْرُ دون الفَرَس، وكذلك الرَّمَكة دونَ البرذَون، وكذلك النعجة دونَ الكبش، وكذلك النساءُ في البيوت دونَ الرجال، وما أشكُّ أنَّ الرجلَ يأكلُ في المجلس الواحِد ما لا تأكل المرأة، ولكنَّها تستوفِي ذلك المقدارَ وتُربي عليه مقطَّعاً غيرَ منظوم، وهي بدوام ذلك منها، يكون حاصلُ طعامِها أكثرَ، وهنَّ يُناسِبْن الصبيانَ في هذا الوجه، لأنَّ طبعَ الصبيِّ سريعُ الهضم، سريعُ الكلَب، قصيرُ مدَّةِ الأكل، قليلُ مقدارِ الطُّعْم، فللمرأةِ كثرةُ معاودتها، ثمَّ تَبينُ بكثرةِ نصيبُه من شِبْه النساء، ثم اجتماعُ قوى شهوتيه في بابٍ واحد، أعني شهوةَ المنكَح التي :مقدارِ المأكول، فيصير للخَصيِّ نصيبان تحولت، وشهوةَ المطعم.

برْذَونَة رَغُوث :قال ?أيُّ شيء آكَلُ :قال، وقيل لبعض الأعراب.

ولشدَّةِ نَهَمِ الإناثِ، صارت اللبؤة أشدَّ عُرَاماً وأنزقَ، إذا طلبت الإنسانَ لتأكله، وكذلك صارت إناثُ الأجناس الصائدة أصيَدَ، كالإناثِ من الكلاب والبُزاةِ وما أشبهَ ذلك، وأحرصَ ما تكونَ عندَ ارتضاع جِرائها من أطبائها، حتَّى صار ذلك منها سبباً للحرص والنَّهم في ذلك.

صوت الخصي

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغيُّرُ الصوت، حتى لا يخفى على من سمِعه من غير أن يرى صاحبَه أنَّه خَصِيٌّ، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابنَ عمِّه، أو بعضَ أترابه مِن فُحولة جنسه، وهذا المعنى يعرض لخِصيان الصقالِبَة أكثر ممَّا يعرض للخراسانية، وللسودان من السِّنْد والحُبْشان، وما أقلَّ مَن تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلاّ وله بيضة أو عِرْق، فليس يُحتاج في صِحَّةِ تمييز ذلك، ولا في دقة الحسِّ فيه، إلى حِذقٍ بقيافة، بل تجد ذلك شائعاً في طباع السِّفلة والغَثْرَاءِ، وفي أجناس الصِّبيان والنساء.

شَعر الخصي

ومتى خُصي قبلَ الإنباتِ لم يُنْبِتْ، وإذا خُصِي بعد استحكام نباتِ الشعر في مواضعه، تساقط كله إلاَّ شعرَ العانة، فإنه وإن نقَص من غَلَظه ومقدارِ عَدده فإنَّ الباقيَ كثير، ولا يعرضُ ذلك لشعر الرأس، فإنَّ شعرَ الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن.

وقد زعم ناسٌ أنَّ حكمَ شعر الرأس خلافُ حكم أشفار العينين، وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعر، وهذه الخصال من أماكن شَعر النساء، والخصيان والفحولة فيه سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادثِ الأصول، الزائدِ في النبات، ألا ترى أن المرأة لا تصلَعُ، فناسبها الخصيُّ من هذا الوجه، فإنْ عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرَع، لا من جهة النَّزَع والجَلَح، والجَلَه والصَّلَع وكذلك النساء في جميع ذلك.

والمرأة ربَّما كان في قُصَاص مقاديم شعرِ رأسها ارتفاع، وليس ذلك بنزَعٍ ولا جلَح، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السنّ. وتكون مقاطعُ شعر رأسه ومنتهى حدود قُصاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قُصاصها، وليس شعرُها كلما دنا من موضع الملاسَة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلَّ، ولكنه ينبُت في مقدارِ ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً، والمرأة ربَّما كانت سبلاءَ، وتكون لها شَعَراتٌ رقيقة زَغَبِيَّةٌ كالعِذار موصولاً بأصداغها، ولا يعرض ذلك للخَصي إلا من علة في الخصاء، ولا يرى أبداً بعد مقطع من صُدْغَيه شيءٌ من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه

ذوات اللحى والشوارب

وقد توجد المرأة ذات لحية، وقد رأيت ذلك، وأكثرُ ما رأيته في عجائِز الدَّهاقين، وكذلك الغَبَب والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً، وهي ليست في رأي العين بخُنْثى، بل نَجِدها أنثى تامَّة ، إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوَى، حتى يظهر في غير ذلك المكان، ولا تعرض اللحى للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخَصي.

وقد ذكر أهلُ بَغداد، أنَّه كان لابنةٍ من بناتِ محمَّدِ بن راشدٍ الخنَّاق، لحيةٌ وافرة، وأنّها دخلت مع نساءٍ متنقِّباتٍ إلى بعض الأعراس لتَرَى العُرس وجَلْوَةَ العَرُوس، ففطِنت لها امرأة فصاحت: رجلٌ والله وأحال الخدم والنساءُ عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلةٌ إلا الكشفَ عن فرْجِها، فنزَعن عنها وقد كادت تموت.

ويفضل أيضاً الخصيُّ المرأةَ في الانجراد والزَّعَر، بأن تجدَ المرأة زَبَّاءَ الذراعين والساقين، وتجد رَكَب المرأة في الشعْر كأنَّه عانَةُ الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك، ولا يعرض للخصيِّ ما يعرض للديك إذا خُصي أن يذبُلَ غُضروفُ:

.عُرْفِه ولحيته

والخصاءُ ينقُص من شدَّة الأسر، وينقُض مُبْرَمَ القُوَى، ويُرْخِي مَعاقِدَ العَصَب، ويقرِّب من الهرَم والبلى

مشي الخصي

ويعرض للخصيِّ أن يشتدَّ وقعُ رجله على أرض السَّطح، حتى لو تفقَّدتَ وقعَ قدمه وقدَم أخيه الفحل الذي هو أعبلُ منه لوجدتَ لوقْعِه ووطْئه شيئاً لا تجده لصاحبه، وكأنَّ العضوَ الذي كان يشدُّ توتير النَّسَا، ومَعاقد الوركين ومعاليق العصب، لمَّا بطل وذهب الذي كان يمسكُه ويرفعه، فيخفّ لذلك وقْعُ رجلِه، صار كالذي لا يتماسَكُ ولا يحمل بعضه بعضاً.

أثر الخصاء في الذكاء

ويعرض له أنَّ أخوين صَقْلبيَّيْن مِن أمّ وأبٍ، لو كان أحدهُما توءمَ أخيه، أنَّه متى خُصِيَ أحدُهما خرَج الخَصيُّ منهما أجودَ خِدمةً، وأفطن لأبواب المعاطاة والمُنَاولةِ، وهو لها أتقَنُ وبها أليق، وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة، فيُخصُّ بذلك كلّه، ويبقى أخوه على غثارة فطرته، وعلى غباوة غريزته، وعلى بلاهة الصَّقْلبيَّة، وعلى سوء فهم العجَميّة.

ويدُ الإنسان لا تكون أبداً إلا خرْقاءَ، ولا تصير صَناعاً ما لم تكنْ المعرفةُ ثِقافاً لها، واللسان لا يكون أبرأ، ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الألفاظ، إلاّ بعد أن تكونَ المعرفةُ متخلّلةً به، منقلة له، واضعةً له في مواضع حقوقِه، وعلى أماكن حظوظِه، وهو علّةٌ له في الأماكن العميقة، ومصرِّفةٌ له في المواضع المختلفة.

فأوَّلُ ما صنع الخِصاءُ بالصَّقْلبيِّ تزكيةُ عقلِه، وإرهافُ حدِّه، وشحْذُ طبعِه، وتحريكُ نفسه، فلما عرَف كانت حركته تابعةً لمعرفته، وقوَّته على قدر ما هيّجه.

فأمَّا نساءُ الصقالبة وصبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، ونقْل خَلْقهم إلى الفطنة الثاقبة، وإلى الحرَكَة الموزونة، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيلٌ، وعلى حسَب الجهْل يكون الخُرْق، وعلى حسب المعرفة يكون الحِذق، وهذا جملةُ القول في نسائهم، وعلى أنّهنَّ لا حظوظ لهنَّ عند الخلوة، ولا نفاذ لهنَّ في صناعة؛ إذ كنَّ قد مُنِعن فهمَ المعاطاة ومعرفة المناولة.

والخِصيانُ معَ جودة آلاتهم ووَفَارة طبائعهم في معرفةِ أبوابِ الخِدْمة، وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحداً منهم قطُّ نفَذَ في صناعةِ تنُسب إلى بعض المشقَّة، وتضافُ إلى شيءٍ من الحكمة، ممَّا يُعرَف ببُعْد الرَّوِيَّة، والغوص بإدامة الفكرة، إلا ما ذكرُوا من نَفَاذ ثقف في التحريك للأوتار، فإنَّه كانَ في ذلك مقدَّماً، وبه مذكوراً، إلاَّ أنَّ الخصيَّ من صباه، يُحسِن صنعة الدّابوق، ويُجِيد دُعاءَ الحمام الطوُّريِّ، وما شئتَ من صغار الصناعات.

وقد زعم البصريُّون أن حَديجاً الخصيّ، خادمَ المُثنّى بن زُهَير، كان يُجاري المُثنّى في البصَر بالحمام، وفي صحّة الفِراسة، وإتقان المعرفة، وجودة الرياضة، وسنذكر حاله في باب القول في الحمام إن شاء الله تعالى.

هذا قولهم فيمن خُصي من الصقالبة، وملوكُنا لعقول خِصيان خُراسانَ أحمد، وهم قليل، ولذلك لم نأتِ من أمرهم بشيءٍ مشهور، وأمر مذكور.

خصيان السند

وأما السِّند، فلم يكن فيهم أيضاً من الخِصيان إلاّ النَّفرُ الذين كان خصاهم موسى بنُ كعب، وقد رأيت أنا بعضَهم، وزعم لي أنَّه خَصَى أربعةٌ هو أحدهم، ورأيتُ الخِصاء، قد جذبَه إلى حبِّ الحمام، وعمل التكك، والهراش بالديوك، وهذا شيءٌ لم يُجْرِ منه على عِرق، وإنما قاده إليه قطعُ ذلك العضو.

خصيان الحبشة والنوبة والسودان

فأمَّا الخصيان من الحُبْشان والنُّوبة وأصناف السودان، فإنّ الخصاءَ يأخذُ منهم ولا يعطيهم، وينقُصهم ولا يزيدهم، ويحطُّهم عن مقادير إخوانهم، كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوتهم، لأن الحبشيَّ متى خُصِي سقطتْ نفسه، وثقُلت حركته، وذهب نشاطه، ولا بدَّ أن يعرض له فساد، لأنه متى استُقصي حِيابُه لم يتماسك بوله، وسلُس مخرجه، واسترخى الممسك له، فإن هم لم يستقصوا حِيابه، فإنما يُدخل الرجل منزله مَن له نصفُ ذلك العضو، وعلى أنك لا تجد منهم خَصِياً أبداً، إلاّ وبِسُرَّتِه بُجْرَةٌ، ونفخة شنيعة، وذلك عيبٌ شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قُبحِه في العَين، وشُنعَته في الذِّكر، وكلُّ ما قَبُح في العين فهو مؤلم، وكل ما شُنِع في النفس فهو مؤذٍ، وما أكثرَ ما تجد فيهم الألطع، وذلك فاشٍ في باطن شفاههم، ومتى كانت الشفاه هُدْلاً، وكانت المشافرُ منقلبة، كانت أظهر للَّطع، وهو ضرب من البرص، والبياض الذي يعرض لغَرَاميل الخيل وخُصَاها، ضربٌ أيضاً من البرص، وربما عَرَض مثل ذلك لحشفةِ قضيب المختون، إمَّا لطَبَع الحديد، وإمّا لقرب عهده بالإحداد وسقْي الماء، إلاّ أنَّ ذلك لا يعدُو مكانه، وكلما عظُمت الحشفةُ انبسَطَ ذلك البياضُ على قدر الزيادة فيها، وإنَّما ذلك كالبياض الذي يعرض من حَرْق النار وتشييطها، وكالذي يعرض للصقالِبَة من التَّعالُج بالكيِّ، وربَّما اشتدَّ بياضُه حتى يفحُشَ ويُردِيه، إلا أنَّه لا يفشو ولا ينتشر، إلاّ بقدر ما ينبسط مكانه، ويتحوَّل صاحبه رجُلاً، بعد أن كان صبيّاً، وليس كالذي يعرض من البلغم ومن المِرَّة، وبعضُ البرص يذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضُه لا يذهب ولا يقف، بل لا يزال يتفشَّى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه، ولا يذهب إلاّ بأنْ يذهب به نبي، فيكون ذلك علامةً له، ومن البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبَرَص، ولكن الذي هوَّن أمره الذي ترونَ من كثرَةِ بُرءِ الناس

.منه

ثمَّ الخصاءُ يكونُ على ضروبٍ، ويكون في ضروب، فمن ذلك ما يعرض بعدَ الكِبَر للأحرار، كما يعرض للعبيد، وللعرب كما يعرض للعجم، كما خَصَى بعضُ عَبَاهلةِ اليمن علقمة بنَ سهلٍ الخَصيّ

علقمة الفحل وعلقمة الخصي

وإنما قيل لعلقمة بن عَبَدَةَ الفحلُ، حين وقعَ على هذا اسمُ الخصي، وكان عبداً صالحاً، وهو كان جَنَبَ الجدِيل وداعراً، الفحلين الكريمين، إلى عمان، وكان من نازليها، وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامة بن مَظْعونِ في شرب الخمر، وهو الذي قال لعمر بن أما شهادتك فأقبَلُ، وهو عَلقمةُ بن سهْل بن عمارة، فلمَّا سمّوه :قال ?أتَقبَلُ شهادةَ الخصيِّ :الخطاب رضي الله تعالى عنه :الفحل، وعلقمةُ الخصيّ، الذي يقول :الخصيّ، قالوا لعلقمة ابن عَبَدة

قبراً لجثَّتـي | ـثَ منِّي المواليا
كنت أجمعُ قَبْلَهم | وما كنتُ والِـيا
ـءَ ثُمَّتَ أعنَقوا | ـي وشَـانِـيا
طريفٍ وتالـدٍ | ـالُ بالأمس ماليا

.وكما عرَض للدَّلال ونَومَةِ الضُّحى، مِن خصاءِ عُثمانَ بن حيَّان المرّيّ والي المدينة لهما، بكتابِ هشام بن عبد الملك أحص مَنْ قِبَلَكَ :أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك فمِنْ بني مرْوان من يدَّعي أنَّ عاملَ المدينةِ صحَّف، لأنه رأى في الكتاب وكيف يقولون :اخْص مَنْ قِبَلَك من المخنَّثين، وذكر الهيثمُ عن الكاتب الذي تولّى قراءَةَ ذلك الكتاب، أنَّه قال :مِنَ المخنَّثين فقرأها ما وجْهُ كتابِ هشامٍ في إحصاءِ عدَد :فقال اليقطري ?ذلك ولقد كانت الخاء معجمةً بنقطةٍ، كأنها سُهيل أو تمْرةُ صيحانية .وهذا لا معنى له، وما كان الكتابُ إلاّ بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة ?المخنَّثين

الآن صرِنَا نساءً بالحقّ كأنَّ الأمرَ لو كان إليهما لاختارا أن يكونا :وذُكِر عن مشايخَ من أهل المدينة أنهم حكَوا عنهما أنهما قالا وذُكِر أنهما خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيث، من فُتور الكلام ولِين المفاصل والعظام، ومن التفكُّك :امرأتين قال والتثنِّي، إلى مقدار لم يرَوا أحداً بلغه، لا من مخنَّثات النساء، ولا من مؤنَّثي الرجال أبو همام السنوط وكما عرَض لأبي همام السَّنُوط مِن امتلاخ اللُّخْم مذاكيرَه وخصيَيه، أصابَه ذلك في البحر في بعض المغازي، فسقطت لحيتُه، ولقِّب بالسَّنُوط، وخَرَج .لذلك نَهماً وشَرِهاً

لو كان النخلُ بعضُه لا يحمل إلاّ الرُّطب، وبعضُه لا يحمل إلاّ التمرَ، وبعضُه لا يحملُ إلاّ المجزَّع، وبعضُه لا :وقال ذات يوم يحمل إلاّ البُسر، وبعضُه لا يحمل إلا الخَلاَل، وكنَّا متى تناولنا من الشِّمْراخ بُسْرَةً، خلقَ اللّهُ مكانها بُسَرتين، لمَا كان بذلك بأس ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض !!أستغفرُ الله لو كنتُ تمنيَّتُ أن يكونَ بدل نواةِ التمر زُبدة كان أصوَب :ثم قال

للمذاكير والخصيتين، حتى ربما امتلخَهما طبيبٌ، وربَّما قطع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من تلقاءِ أنفسهما

نسل منزوع البيضة اليسرى

والعوامُّ يزعمون أنَّ الولدَ إنّما يكونُ من البيضة اليسرى، وقد زعمَ ناسٌ من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم، أنَّ ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزليِّ، إنَّما وُلِد له بعد أن نُزِعت بيضتُه اليُسرى، لأمر كانَ عرض له.

والخصيُّ الطيّان، الذي كان في مسجد ابن رَغبان، وُلِدَ له غلام، وكان ليس له إلاَّ البيضةُ اليُمنى، فجاء أشبهَ به من الذُّباب بالذُّباب والغرابِ بالغرابِ، ولو أبصرَه أجهلُ خلق الله تعالى بفراسةٍ، وأبْعدُهم من قِيافةٍ، ومن مخالطةِ النخَّاسين، أو من مجالسةِ الأعراب، لعِلمَ أنَّه سُلالتُه وخلاصته، لا يحتاج فيه إلى مجزِّز المُدْلجيّ، ولا إلى ابن كريز الخُزاعي

خصاء الروم

ومن أهل الملل من يَخْصي ابنَه ويقفُه على بيت العبادَة، ويجعله سادناً، كصنيع الرُّوم، إلا أنهم لا يُحدثون في القضيب حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إحبالَ نسائِهم ورواهبهم فقط فأما قضاءُ الوَطَر وبلوغُ اللذة، فقد زعموا أنهم يبلُغون من ذلك مبلغاً لا يبلُغه الفحل، كأنهم يزعُمون أنه يستقصي جميعَ ما عِندها ويستَجْلبه، لفَرْط قوَّته على المطاولة.

الروم أول من ابتدع الخصاء وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصلُه من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدَّعون مِن الرأفة والرحمة، ورقَّة القلبِ والكَبد، ما لا يدَّعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالِخصاء مُثْلةً وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ولا جَرَم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخِصيان، من طلَب الطوائل وتذكُّر الأحقاد، ما لم يظنُّوه عندَهم، ولا خافوه من قِبَلِهم، فلا هم ينزعون، ولا الخِصيانُ يَنْكِلون، لأنَّ الرِّماية فيهم فاشية، وإن كان الخصيُّ أسواراً بلغَ منهم، وإن كان جمع معَ الرماية التَّرْوة، واتخذ بطرَسُوس، وأذَنَة، الضِّياعَ واصطنعَ الرجال، واتخذ العُقَد المُغِلَّة فمضرَّة كلِّ واحدٍ منهم عليهم، تَفِي بمَضَرَّةِ قائدٍ ضخم، ولم ترَ عَداوةً قطُّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم، وهذا يدلُّ على مقدار فرطِ الرغبة في النساء، وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضَعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلةٌ كريمة مع طلب المثوبة، وحسن الأحدوثة

خصاء الصابئة

فأما الصابئون، فإنَّ العابدَ منهم ربَّما خصى نفسَه، فهو في هذا الموضع قد تقدم الروميَّ، فيما أظهرَ من حُسْن النيَّة، وانتحل من الديانةِ والعبادة، بخصاء الولد التامِّ، وبإدخاله النقصَ على النَّسل، كما فَعَل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويَسمَر عندَهم، للَّذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطُرَف الأخبار، ونوادر الكتب،

وكان قد أربى على المائة، ولم أسمعْ قطُّ بأغزَلَ منه، وإنْ كان يصدُق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه حديث أبي المبارك سمعته يقول وجرى ذكرُ النساء ومحلِّهن من قلوب الرجال، حتَّى زعموا أنَّ الرجلَ كلما كانَ :الصابي حدَّثني محمد بن عباد قال عليهن أحرصَ كان ذلك أدلَّ على تمام الفُحولة فيه، وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقِته ومعناهُ وطبعهِ، إذ كان قد جُعِل ألستم تعلمون أنِّي قد أربَيتُ على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهْنُ :رجلاً ولم يُجعل امرأة قال ابن عبّاد، فقال لنا صَدقتَ، :قلنا :قال ?الكِبَر، ونفادُ الذِّكر، وموتْ الشهوة، وانقطاعُ ينبُوع النطْفةِ، قد أماتَ حنينه إلى النساء وتفكيرَه في الغزَل وينبغي أن يكون مَن عوَّد نفسه تركَهنَّ مُدداً، وتخلى عنهن سِنينَ ودهراً، أن تكون العادة وتمرينُ الطبيعة، وتوطينُ النفس، :قال قد حطَّ من ثقل منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتمْ أنَّ العادة التي هي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعض عمدِ هَجْرٍ وينبغي أن يكونَ مَن لم يذُقْ طعم الخَلوة بهنَّ ولم يجالسهنَّ متبذلات، ولم يسمَعْ حديثَهنَّ :صدقت، قال :قلنا :لملامسةِ النساء، قال وخِلابتهنَّ للقلوب، واستِمالتهن للأهواء، ولم يَرَهُنَّ منكشفاتٍ عارياتٍ، إذا تقدم له ذلك معَ طول التَّرك، ألا يكون بقي معه من وينبغي أن يكون لِمَنْ قد عِلم أنه محبوبٌ، وأنَّ سببه إلى خِلاطهنَّ محسوم، أن يكون :صدقت، قال :قلنا :قال ?دواعيهن شيء وينبغي أن يكونَ من دعاهُ الزُّهدُ في :صدقت، قال :قلنا :اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد والسلوة، وإلى موت الخواطر، قال الدنيا، وفيما يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنةِ النُّسَّاكِ بهنّ، واتخاذِ الأنبياء لهنّ، إلى أن خَصَى نفسه، ولم يُكرهُه عليه أبٌ ولا عدوٌّ، ولا سَباه سابٍ، أن يكون مقدارُ ذلك الزهد هو المقدار الذي يُميت الذِّكرَ لهنَّ، ويُسَرِّي عنه ألم فقد وُجودِهنَّ، وينبغي لمن كان في إمكانه أن ينشئ العزم ويختارَ الإرادة التي يصير بها إلى قطع ذلك العضو الجامع لِكبار اللذَّات، وإلى ما فيه من الألم، ومع ما فيه من الخطر، وإلى ما فيه من المُثلة والنَّقص الداخل على الخلقة، أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعرُوه، وينبغي لِمَنْ سَخَتْ نفسه عن السَّكَن وعن الوَلد، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب :صدقت، قال :قلنا :والدواعي لا تقْروه، قال الصالح، أن يكون قد نسيَ هذا البابَ، إن كان قد مرَّ منه على ذُكر، هذا وأنتم تعلمونَ أنِّي سَمَلْتُ عيني يومَ خصَيت نفسي، فقد نسيتُ كيفية الصُّوَرِ وكيف تَرُوع، وجَهلت المراد منها، وكيف تُراد، أفما كان مَنْ كان كذلك حَرِيًّا أن تكون نفسُه ساهيةً لاهية أو لوْ لم أكنْ هَرِماً، ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ، وكانت :صدقت، قال :قلنا :قال ?مشغولةً بالبابِ الذي أحتمل له هذه المكاره الآلة قائمةٌ أليس في أنِّي لم أذقْ حيواناً منذُ ثمانينَ سنة ولم تمتلِ عُروقي من الشرابِ مخافة الزيادة في الشهوة، والنقصانِ من فإنِّي بعدَ جميع ما وصفتُ لكم، :صدقت، قال :قلنا :قال ?أليسَ في ذلك ما يقطع الدواعي، ويُسْكِن الحركة إن هاجت -العزم لأسْمَعُ نغْمة المرأةِ فأظنُّ مرَّةً أنّ كَبِدي قد ذابت، وأظنُّ مرّةً أنها قد انصدعت، وأظنُّ مرّةً أنّ عقلي قد اختُلِس، وربَّما اضطرب قد صدقَ -حفظك الله تعالى -فإن كان ?فُؤادِي عند ضحِك إحداهُنّ، حتَّى أظنّ أنَّه قد خرجَ من فمي، فكيف ألومُ عليهنَّ غيري

وما ?على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستِّين سنة أو سبعين سنة وليس في الاستطاعةِ ولا في صفةِ الإمكان، أن يحتَجِز عن إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهنَّ ?ظنَّك به قبلَ الخصاء بساعة والشهوةِ لهنَّ هذا المقدارُ الله تعالى أرحمُ بخلقِه، وأعدَلُ على عباده، من أن يكلِّفَهم هِجرانَ شيءٍ، قد وصله بقلوبهم هذا الوصلَ، .وأكَّدَه هذا التأكيد

وقد خصى نفسه من الصابئين رجالٌ، قد عرَفناهم بأسمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم، وفي الذي ذكرنا كفايةٌ إن شاء الله تعالى

استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء

سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجَمَاعَة، واستأذَنَه في :وقد ذُكر أنَّ عثمانَ بن مَظْعونٍ، اسْتَأْذنَ النبي صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال .خِصاء أمَّتي الصوم، والصوم وِجاء، فهذا خِصاءُ الديانة :الخصاءِ فقال

خصاء الجلب وقسوته

فأمَّا من خصى الجَلَبَ على جهة التجارة، فإنه يَجُبُّ القضيب، ويمتلخ الأنثيين، إلا أن تقلَّصت إحداهما من فَرْط الفَزَع، فتصيرُ إلى موضع لا يمكن ردُّها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلمٌ لا يفي به ظُلم، وظلم يُربي على كلِّ ظلم، لأنه عندَ ذلك لا يحفِل بفوت المتقلِّص، ويقطع ما ظهر له، فإن برئ مجبوبَ القضيب أو ذَا بيضةٍ واحدة، فقد تركه لا امرأةً ولا رجُلاً ولا خَصِيًّا، وهو حينَئذٍ ممَّن تخرُج لحيتُه، ومِمَّن لا يدعه الناسُ في دُورهم ومواضع الخُصوص من بيوتهم، فلا يكونُ مع الخصيان مقرَّباً ومكرَّماً، وخَصيبَ العَيش منعَّماً، ولا هو إذا رُمِي به في الفحول، كان له ما للفحول من لذَّةِ غِشيان النساء، ومِن لذّةِ النسل والتمتُّع بشم الأولاد؛ فلم يزَل عندَ الفحول مستضعَفاً محتقراً، وعند الخِصيان مجرَّحاً مطرحاً، فهو أسوأ حالاً من السَّدِم المعنَّى فلا أعلم قتْلةُ إذا كان القتلُ قِتلةً صريحة مُريحة إلا أصغَر عند الله تعالى، وأسهلَ على هذا المظلوم من طول التعذيب، والله .تعالى بالمِرصادَ

خصاء البهائم

وأمّا خصاءُ البهائم، فمنه الوجاءُ، وهو أن يشدَّ عصَبُ مجامع الخُصيةِ من أصل القضيب، حتَّى إذا نَدَرت البيضة، وجَحَظت الخُصية، وجأها حتى يرضَّها، فهي عند ذلك تذبُل وتنخسف، وتذوِي وتستَدِقّ، حتى تذهبَ قُواها، وتنسدَّ المجاري إليها، ويسريَ .ذلك الفسادُ إلى موضع تربيةِ النُّطْفة، فيمنعَها من أن تكثُر أو تعذب أو تخثُر

ومنها ما يكون بالشدِّ والعصْب، وشدَّةِ التحزيق، والعَقْدِ بالخيط الشديد الوَتير الشديد الفتل، فإذا تركه على ذلك عِمل فيه وحزَّ، أو أكلَّ ومنعَه من أن يجزيَ إليه الغذاءُ، فلا يلبثُ أن ينقطعَ ويسقط.

ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين

خصاء الناس

يقال خصَيت الدابة أخصِيها :فأمَّا خصاءُ الناس، فإنّ للخاصي حديدةً مرهَفَةً مُحْماة، وهي الحاسمة، وهي القاطعة، قال أبو زيد برئتُ إليك من الخصاء أو الوجاء، ولا يقال ذلك إلاّ لما كان قريبَ العهد لم يبرأ منه، فإذا :خِصاءً، ووجأتها أجَؤُها وجاءً، ويقال برئ لم يُقل له.

وأما الخِصاءُ فهو أنْ يسلَّ الخُصيتين، والوجاء أن توجَأ العرقُ والخصيتان على حالهما، والمعصوب من التيوس الذي تُعصَب خُصيتاه حتى تسقطا، والواحد من الخصيان خَصِيٌّ ومخصيّ، ويقال ملست الخصيتَين أملُسهما ملْساً، ومَتَنْتُهما أمتنهما متْناً، جلدة الخُصيتين :وذلك أن تشقّ عنهما الصَّفَن فتسلُّهُما بعروقهما، والصَّفَن.

خصاء البهائم والديكة

والخِصاءُ في أحداثِ البهائم، وفي الغنم خاصةً، يدع اللَّحمَ رَخْصاً وندِيًّا عذباً، فإنْ خَصَاه بعد الكبر، لم يقو خِصاؤُه بعدَ استحكامِ القوَّة على قلْب طباعه، وأجود الخِصاء ما كانَ في الصِّغَر، وهو يسمَّى بالفارسية ثربخت يُعنى بذلك أنّه خُصِيَ رطباً، والخَصيُّ من فحولها أحَملُ للشحم، لعدم الهيْج والنَّعْظ، وخروج قواه مع ماء الفِحْلة، وكثرةُ السِّفاد تورث الضَّعْفَ والهُزالَ في ما استُهتِرَ به أحدٌ إلاّ رأيت ذلك في مُتَّته، والديك يُخصى ليَرطب لحمُه :جميع الحيوان، وقد ذُكِر لمعاوية كثرة الجماع فقال ويطيب ويحمل الشحم.

خصاء العرب لفحولة الإبل

وكانت العربُ تَخصِي فُحولة الإبل لئلاّ يأكلَ بعضُها بعضاً، وتستبقي ما كان أجودَ ضِراباً، وأكثرَ نَسْلاً، وكلَّ ما كان مئناثاً وكان شابًّا ولم يكن مذكاراً، وهم يسمُّون الإذكار المحْقَ الخَفِيّ، وما كان منها عَيَاياءَ طَبَاقاءَ، فمنها ما يجعل السّدِمَ المعنَّى، وإذا كان الفحلُ لا يُتَّخذ للضِّراب، شدُّوا ثِيله شدّاً شديداً، وتركوه يهدِر ويُقَبقِب في الهَجْمة، ولا يصل إليهنَّ وإن أردنَه، فإذا طلبْنَ السريعة القَبول لماء :السريع الإلقاح، واللَّقوة :لَقْوَةٌ لاقتْ قَبيساً، والقَبيس من الحِمال :الفحلَ جيءَ لهنَّ بفحلٍ قَعْسريٍّ ويقولون الفحل.

والنساءُ يكرهْنَ وقُوعَ -وشكت امرأةٌ زوجَها، وأخبرتْ عن جهله بإتيان النساء، وعِيِّه وعجْزِه، وأنَّه إذا سقط عليها أطبَقَ صدرَه

:زَوْجي عَيَاياءُ طَباقاء، وكلُّ داءٍ لهُ داءُ وقال الشاعر :صدورِ الرجال على صدورهنَّ فقالت

خُصوماً ولم يَقُدْ ها حينَ تعكف

خصاء العرب للخيل

.وكانوا يخْصُون الخيل لشبيه بذلك، ولعلّة صهيلها ليلة البَيَات، وإذا أكمنوا الكُمَنَاء أوْ كانو هُرَّاباً

القول في كلمة خنذيذ ويزعم من لا علم له، أنَّ الخنذيذ في الخيل هو الخصيُّ، وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَاف بن

:نَدْبة

فُحولا

:وقال بشرُ بنُ أبي خَازم

مُولَ منهُ ه التَّجَارُ

:وليس هذا أرادَ بشر، وإنَّما أراد زمانَ الغزو، والحالَ التي يعتري الخيلَ فيها هذا المعنى ، كما قال جد الأحيمر

حُـو مُضَرْ

ذا الدَّبَـرْ

.وإنَّما فخر بالغزْو في ذلك الزمان

:وأما الخنذيذ فهو الكريم التامُّ، وربَّما وصفوا به الرجل، وقال كثير

ضُحَى متمطِّر الجريُ آلَها

:وقال القطامي

سَرَاة مُقلّصٍ المتكـاوسُ

:ومن الدليل على أنَّهم ربما جعَلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذاً، قولُ بعضِ القيسيين، مِن قيس بن ثعلبة

إليَّ فشمَّـرتْ طِوالُ السواعد

:عبد اللّه بن الحارث وعبد الملك بن مروان وقال عبدُ اللّه بن الحارث، وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مرْوان حينَ فارقَ مُصعباً

ةِ عِـلَّةٍ المـهلَّـبُ

فِ أمامي كأنَّـه من غير مَشْرَبِ

أذاتَ مغازل :فلمَّا أخذته قيسٌ نصبُوه، فجَعلوا يرمُونه بالنبل ويقولون :الإقواءُ أحسَنُ من هذا قال :أقوى فقال :فقلت ليونس

:يريدون بيت ابن الحرّ ?تَرَى

عَيلانَ برقعت ها بالمغـازل

.أيُّهَا الأمير هو واللّه الذي أتَى الماءَ من غير مَشْرَب :قال ?يا أبا المِنهال كيف ترى :فلما أتي مُصعبٌ برأسِه، قال لسُويد

:وقال أعشَى هَمْدان

ي حُدِّثْـتَـهُ	سيِّ الدَّيزج

وتعرض للخصيِّ سُرعة الدَّمعة، وذلك مِن عادةِ طبائع الصبيان ثم النِّساءِ، فإنَّه ليس بعدَ الصبيان أغزَر دَمعة من النساء،

وكفاك بالشيوخ الهرمين أخلاق الخصي

.ويعرض للخصيِّ العبثُ واللَّعِبُ بالطير، وما أشبهَ ذلك من أخلاق النساء، وهو من أخلاق الصبيان أيضاً

.ويعرض له الشَّرَه عندَ الطعام، والبخل عليه، والشحُّ العامُّ في كلِّ شيء، وذلك مِن أخلاق الصِّبيان ثم النِّساء

:وقال الشاعر

يساً إذا غدَا	ـاد رَهيصُ
ي الدهرَ ضَعْفَها	ين قموصُ

ويعرض للخصيِّ سرعةُ الغضبِ والرضا، وذلك من أخلاق الصِّبْيان والنِّساء، ويعرض له حبُّ النميمة، وضيقُ الصدرُ بما أُودِع من السرّ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له دون أخيه لأمِّه وأبيه، ودون ابن عمِّه وجميع رهطه، البصَرُ بالرَّفْع والوضْع، والكنس والرشِّ، والطَّرح والبسْطِ، والصبرُ على الخدمة، وذلك يعرض للنساء، ويعرض له الصبرُ على الرُّكوب، والقوَّة على كثرةِ الركْض حتَّى يجاوز في ذلك رجالَ الأتراكِ وفرسانَ الخوارج، ومتى دفع إليه مَولاه دابَّتَه ودخل إلى .الصلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعودَ مريضاً، لم يترُكْ أن يُجريَ تلك الدابَّة ذاهباً وجائياً، إلى رجوع مولاه إليه

ويعرض له حبُّ الرمي بالنُّشَّاب، لِلَّذي يدور في نفسِه من حبِّ غزو الرُّوم، ويعرض له حبُّ أن تَمْلكَه الملوك، على ألاَّ تقيمَ له .إلاَّ القوتَ ،ويكونُ ذلك أحبَّ إليه من أنْ تملكَه السُّوقةُ، وإن ألحقته بعيش الملوك

ومن العجب أنَّهم مع خروجهم من شَطْر طبائع الرجال، إلى طبائع النساء، لا يعرض لهم التخنيث، وقد رأيت غيرَ واحدٍ من الأعرابِ مخنَّثاً متفكّكاً، ومؤنثاً يَسِيلُ سيلاً، ورأيتُ عدّةَ مجانينَ مخنَّثين، ورأيتُ ذلك في الزِّنج الأقْحاح، وقد خبَّرني من رأى كُرديّاً مخنثاً، ولم أر خَصيّاً قط مخنَّثاً، ولا سمعتُ به؛ ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانعَ منه، ولو كان الأمرُ في ذلك إلى .ظاهِرِ الرأي، لقدْ كان ينبغي لهم أن يكونَ ذلك فيهم عامّاً

ومما يَزيدني في التعجُّب من هذا الباب، كثرةُ ما يعرض لهم من الحُلاَق، مع قلّةِ ما يعرض لهم من التخنيث، مع مفارقتِهم .لشطر معاني الرجال إلى شبه النساء

ويزعم كثير من الشيوخ المعمَّرين؛ وأهل التجربة المميِّزين، أنّهم اختبروا أعمارَ ضُروبِ الناس، فوجدوا طولَ الأعمار في الخصيان أعمَّ منه في مثلِ أعدادهم من جميع أجناس الرجال، وأنّهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتِهم وبني أعمامهم الذين لم .يُخصَوْا، فوجدُوا طول العُمُر في الخِصيان أعمَّ، ولم يجدوا في عمومِ طوال العمر فيهم واحداً نادراً، كفلانٍ وفلان من الفحول

.وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارهمْ علّةً إلاّ عدَمَ النِّكاح، وقلّة استفراغ النُّطف لقُوى أصلابهم

وكذلك لم نجدْ فيما يعايشُ الناسَ في دُورهم، من الخيل والإبل، والحمير، والبقر، والغنم، والكِلابِ، والدَّجاج، والحمام، :قالوا

.والدِّيَكة، والعصافير، أطول أعماراً من البغال

.وجدْنا أقلّها أعماراً العصافيرَ، وليس ذلك إلاّ لكثرةِ سفادِ العصافير وقلّةِ سِفادِ البغال :وكذلك قالوا

لا يعيشُ أحدٌ فوق عمر أبويه خطأ، وأولئك إنما :وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغل على عمرِ أبويَه دليلاً على أنّ قول الناس

عنوا الناسَ دونَ جميع الحيوان

النتاج المركب

قد وجدنا غُرمولَ البغل أطولَ من غرمول الحمار والفرس والبرذون، وهؤلاء أعمامُه وأخواله، فقد وجدْنا بعض النِّتاج :وقالوا

المركّبِ، وبعضَ الفروع المستخرجة، أعظم من الأصل؛ ووجدنا الحمام الرَّاعبي أعظمَ من الوَرَشان الذي هو أبوه، ومِن

الحمامة التي هي أمُّه، ولم نجدْه أخذ من عمر الوَرَشان شيئاً، وخرج صَوْتهُ من تقدير أصواتهما، كما خرج شَحِيح البغْل من

نهيق الحمار وصهيل الفرَس، وخرَج الرَّاعبي مُسروَلاً، ولم يكن ذلك في أبويه؛ وخرَج مُثْقَلاً سَيِّءَ الهداية، وللوَرشَان هداية،

.وإن كان دونَ الحمام؛ وجاءَ أعظمَ جُثّة من أبويه، ومقدارُ النّفَس مِن ابتداءِ هَدِيله إلى منقطعه، أضعافُ مقدارِ هديل أبويه

وفَوالجُ البُخْتِ إذا ضرَبت في إناث البُخْت، ولم يخرُج الحُوَارُ إلاّ أدَنّ قصيرَ العُنق، لا ينال كلأً ولا ماءً إلاّ بأنْ يُرفعا إليه،

فيصيرُ لمكان نُقصان خلقه جَزورَ لحم، ولا يكون من اليعمَلات ولا من السابقة، ولو عالُوه وكفَوه مُؤْنة تكلف المأكول

والمشروب، ثم بلَغَ إلى أن يَصيرَ جملاً يمكنه الضِّراب، وكذلك الأنثى التي هي الحائل إلى أن تصيرَ ناقة؛ فلو ألقحها الفحلُ

لجاء ولدُها أقصرَ عنقاً من الفيل، الذي لو لم يجعل الله تعالى له خرطوماً يتناولُ به طعامَه وشرابه، لمات جُوعاً وهُزالاً؛ وليس

كذلك العِرَاب، وإذا ضربت الفوالجُ في العراب جاءت هذه الجوامز والبُخْت الكريمة التي تجمع عامَّة خصال العراب وخصال

البُخت، فيكونُ ما يُخرج التركيبُ من هذين الجنسين أكرمَ وأفخمَ وأنفس وأثمن، ومتى ضربت فحولُ العرَاب في إناث البُخْت

:جاءت هذه الإبل البَهْوَنِيَّة والصَّرصرانية فتخرج أقبح منظراً من أبويها، وأشدَّ أسْراً من أبويها، وقال الراجز

أباعر

وبعد؛ فإنّ هذه الشَّهْرِيَّة الخُراسانية، يخرج لها أبدانٌ فوقَ أبدانِ أمّهاتِها وآبائها من الخيل والبراذين، وتأخذ من عِتْق الخيل،

.ومن وثاجة البراذين، وليس نِتاجها كنتاج البرذَون خالصاً والفرس خالصاً

.وما أشبهَ قرابة الحمار بالرَّمكة والحِجْر، من قرابة الجمل الفالج البُخْتيِّ بقرابةِ القَلوص الأعرابيَّة

الحمر الوحشية

ويقال إن الحمرَ الوحشيَّة، وبخاصّةٍ الأخدريَّة، أطولُ الحَمير أعماراً وإنما هي من نِتَاج الأخدَر، فرس كانَ لأرْدَشير بن بابَك صار وحشيّاً فحمَى عِدَّة عاناتٍ فضرب فيها، فجاء أولادُه منها أعظمَ من سائر الحمر وأحسنَ، وخرجتْ أعمارُها عن أعمار الخيل وسائر الحُمُر أعني حمر الوحش فإنَّ أعمارَها تزيد على الأهليَّة مِراراً عدَّة.

عير أبي سيارة ولا يعرفون حماراً وحشيّاً عاشَ أكثر وعُمِّر أطول من عير أبي سيَّارَة عُمَيلة بن أعزل؛ فإنهم لا يشكُّون أنّه دَفَع لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً :قال الأصمعيُّ !!عليه بأهل الموسم أربعين عاماً.

لهج ملوك فارس بالصيد

وزعموا وكذلك هو في كتبهم أنَّ ملوكَ فارسَ، كانت لهجة بالصيد؛ إلا أنَّ بهرام جور هو المشهور بذلك في العوامّ.

وهم يزعمون أنّ فيروز بن قباذ الملك الفارسيّ، ألحَّ في طلب حمار أخدري؛ وقد ذُكر له ووُصف؛ فطاوَله عند طلبه والتماسه، وجدَّ في ذلك فلجَّ به عند طلبه الاغترام،وأخرجته الحفيظةُ إلى أن آلى ألاَّ يأخذهَ إلا أسراً، ولا يطاردَه إلا فرداً، فحمل فرَسه عليه، فحطَّه في خبَار فجمع جَراميزه وهو على فرسه ووثَب؛ فإذا هو على ظهره؛ فقمَص به، فضم فخذيه فحطّم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظم الناس، وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه.

وكان الملك منهم إذا أخذَ عَيراً أخدريًّا وغيرَ ذلك؛ فإذا وجدَه فتياً وسمَه باسمه وأرَّخ في وسمِه يومَ صيده وخلَّى سبيله، :قالوا وكان كثيراً إذا ما صاده الملكُ الذي يقوم به بعدَه، سار فيه مثله تلك السِّيرةَ وخلَّى سبيله، فعرَف آخرُهم صنيعَ أوّلهم؛ وعرفوا مقدارَ مقادير أعمارها.

الحكمة في تخالف النزعات والميول

ولولا أنَّ ناساً من كلِّ جيل، وخصائص من كلِّ أمَّة، يلهجون ويَكْلفون بتعرُّف معاني آخرين لدرستْ، ولعلَّ كثيراً من هؤلاء يُزْري على أولئك، ويعجِّب الناسَ من تفرُّغهم لما لا يجدي، وتركهم التشاغلَ بما يُجْدِي، فالذي حبَّب لهذا أن يرصُد عمر حِمار أو وَرَشَانٍ أو حيَّة أو ضبٍّ، هو الذي حبَّب إلى الآخر أن يكون صيَّاداً للأفاعي والحيَّات، يتتبَّعُها ويطلُبها في كلِّ واد وموضع وجَبَلٍ للترياقات، وسخَّرَ هذا ليكون سائسَ الأسْدِ والفُهود والنُّمُور والببور، وترك من تِلقاء نفسِه أن يكونَ راعيَ غنم.

والذي فرَّق هذه الأقسام، وسخَّر هذه النفوسَ، وصَرف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافِنها، وهذه المعاني من مخابيها، هو الذي سخَّر بَطْليمُوس مع مُلْكِه، وفلاناً وفلاناً للتفرُّغ للأمور السماويَّة، ولِرعاية النجوم واختلاف مَسير الكواكب، وكلٌّ ميسَّرٌ

فأمَّا الصناعاتُ فقد تقصُر الأسباب بعضَ الناس على أن .لِما خُلِق له، لتَتمَّ النعمة ولتكمُل المعرفة، وإنما تأبَّى التيسير للمعاصي يصير حائكاً، وتقصرُ بعضَهم على أن يكون صَيْرَفيّاً، فهي وإن قصَرتْه على الحِياكِة، فلم تقصُرْه على خُلف المواعيد وعلى إبدال الغُزُول، وعلى تشقيق العمل دونَ الإحكام والصدق وأداءِ الأمانة، ولم تقصر الصيرفيَّ على التطفيف في الوزن والتغليط .في الحساب، وعلى دسِّ المموَّه؛ تعالى اللهّ عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً

خضوع النتاج المركب للطبيعة

ولو كان أمرُ النِّتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقربُ إلى الظنِّ، لكانت الأظْلاف تجري مَجْرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البخْت من العراب، والخيل من الحمير !!وسبيل نتائج الظِّلْف على خلافِ ذلك؛ لأنَّ التيسَ على شدَّة عُلمته لا يعرض للنعجة إلاّ بالقليل الذي لا يُذكر، وكذلك ما يحدث إمَّا ألاّ يتمّ خَلقُه، وإما ألاّ يعيش؛ وكذلك الكبشُ والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج؛ لأنه قد يضرب :بينهما من الولد كذلك .الجنس في الجنس الذي لا يُلقحه، ولا يكون اللِّقاح إلا بعد ضراب

.وطلبَ التيس للنعجة قليل وأقلُّ من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقلُّ من ذلك أنْ تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة

.وقد تجاسَرَ ناسٌ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل، فادَّعوا أموراً، ولم يحفِلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان

زعم في الزرافة

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية، وبين الدِّيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنّهم لَما رأوا أنَّ اسمها بالفارسية أشتر كاو بلنك؛ وتأويل أشتر بعير، وتأويل كاو بقرة، وتأويل بلنك الضبع؛ لأن الضباعَ عُرْج؛ كذلك الذكر وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجِل كما يحجِل المقيَّد من الناس؛ -وكلُّ ذئبٍ أقزَل -والأنثى يكون بهما خُمَاع؛ كما عرض للذئِب القزَل وكما أنَّ العصفورَ لا يمشي؛ ومشيُه أن يجمَع رجليه أبداً معاً في كلِّ حركةٍ وسكون، وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك اسم فارسيٌّ، هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم :اشتر مرغ، وكأنَّهم في التقدير قالوا :والفُرس تسمِّي الأشياءَ بالاشتقاقات؛ كما تقول للنعامة أوجبَ أن تكون النعامةُ نِتاجَ ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين؛ سمَّوها بذينك الشيئين، وهم يسمون الشيء المرَّ الحلو تَرْش شِيرين وهو في التفسير حلوٌ حامض، فجسَر القومُ فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً؛ وجعلوا الخِلقَة قد يعرض الذيخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها، فتلقح بولدٍ يجيء خلقُه ما بين خلْق الناقة :ضرْباً من التراكيب؛ فقالوا والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض لها الثور الوَحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة، وإن كان ولدُ الناقة ذكراً عرَض للمهاة

فألقحها فتلد زرافة، فمنهم من حجر البتَّة أن تكون الزرافة الأنثى تلقح من الزرافة الذكر، وزعموا أنَّ كلَّ زرافةٍ في الأرض، ليس كلُّ خلقٍ مركَّب :فإنَّما هي من النِّتاج الذي ركَّبوا؛ وزعموا أنَّ ذلك مشهورٌ في بلاد الحبَشة، وأقاصي اليمن، وقال آخرون لا ينسِل ولا يبقى نجلُه ولا يتلاقح نسله، على ما حكينا من شأن الوَرشان والرَّاعبي، وهؤلاء وما أشبههم يُفسدون العلم، ويتَّهمون الكتب، وتغرّهم كثرةُ أتباعهم مَّمن تجدُه مستهتَراً بسماع الغريب، ومُغرَماً بالطرائف والبدائع، ولو أُعطُوا مع هذا الاستهتار .نصيباً من التثبُّتِ، وحظًّا من التوقي، لسَلِمت الكتبُ من كثير من الفساد

النتاج المركب في الطيور

.إنّه من نِتاج ما بين القُمْريِّ والفاختة :وأنا رأيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن، فقال لي صاحب الطيور

وقنَّاص الطير، وَمن يأتي كلَّ أوقة وغيضةٍ في التماس الصيد، يزعمون أنَّ أجناساً من الطير الأوابد والقواطع، تلتقي على المياه .فتتسافد؛ وأنَّهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قطُّ، فيقدِّرون أنَّها من تلاقح تلك المختلفة

زعم بعض الأعراب في الحرباء

وسمعت أعرابيًّا من قيسٍ :وقال أبو زيدٍ النحويّ، وذكر عّمن لقي من الأعراب أنَّهم زعموا أنَّ ذكرَ أمِّ حُبَين هو الحرباء، قال :سمعتُ أعرابياً يقول :وقال يحيى الأغر .وقيسٌ تسمِّي ذكر العَظاءة العَضْرفوط :يقول لأمِّ حُبين حُبينة، والحُبينة هو اسمها، قال .فإذاً سامُّ أبرَص، والوَرَل، والوَحَر، والضَّبّ والحَلْكاء، كلُّها عندَه عَظاءة :لا خيرَ في العَظاءَة، وإنْ كان ضَبًّا مَكُوناً، قال

ولد الثعلب من الهرّة الوحشية

:وزعم يحيى بن نُجَيم أنَّ الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج بينهما ولدٌ، وأنشد قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه

ابنُـه ... الأبُ
بـيَّة ... طـب
عرسـاً ... الثعلبُ

:وأنشد أبو عبيدة قولَ عبد الرحمن بن الحكم

نَ حـرب ... اليمانـي
أبوك عَـفٌّ ... أبوك زَاني
مِن قُرَيشٍ ... لَدِ الأتَـانِ

:ولأي شي قال :قال كَيسان

لد الأتان

.أرادها هو التبعيدَ بعينه؛ وأنت تُريد ما هو أقرب :كرِحْم الفِيل من الخنزير، قال أبو عبيدة :إنما كان ينبغي أن يقول

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

أنَّ أهلَ سفينةِ نوح كانُوا تأذَّوا بالفأر، فعَطَس الأسدُ عَطْسةً فرمى من مِنْخَريه بزوج :وزعم بعض المفسِّرين وأصحابِ الأخبار فينبغي أن :سنانير، فلذلك السِّنَّوْرُ أشبهُ شيءٍ بالأسدِ، وسلَح الفيلُ زوجَ خنازير؛ فلذلك الخنزيرُ أشبهُ شيءٍ بالفيل، قال كيسان أولم تعلمْ أنت أنّ لكل جنس من الحيوان آدم :يكون ذلك السِّنَّورُ آدَمَ السنانير، وتلك السِّنَّورة حَوَّاءَها، قال أبو عبيدة لكيسان .وضحك فضحك القومَ?وحواء

شره سعد القرقرة

:ولمَّا رأى أبو قُردُودةَ سعدَ القرقرة، أكلَ عند النُّعمان مسلوخاً بعظامه قال

لكلبِ مَنْبِتُهُ ـُئر وأخْوالُ

إنَّ سعداً ضرب في أعراقه نجر النعام الذي يلتهم الجمر، ويلتقم الحجارة، فيطفئ الجمرَ ويميع الصخْر، وضرب في :يقول أعراقه نَجْرُ الكلبِ الذي يرضُّ كلَّ عظم، ولا يقبض عليه بكفّه إلاّ هو واثق بفتّه، ولا يسيغه إلاّ وهو على ثقةٍ من استمرائه، فأمَّا .الذئب فإنَّه لا يروم بفكَّيه شيئاً إلاّ ابتلعَه بغير معاناةٍ، عظماً كان أو غيرَه، مصمتاً كان أو أجْوفَ

:ولذلك قال الراجز

ـصَه غُبَارُه ـِنـارُه

فأبو قُردُودةَ لم يُردْ أنَّ الذئب والكلب خالاه، وأنَّ النعام نَجَله، وإنما قال ذلك على المثل والتشبيه، ولم يردْ أنَّ له ظئراً من .الكلاب، وخالا من الذئاب

.يا نُطفَ الخمَّارين، ونزائع الظُّؤورة، وأشباه الخُؤولة :وشبيهُ ذلك قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس

أيُّها الأمير، إنَّ آلَ فلانٍ أعلاجُ خلق الله :وعلىَ شبيهٍ بذلك قال سلم بن قُتَيبة لبعض من ذكره، وهو عند سليمان بن عليٍّ .وأوباشُه، لئامٌ غُدر، شرَّابون بأنْقُع، ثمَّ هذا بعدُ في نفسه، نُطفَةُ خَمَّار في رَحِم صَنَّاجة

زواج الأجناس المتباينة من الناس

قال لي أبو العباس وأبو العباس هذا كانَ ختنَ إبراهيمَ على أخته، وكانَ رجلاً يَدِين بالنجوم، ولا يقرُّ :وقال لي أبو إسحاق :، قُلتُ?أتعرفُ موضع الحُظْوة من خَلْوة النساء :وقال لي مرَّة :بشيءٍ من الحوادث إلاّ بما يجري على الطباع، قال أبو إسحاق :بل اعلم أن لا يكونُ الحظُّ إلاّ في نِتاج شِكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدِّي إلى الخلاص :لا والله لا أعرفُه، قال وهو أن تُزاوج بين هِنديَّةٍ وخُراسانيٍّ، فإنها لا تلد إلاّ الذهبَ الإبريز، ولكن احرُس ولدَها، إن كان الولدُ أنثى فاحذَر عليها من

شدَّة لِواطِ رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلمْ أن شهوتَها للرجال على قدرِ حُظْوتها عندَهم، واعلمْ أنَّها ستساحق النساءَ على أعراق الخراسانيَّة، وتزْني بالرجال على أعراق الهند، واعلمْ أنّه ممّا يزيد في زناها ومساحَقَتها معرفتُها بالحُظوة عند الزُّناة، وبالحظِّ عند السحاقات.

مما زعموا في الخلق المركب

وقالوا في الخلق المركَّب ضُروباً من الحقّ والباطل، ومن الصدق والكذب، فمن الباطِل زعُمهم أنَّ الشَّبُّوط ولد الزَّجْر من البُنِّيِّ، وأنَّ الشَّبُّوط لا يُخْلَق من الشَّبُّوط، وأنَّه كالبغل في تركيبه وإنسالِه، ورووا ذلك عن أبي واثلِة إياس بن معاوية بن قرّة. وزعموا أنّ أمَّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصَرت في حوضٍ لها ضخمٍ أو بركةٍ كبيرةٍ عدداً كثيراً من الزجر والبُنِّيِّ، وأنَّها لم تخلِطْ بهما غيرَهما، فمات أكثره وبقيتْ بقيةٌ كانت الصميمَ في القوَّة، وفي احتمال تغيُّر المكان فلم تحمل البيضَ حِيناً، ثمَّ إنّها حملت بالشبابيط.

مطر الضفادع والشبابيط

وزعم حُريثٌ أنّه كان بأيْذج، فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمسُّ الأرض، وتكاد تمسُّ قِممَ رُؤُوسهم، وأنَّهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق، وكَهدير الفحول في الأشوال، ثم إنَّها دفَعَت بأشدِّ مطر رُئي أو سُمِع به، حتى استسلموا للغرق، ثمَّ اندفعتْ بالضفادع العظام، ثم اندفعت بالشبابيط السِّمان الخِدال فطبخوا واشتَوَوا، وملَّحوا وادَّخَروا.

غرور أبي واثلة والخليل بن أحمد

ورووا عن أبي واثلة أنَّه زعمَ أنَّ من الدليل على أنَّ الشَّبُّوط كالبغل، أنَّ الناسَ لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيطَ في جوفِها بَيْضاً قطُّ، فإن كان هذا الخبرُ عن هذا الرجُلِ المَذكُور بشدَّة العقل، المنعوتِ بثُقُوب الفِراسة ودِقَّةِ الفطنة صحيحاً، فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلَقَ الخبَرَ أن يكون صحيحاً، وذلك أنِّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسامِ الأجناس، يدلُّ على أنَّ الرجلَ حينَ أحسَنَ في أشياءَ وهَّمه العُجْبُ بنفسِه أنَّه لا يَروم شيئاً فيمتنعُ عليه.

وغرَّه مِن نفسِه الذي غرّ الخليل بنَ أحمدَ، حينَ أحسَنَ في النحوِ والعَرُوض، فظنَّ أنَّه يُحسِن الكلامَ وتأليف اللُّحون، فكتبَ فيهما كتابَين لا يُشير بهما ولا يُدلُّ عليهما إلاّ المِرَّةُ المحترقة، ولا يؤدِّي إلى مثل ذلك إلاّ خِذلانٌ من الله تعالى، فإنّ الله عزَّ وجلَّ لا يُعجزه شيء.

بيض الشبوط وتناسله

والشَّبُّوط حفظك اللّه تعالى جِنسٌ كثيرُ الذكور قليلُ الإناث، فلا يكون إناثه أيضاً يجمعْن البيض، وإذا جمعنَ فلو جمعتَ بيضَ عشرٍ منهنَّ لَمَا كان كشَطْر بيض بُنَيَّةٍ واحدةٍ، وقد رأيتُ بَيْضَ الشَّبُّوط وذقتُه للتعرُّف فوجدته غيرَ طائل، ولا مُعجِبٍ، وكلُّ صيّادٍ تسأله فهو يُنْبيك أنّ له بيضاً، ولكنَّه إذا كانَ يكونُ ضئيلاً قليلاً، لأنَّ الشبابيط في أصلِ العدد من أقلِّ السمك، وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مِذكاراً.

مواطن الشبوط على أنَّه رُبّ نهرٍ يكونُ أكثرُ سَمكه الشَّبُّوط، وذلك قليل، كنهر رَامَهُرْمز، والشَّبُّوط لا يتربَّى في البحار، ولا يسكن إلاّ في الأوديةِ والأنهار، ويكره الماءَ الملحَ ويطلبُ الأعذبَ فالأعذب، ويكون في الماء الجاري، ولا يكون في الساكن، وسنذكر شأنَه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

رد على ما زعموا في الزرافة

ولم يصب أبو واثلة، وكذبوا على أمِّ جعفر، فإذا قالوا في الزَّرافةِ ما قالوا فلا تأمَنْهم على ما هو دونَه، وإن كان مَن كذَب على الموتى واستشهد الغُيَّبَ أحذقَ، فصاحبُ الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة، وصاحب الشَّبُّوط يكذِب على الأحياء، ويستشهد الحضور، وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق، فالجاموس بالفارسية كاوماش، وتأويله ضأنيّ بقريّ، لأنهم وجدوا فيه مشابهةَ الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أنّ الكِباشَ ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

وزعم الفرسُ أنّ الحيوان كلَّه الذي يلد حيواناً مثلَه مَّما يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن، والجواميسُ عندهم ضأن البقر،والبُخْت عندهم ضأن الإبل، والبَراذين عندهم ضأن الخيل

زعم في الإبل

أنهم إنما كرهوا :فمنهم مَن يزعمُ أن فيها عِرقاً من سِفاد الجنّ، وذهبوا إلى الحديث :والناس يقولون في الإبل أقاويلَ عجيبة :الصلاة في أعطان الإبل لأنها خُلِقَتْ من أعناق الشياطين فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته، وقال ابن ميّادة

ل مُحاربٌ جُنَّ جنُونُها

.إنّ الجنَّ عمِلته :قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال

حتى أنزع :حتَّى أنزعَ شيطانَه، كما قال :وهم يسمُّون الكِبر والخُنزُوانة والنَّعَرَة التي تضاف إلى أنف المتكبِّر شيطاناً، قال عمر

:شيطان الحَماطة، قال الشاعر :النَّعَرة التي في أنفه، ويسمُّون الحيَّة إذا كانت داهية منها شيطاناً، وهو قولهم

ـرميٍّ كـأنـه ي خِروع قفْر

:شبَّه الزِّمام بالحيَّة، وعلى مثل ذلك قال الشاعر

ـاح كـأنـهـا ـ من أسطع حشر

الحية الذكر، وكذلك الأيم، وقد نُهي عن الصلاةِ عند غيبوبة الشمس، وعند طلوع القرص إلى أن يتتامّ ذلك، وفي :والحباب

.إنّها تطلُع بين قرْنَي شيطان :الحديث

ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم

فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهِل تأويل الكتابِ والسُّنَّة، والشاهد والمثلِ، فإذا نظَر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو .من أهل هذا الشأن، هلك وأهلك

الإبل الوحشية

وزعم ناسٌ أنَّ من الإبل وحشيًّا وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسَّنانير والحمام وغير ذلك، فزعموا أنَّ تلك الإبلَ وربَّما خرجَ الجملُ منها :تسكنُ أرض وَبَار، لأنَّها غيرُ مسكونة، ولأنَّ الحيوانَ كلَّما اشتدَّت وحشيَّتهُ كان للخَلاء أطلب، قالوا .فالمَهْرِيَّةُ من ذلك النِّتاج :لبعض ما يعرض، فيضرب في أدنى هَجْمةٍ من الإبل الأهلية، قالوا

هذه الإبلُ الوحشيَّة هي الحُوش، وهي التي مِن بقايا إبل وَبَار، فلمَّا أهلكهم اللّه تعالى كما أهلك الأمم مثلَ عادٍ :وقال آخرون وثمودَ والعمالقة وطَسْمٍ وجَدِيسَ وجاسم، بقِيَتْ إبلُهم في أماكنهم التي لا يَطُورها إنْسيٌّ فإن سقَطَ إلى تلك الجِيزة بعض الخلعاء، أوْ بَعْضُ من أضلَّ الطريق حثَت الجنُّ في وجهه، فإنْ ألحَّ خَبَلته، فضربَتْ هذه الحوش في العُمَانيّة، فجاءَت هذه المَهْرِيَّة، وهذه .العسجديَّة التي تسمى الذهبيَّة

:وأنشدني سعدان المكفوف عن أبي العميثل قول الراجز

ولا عَـرَبْ ويس الذَّهبْ

:وقال الآخر

يق حَجْرَتاها والـلَّـطِـيمُ

.والعسجد من أسماء الذهب

ـاحبةُ يزيد بن الطَّثَريَّة حُوشِيَّة على هذا المعنى :قالوا

:وقال رؤبة

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط

وأما الذي زعم أنَّهم مُطِروا الشَّبوط، فإنه لما ظنّ أنَّ الضفادعَ التي تُصابُ بعَقِبِ المطر، بحيثُ لا ماءٌ ولا وحلٌ ولا عينٌ ولا ولم يشُكَّ أنَّها كانت في السحاب وعلم أنَّها تكون في الأنهار ومنابع -فإنهم ربَّما رأوها وسط الدَّوِّ والدَّهناء والصَّمَّان -شريعة المياه، وليس ذلك من الذكر والأنثى، قاسَ على ذلك الظنِّ السمك، ثم جسَرَ فجعلَ السمك شَبُّوطاً، وتلك الضفادعُ إنما هي شيءٌ يُخلق تلك الساعة، من طباع الماء والهواء والزمان وتلك التُّرْبة، على مقاديرَ ومقابلات، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق.

امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة

وقد تُعرف القرابةُ التي تكون في رأي العين بين الشكلين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافُدٌ ولا تلاقُح، كالضأن والمعز، وكالفأر والجُرْذان، فليس بالعجَب في البقر والجواميس أن تكون كذلك، وقد رأينا الخِلاسيَّ من الدجاج والدِّيَكة، وهو الذي تخلَّقَ وزعم لي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعَدة، دجاجة .من بين المولَّدات والهنديَّات، وهي تحمل اللحم والشحم ووُزنَ فيها سبعة عشرَ رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس

ورأينا الخِلاسيَّ من الناس، وهو الذي يتخلَّق بين الحبشيِّ والبيضاء، والعادةُ من هذا التركيب أنه يخرج أعظمَ من أبوَيه وأقوى من أصلَيه ومثمِرَيه، ورأينا البَيْسَريَّ من الناس، وهو الذي يُخلق من بين البيض والهند، لا يخرج ذلك النِّتاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوّتهما، ولكنه يجيءُ أحسنَ وأملح، وهم يسمُّونَ الماءَ إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا التركيب الذي حكَينا عن البيض والهنديات، ورأينا الخِلاسيَّ من الكلاب، وهو الذي يُخلق بين السَّلوقيِّ وكلب الراعي، ولا يكون ذلك من الزِّئني والقلطي، ومن كلاب الدُّور والحرَّاس، وسنقول في السِّمْع والعِسبار، وفي غيرهما من الخَلْق المركَّب إن شاء الله تعالى.

أوَّلها سَرْوحمير، ثم فَرغانة، ثم اليمامة، وإنّ في :أطول الناس أعماراً وذكروا أنَّهم وجدوا أطولَ أعمار الناس في ثلاثة مواضع الأعراب لأعماراً أطول، على أنَّ لهم في ذلك كِذْباً كثيراً، والهندُ تُربي عليهم في هذا المعنى، هكذا يقول علماء العرب.

أثر النبيذ في عمر الإنسان وكان عثمانُ ماش ويزال وجذعان، يذكرون أنّهم عدُّوا أربعينَ فتًى مِنْ فتيانِ قريش وثقيف أعذارَ عامٍ واحد فأحصَوْا عشرينَ من قريش، وعشرين من ثقيف، وتوخَّوا المتجاورين في المحلَّة والمتقاربين في الدُّور من الموفَّرين

على النبيذ، والمقصورين على التنادُم، وأنّهم أحصَوا مثلَ ذلك العدد وأشباهَ أولئك في السِّن ممَّن لا يذوق النبيذ ولا يعرفُ شراباً إلا المَاءَ، فذكَرُوا أنَّهُمْ وجدُوا بعدَ مرورِ دهرٍ عامَّة من كان يشرَبُ النبيذ حيّاً، ومن لا يشربه قد مات عامَّتُهم، وكانوا قد بلغوا في السنِّ، أما عثمان ويزال فكانا من المعمَّرين، وقد رأيتهما جميعاً ولم أسمع هذا منهما، وسنأتي على هذا البابِ في موضعه من ذكر المعمَّرين، ونميِّز الصدقَ فيه من الكذب، وما يجوز وما لا يجوز إن شاء اللّه تعالى

بعض ما يعرض للخصيان

.وما أكثر ما يعرض للخصيان البولُ في الفراش وغيرِ ذلك، ولا سيّما إذا بات أحدُهم ممتلئاً من النبيذ

.ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدَّة النَّهم

ويعرض لهمْ أيضاً إيثار المخْفِس وحبُّ الصِّرْفِ، وذلك أيضاً مّما يعرض للنساء، والإفراط في شهوتهنَّ وشدَّة الهمَّة لهنَّ والغيرة عليهنَّ، ويحتلمون، ويجنبُون ويغتسلون، ويرون الماءَ غَير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفُحَّال.

ويعرض للخصيِّ شدَّةُ الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثيرٍ أو جاهٍ عريض، حتَّى ربَّما كان عند مولاه بعضُ من عسى أن يتقدَّم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصيُّ كلِفاً بهم وبتعظيمهم، ومُغرَماً بخدمتهم، في الأدبِ والحسب، وفي بُعْدِ الهمَّة وكرم الشِّيمة، فيعمِد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطانُ والجاهُ والمالُ إلى متَّكأ هذا الأديب الكريم، والحسيبِ الشريف، فينزعه من تحت مِرْفَقِهِ، غيرَ محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه، ويضعُه له من غير أنْ يكونَ موضع المرافقَ بعيداً، أو كان ذلك ممَّا يفُوت بعضَ الفوت، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسَر وصاحبَ الجاهِ أبداً.

:أقوال في خصاء الخيل وقد حرَّم بعضهم خِصاءَ الخيل خاصَّة، وبعضُهُم زاد على ذلك حتَّى حَرَّم خِصاء البهائم، وقال بَعْضُهُمْ إذا كان الخِصاءُ إنَّمَا اجتلبه فاعله أوْ تَكَلَّفهُ صاحبُهُ على جهة التماس المنفعَة، أو على طريق التجارة، فذلك جائز، وسبيلُه سبيل المِيسَم، فَإنّ المِيسم نار، و ألمه يجوزُ كلَّ ألم وقد رأينا إبلَ الصدَقة موسُومة، ووسمَت العربُ الخيلَ وجميعَ أصنافِ النَّعم في الإسلام، على مِثْل صنيعِها في الجاهليَّة، وقد كانت القَصواءُ ناقة النبي صلى اللّه عليه وسلم موسومة، وكذلك العضْباءُ.

الخِصاء غيرُ شبيه بالميسم، لأنَّ في الخصاء من شدَّة الألم، ومن المُثلة، ومن قطْع النَّسْل، :أقوال في وسم الحيوان وقال آخرون ومن إدخال النقص على الأعضاء، والنقص لموادِّ القوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو بقطع الأليةِ أشبَه، والسِّمَةُ إنَّمَا هي لذْعة، والخصاءُ مجاوزٌ لكلِّ شديدة.

ولا بأسَ بقطع الأليةِ إذا مَنعت بِثِقلِهَا أو عِظمها الشاةَ من اللَّحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب، وقطعُ الأليةِ في :قال القوم

جواز العقول أشبهُ من الميسم، لأنَّ المِيسمَ ليس للبعير فيه حظٌّ، وإنَّما الحظُّ فيه لربِّ المال، وقطعُ الأليةِ من شكل الخِتان، ومن شكل البَطِّ والفصْد، ومن جنس الوَجُور والبيطرة، ومن جنس اللَّدُود والحِجامة، ومن جنس الكيِّ عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا بل لعمري إنَّ للإبل في السِّمات لأعظمَ المنافع، لأنهَّا قد تشْرَب بسماتها ولا تُذّاد عن :خِيف عليها الأكِلة وسم الإبل قال الأوَّلون .الحوض إكراماً لأربابها، وقد تضِلُّ فتُؤْوَى، وتُصاب في الهُوَاشات فتُردّ

فإنا لا نسألكم إلاّ عن سماتِ الخيل والبغال والحمير والغنم، وبعدُ فكيف نستجيز أنْ نَعمَّها بالإحراق بالنار، لأمَر عسى ألاَّ :قالوا .يحتاج إليه من ألفِ بعيرٍ واحد، ثم عسى ألاَّ يحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلاّ إلى شَرْبةٍ واحدة

إنَّمَا المياسم في النَّعَم السائمة كالرُّقوم في ثياب البَزَّاز، ومتى ارتفعت الرقومُ ومُنِعت المياسم، اختلطت الأموال، وإذا :وقال القوم .اختلطت أمكَنَ فيها الظلم، والمظلومُ باذلٌ نفسَه دونَ المعيشة والهَضِيمة

لا تعذِّبوا بعذاب اللّه تعالى، :ليس قطعُ الأليةِ كالمجثَّمة وكالشيء المصبور، وقد نُهينا عن إحراق الهوامِّ، وقيل لنا :وقالوا شيئاً لا يألم ولم -إن كان به تعلُّم الرماية -والميسمُ نار، وقطعُ الأالية من شكل قَطْع العروق، وصاحبُ المجثَّمة يقدِر أن يرميَ يُنْهَ عن تعذيبه، فَمَا يَردُّ الشيء المصبور من العذاب مَرَدّاً بوجه من الوجوه القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو ليس لك أن تُحدِث في جميع الحيوانِ حدثاً من نقْضٍ أو نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأة، ولا يمكنك :إيلامها وقال آخرون التعويض له، فإذا أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو اللّه عزَّ وجلَّ، حلَّ لك من ذلك ما .كان لا يحلّ، وليس لك في حُجَّة العقل أن تصنعَ بها إلاّ ما كان به مصلحةٌ، كعلاج الدَّبَر وكالبيطرة

لنا أن نصنعَ كلَّ ما كان يُصنَع على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وبعدَه، ممّا لم يكن مدفوعاً عندَ بعضهم، :وقال آخرون إلاّ أن يكون نَهْيُ ذلك البعضِ من جماعتهم، في طريق الخلافِ والردِّ والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل، فإنَّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلِّف يَعْرِفُ وجهَ الملام، والمذهب في ذلكَ معروف وإن كان خارجاً من ذلك الحدِّ، فقد علمنا أنَّه أبيح من طريق التعبُّد والمحنة، كما جعل اللّه تعالى لنا ما أحلَّ ذبحَه من البهائم، وكما جعَل لنا أن نقتُل القملَ والبراغيثَ والبعوض، وإن لم يكن منها إلاّ مقدارُ الأذى فقط، والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لمَّا أباح لنا خالقُ الشيء والقادر .على تعويضه قتلَه، كان قتلُه أسوغَ في العقل مع الأذى، مِنْ ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى

وليس كل مؤذٍ ولا كل ذي أذى حكم اللّه تعالى فيه بإباحة القتل، واللّه عزَّ وجلَّ، بمقادير الأمورِ وبحكم المختلف والمتَّفِق، :قال .والقليل من ذلك والكثير، أحكَمُ وأعلم

.وقد أمرَ اللّه تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالدُ وطاوع الولد

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظَّام، وأكثرُ المتكلّمين يعترضون عليه فيه.

منع خصاء الإنسان وإباحته

بعضُ الملحِدين من المعاندين، أو بَعْضُ الموحِّدين من الأغبياء المنقوصين، قد طعَن في مِلْكِ -يرحُمك الله تعالى- ولا يزال الخصيِّ وبيعِه وابتياعه، ويذكرون الخصيَّ الذي كان المقوقِس عظيمُ القِبط أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، مع فقد ملك عليه الصلاة والسلام خَصِياً بعد أن عرَفه وأحاط علمُهُ بأنَّه خصيٌّ، وأنتم: مارية القِبطيَّة أمِّ إبراهيم عليه السلام، قالوا تزعمون أنَّ الخِصاء حرام، وأنَّ من اشترى من الخاصي خَصِيًّا ثم زاد على قيمته وهو فحل، فقد أعان على الخصاء وحثَّ عليه، ورغَّب فيه، وأنَّه من أفحش الظلم وأشدِّ القسوة، وزعمتم أنَّ من فعَل ذلك فهو شريكُ الخاصي في الإثم، وأنَّ حاله كحال وكذلك من شهد القِمار وهِراشَ الكلاب، ونِطاحَ الكِباش وقتال الديوك، وأصحاب: المعروفين بالابتياع من اللصوص، وقلتم لأنَّ هذه المواضعَ لو لم تحضرها النَّظَّارةُ لما عمِلوا تلك الأعمال، ولو فَعلوها ما: المجارحات وحرب الفئتين الضالّتين، وقلتم بَلغوا مقدارَ الشَّطر، لغلَبة الرياءِ والسُّمعة على قلوب الناس، فكذلك الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شركاءُ متعاونون، وخُلطاءُ مترادفون، وإذا كان المبتاع يَزيد في السِّلْعة لهذه العلَّة، والبائع يزيد في السَّوْم لهذا السبب، وقد أقررتم بأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد قَبل له من المقوقس، كما قبل مارية، واستخدمه، وجرى عليه ملكُه وأمرُه، فافهمْ فهّمك الله تعالى ما أنا مجيبٌ به في هذه المسألة، والله الموفِّقُ، وعلى الله قَصْدُ السبيل.

قبلَ كلِّ شيء لا يخلو هذا الحديث الذي رويتموه من أن يكون مرضيَّ الإسناد،صحيحَ المخرج، أو يكونَ مسخوط الإسناد، :أقول فاسدَ المخرج، فإن كان مسخوطاً، فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضيّاً، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنَّه قبله منه بعد أنْ عِلم أنَّه خصيٌّ، وعلى أنَّ قبولَ الهديّة خلاف الابتياع، لأنَّ بائعَ الخصيِّ إنَّما يحرُم عليه التماسُ الزيادة، وكذلك المبتاع إنَّما يحرم عليه دفعُ الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فحلاً أجملَ منه وأشبَّ وأخدمَ منه لم يزدْه، والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سَومَه بالخصي، وقبول الهديَّة، وقبول الهبَة، وسبيلُ البيع والابتياع لا بأس به إذا كان على ما وصفنا، وإنَّما هديَّة الخِصيِّ كهديَّة الثوب والعِطر، والدابَّةِ والفاكهة، ولأنَّ الخصيَّ لا يحرم مِلكُه ولا استخدامُه، بل لا يحلُّ طرده ونفيُه، وعتقُه جائز، وجوازُ العِتق يوجب الملك، ولو باعه المالك على غير طلبِ الزيادة، أو لو تاب من الخِصاء أو استحلَّه مما أتى إليه، لَمَا حرم على الخاصي نفسِه استخدامه، والخصيُّ مالٌ وملك، واستخدامه حسَنٌ جميل، ولأنَّ خِصاءه إيّاه لا يَعتِقه عليه، ولا يُزيل عن ملكه إلا بمثل ما وَجَبَ به مِلكُه.

وأخرى: أنَّ في قَبول هديَّةِ ذلك المِلكِ، وتلَّقي كرامتِه بالإكرام تدبيراً وحكمة، فقد بطلت المسألة، والحمدُ لله كما هو أهله.

.أنَّ زنباعاً الجُذاميّ، خصى عبداً له، وأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أعتقَه عليه فيما بلغنا، واللّه أعلم :وقد رووا مع ذلك أيضاً

وربَّما سألوا عن الشيء وليس القولُ فيه يقَع في نسق القول في الخصيّ، وفي الخلْق المركَّب، ولكنْ إذ قد أجبْنا في مسألةٍ كلاميَّة

.من مسائل الطعْن في النبوَّة، فلا بأسَ أن نُضيف إليها أخرى، ولا سيَّما إذا لم تَطُلْ فتَزيدَ في طُول الكتاب

قد علمْنا أنَّ العربَ لم يَسِمُوا حروب أيّام الفِجار بالفجور وقريش خاصّة، إلاّ أنّ القتال في البلد :وقد لا يزال الطاعنُ يقول

الحرام، في الشهر الحرام كان عندهم فجوراً، وتلك حروبٌ قد شهدها النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله، وهو ابن أربَع عشرَ

أنَّ بني عامر بن :وجوابنا في ذلك .شَهدتُ الفِجَارَ فكنْتُ أنبُلُ على عمومتي :سنة، وابن أربعَ عشرة سنة يكونُ بالغاً، وقال

صعصعة، طالبوا أهلَ الحرَم من قريشٍ وكنانة، بجريرة البرَّاض بن قيس، في قتله عروة الرحَّال، وقد علموا أنَّهم يُطالِبون مَنْ

لم يجن ومن لم يعاونْ، وأنَّ البرَّاض بنَ قيس كان قبل ذلك خليعاً مطروداً، فأتوَهمَ إلى حَرَمهم يُلزمونهم ذنبَ غيرهم، فدافعوا

عن أنفسِهم، وعن أموالهم، وعن ذراريهم، والفاجر لا يكون المسْعِيَّ عليه، ولذلك أشهدَ اللّه تبارك وتعالى نبيَّه عليه الصلاة

والسلام ذلك الموقف، وبه نُصروا كما نُصرت العربُ على فارسَ يوم ذي قارٍ، به عليه الصلاة والسلام وبمخرجه، وهذان

.جوابان واضحان قريبان، واللّه الموفّق للصواب، وإليه المرجع والمآب

ذكر محاسن الخصي ومساويه

.ثم رجَعَ بنا القولُ إلى ذكر مَحاسِن الخصيّ ومساويه

الخصيُّ يَنْكِحُ ويتّخذ الجواري ويشتدُّ شغفه بالنساء، وشغفُهنَّ به، وهو وإن كان مجبوب العضو فإنَّه قد بقي له ما عسى أن يكون

فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنَّ، وقد يحتلم ويخرجُ منه عند الوطء ماءٌ، ولكنَّه قليلٌ متغيِّر الريح، رقيقٌ ضعيف، وهو يباشِر

بمشقة، ثم لا يمنعه من المعاودة الماءُ الذي يخرج منه إذْ كان قليل المقدار لا يخرجه من القوّة إلى الضعف، مثل الذي يعتري

من يخرج منه شيء يكون من إنسان، وهو أخثرُ، وأكثر، وأحدُّ ريحاً، وأصحُّ جوهراً، والخصيُّ يجتمع فيه أُمنيَّةُ المرأة، وذلك

أنَّها تبغض كلَّ سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، كما تَكرهُ كلَّ ثقيل الصدر، وخفيف العَجْز، والخصيُّ هو السريع الإفاقة، البطيء

الإراقة، المأمونُ الإلقاح، فتقيمُ المرأةُ معَه، وهي آمنة العار الأكبر، فهذا أشدُّ لتوفير لذّتها وشهوتها، وإذا ابتذلن الخِصيانَ،

وحَقَرن العبيد، وذهبت الهيبةُ من قلوبهنّ، وتعظيمُ البعول، والتصنُّع لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكلّفِ الخجل، ظهَر كلُّ شيء

في قوى طبائِعهنّ وشَهوَاتهنّ، فأمكنَهَا النَّخير والصِياح، وأن تكون مرَّةً من فوقُ، ومرَّةً من أسفل، وسمحت النفسُ بمكنونِها،

.وأظهرت أقصى ما عنِدها

وقد تجد في النساء مَنْ تؤثر النساءَ، وتجدُ فيهنَّ من تُؤثر الرجال، وتجد فيهنَّ مَنْ تؤثرُ الخِصيان، وتجد فيهنَّ من تجمعُ ولا

تفرِّق، وتعمُّ ولا تخصُّ، وكذلك شأنُ الرجال في الرجال، وفي النساء والخصيان فالمرأة تنازع إلى الخصيِّ لأنَّ أمرَه أستر

جاذبُ حرصٍ كما يُحْرَص على الممنوع، :وعاقبتهُ أسلم، وتحرص عليه لأنَّه ممنوعٌ منها، ولأنَّ ذلك حرام عليها، فلها جاذبان

:لو أُخِذْنا بالْجَزَع لصَبَرنا، قال الشاعر :قال يونس بن عُبَيد :وجاذبُ أمْنٍ كما يُرغَب في السلامة، وقال الأصمعيّ

بِّ أنْ منـعَـتْ الإنسان ما مُنِعا

والحرصُ على الممنوع بابٌ لا يَقْدِر على الاحتجاز منه، والاحتراس من خُدَعه، إلاَّ كلُّ مبرِّز في الفطنة ومتمهِّل في العزيمة، طويل
.صاحب السُّوءِ قِطعةٌ من النار :التجارب، فاضِل العقل على قُوَى الشهوات، وبئس الشيءُ القرينُ السوء، وقالوا
وبابٌ من هذا الشكل، فَبِكم أعظُم حاجةٍ إلى أن تعرفوه وتقِفُوا عندَه، وهو ما يصنع الخَبَرُ السابق إلى السمع، ولا سيَّما إذا صادفَ من السامع قلَّة تجربة، فإنْ قرَن بين قلَّة التجربةِ وقلَّةِ التحفُّظِ، دخل ذلك الخبر السابقُ إلى مستقرِّه دُخولاً سهلاً، وصادفَ موضعاً وطيئاً، وطبيعة قابلة، ونفساً ساكنة؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك، رسَخَ رسوخاً لا حيلة في إزالته، ومتى أُلقِيَ إلى الفِتيان شيءٌ من أمور الفَتيات، في وقت الغَرَارةِ، وعند غلبةِ الطبيعة، وشَبَابِ الشهوَةِ، وقلَّة التشاغُل؛ وكذلك متى أُلقِي إلى الفِتيان شيءٌ من أمورهنَّ وأُمُور لا يكون الغلامُ فتًى أبداً حتَّى :الغِلْمان، وهناك سُكْر الشَّباب، فكذلك تكون حالهم، وإنَّ الشُّطَّار ليخلُو أحدُهم بالغلام الغَرير فيقول له يصادِقَ فتًى وإلاّ فهو تِكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدّبه فتًى ولم يخرِّجه، فما الماءُ العذْبُ البارد، بأسرعَ في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغُلام أدنى هوًى في الفتوَّة، وأدنَى داعيةٍ إلى المنالة، وكذلك إذا خلَت العجوز المدربة بالجارية الحَدَثة كيف تخلبها،
:وأنشدنا

الـمةٌ افـِ اللعـبْ
لانت لهـا اِت الغَضَب

:وقال الشاعر فيما يشبهُ وقوعَ الْخَبَرِ السابق إلى القلب

شئْتَ من الهوى بـيبِ الأوَّل
ِض يألَفُه الفتَى لِ مَـنْـزِل

:وقال مجنون بني عامر

أنْ أعرِفَ الهوَى بًا فتـمـكَّـنَـا

أثر التكرار في خلق الإنسان

وبابٌ آخر ممَّا يدعو إلى الفساد، وهو طولُ وقوع البصر على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابلٍ، وأدنى حركةٍ عند مثله،

:قالت ?لم زَنيتِ بعبْدِك ولم تزني بحرٍّ، وما أغْرَاك به :وطولُ التداني، وكثرةُ الرؤيةِ هما أصلُ البلاء، كما قيل لابنة الخُسّ

.طُولُ السِّواد، وقُرْبُ الوِساد

ولو أنَّ أقبحَ الناس وجهاً، وأنتنَهم ريحاً، وأظهرَهم فقراً، وأسقطَهم نفساً، وأوضعَهم حسَباً، قال لامرأةٍ قد تمكَّنَ من كلامِها،

واللّهِ يا مولاتي وسيِّدتي، لقد أسهَرْتِ ليلي، وأرَّقْتِ عَيني، وشغلْتِنِي عن مُهِمِّ أمري، فما أعقِلُ أهلاً، ولا :ومكَّنته من سَمْعِها

مالاً، ولا ولداً؛ لنَقَض طِباعَها، ولفسَخ عَقْدَها، ولو كانتْ أبرعَ الخلْق جمالاً، وأكملَهم كمالاً، وأملحهم مِلحاً، فإنْ تهيَّأ مع ذلك مِن

هذا المتعشِّق، أنْ تدمَع عينهُ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها وَرَعُ أمِّ الدرداء، ومُعاذة العدويّة، ورابعة القيسيَّة، والشجَّاء

.الخارجيَّة

زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

اضربُوهنَّ بالعُرْي لأنَّ الثيابَ هي المدعاةُ إلى الخُروج في الأعراس، :وإنَّمَا قال عمر بن الخَطّاب رضي الله تعالى عنهُ والقيامِ في المَناحات، والظهورِ في الأعياد، ومتَى كثر خروجُها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل طبعها، ولو كان بعلُها أتمَّ حسناً، والذي رأتْ أنقصَ حسناً، لكان ما لا تملكه، أطرفَ ممَّا تملكه، ولكان ما لم تنله، ولم تَستكثر منهُ، أشدَّ لها اشتغالاً وأشد :لها اجتذاباً، ولذلك قال الشاعر

ثّـلادِ ولـم يقُـدْ ءٌ كاقتيادِ الطرائف

لأن يرى حرمتي ألفُ رجل على حالٍ تكشَف منها وهي لا تراهم، أحبُّ إليّ من أن ترى حُرْمتي رجلاً :وقال سعيد بن مسلم .واحداً غيرَ منكشف

لا يضرُّك حُسْنُ من لم تعرف؛ لأنَّك إذا أتبعتها بصَرك، وقد نقضت طبعك، فعلمْتَ أنَّك لا تصل إليها بنفسك ولا :وقال الأوَّل بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمنِّي، فإذا انقضى ما هو فيهِ مِنَ المنى، ورجعت نفسُه إلى .مكانها الأوَّل، لم يكن عليه من فقدها إلاّ مثلُ فقد ما رآه في النوم، أو مثَّلته له الأمانيّ

عقيل بن علفة وبناته

كلا، إنِّي أُجيعُهنَّ فلا يأشَرْنَ، :لو زوَّجْتَ بناتِك فإنَّ النساءَ لحمٌ على وَضَمٍ إذا لم يكنَّ غانيات قال :وقيل لعَقِيل بن عُلَّفة وأعْريهنَّ فلا يظهرْن فوافقت إحدى كلمتيه قولَ النبي صلى الله عليه وسلم ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب؛ لأن النبي وفِّروا أشعارهن فإنَّ ترك :استعينُوا عليهنّ بالعُرْي، وقد جاء في الحديث :الصَّوْمُ وجَاء، وقال عمر :صلى الله عليه وسلم قال .الشعر مَجْفَرة، وقد أتينا على هذا الباب في الموضع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأوَّلَ الفسادِ، وكيف ينبُت، وكيف يُحصَد

بعض ميول الخصيان

وقد رأيتُ غيرَ خَصيٍّ يتلوَّط، ويطلب الغلمان في المواضع، ويخلو بهم ويأخذهم على جهة الصداقة، ويحمل في ذلك الحديد، وقد كانَ في قطيعةِ الربيع خصيٌّ أثيرٌ عندَ مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكان يثِق به .ويقاتل دون السخول، ويتمشى مع الشطّار في مِلْكِ يمينِه، وفي حُرَمه من بنتٍ وزوجَةٍ وأختٍ، لا يخصُّ شيئاً دونَ شيء، فأشرَفَ ذاتَ يومٍ على مِرْبَدٍ له، وفي المِربد غنمٌ صفايا، وقد شدَّ يَدي شاةٍ وركبها من مؤخَّرها يكُومُها، فلمَّا أبصره بَرِقَ وَبَعِلَ وسُقِطَ في يديه، وهجم عليه أمرٌ لو يكون رآه من خصيٍّ لعدوٍّ لهُ لمَا فارقَ ذلك الهولُ أبداً قلبَه، فكيف وإنّما عايَن الذي عاين فيمَن كان يخلُفُه في نسائه مِن حُرَمه ومِلْكِ يمينه، فبينما الرجلُ وهو واجم حزين، وهو ينظر إليه وقد تحرَّق عليه غيظاً إذْ رَفَع الخصيُّ رأسَه، فلمَّا أثبَت مولاهُ مَرَّ مُسرعاً نحوَ

باب الدار ليركَبَ رأسَه، وكان المولى أقربَ إلى الباب منه، فسبقه إليه، وكان الموضعُ الذي رآه منه موضعاً لا يُصعَد إليه، فحدَثَ لشقائِهِ أمرٌ لم يجد مولاه معه بُدّاً من صُعودِه، فلبثَ الخصيُّ ساعةً ينتفِض من حُمَّى ركِبته ثم فاظ، ولم يُمس إلاّ وهو في القبر.

ولفرْط إرادتِهم النساء، وبالحسرة التي نالتهم، وبالأسف الذي دخلَهم، أبغَضُوا الفحولَ بأشدَّ مِنْ تباغُضِ الأعداءِ فيما بينهم، حتَّى ليس بين الحاسدِ الباغي وبينَ أصحابِ النِّعَم المتظاهرة، ولا بين المَاشي المعنَّى وبين راكب الهمْلاج الفارِه، ولا بين ملوكٍ صاروا سُوقةً، وبينَ سُوقَةٍ صاروا ملوكاً، ولا بينَ بني الأعمام مع وقوع التنافس، أو وقوع الحربِ، ولا بين الجيران والمتشاكلين في الصناعات، من الشنف والبغضاء، بقدر ما يلتحف عليه الخِصيانُ للفحول.

وبُغضُ الخصيِّ للفَحل من شِكل بُغض الحاسِدِ لذِي النعمة، وليس مِنْ شكل ما يولّده التنافسُ وتُلحِقُه الجنايات.

نسك طوائف من الناس

فنسك الخصيِّ :ولرجال كلِّ فَنٍّ وضربٍ من الناس، ضربٌ من النسك، إذْ لا بدَّ لأحدِهم من النزوع، ومن تركِ طريقته الأولى غزْو الروم، لِمَا أنْ كانوا هم الذين خَصَوهم، ولُزُومُ أذْنة والرِّباطُ بطرَسُوسَ وأشباهِها، فظنَّ عند ذلك أهلُ الفِراسة أنَّ سببَ ذلك إنّما كان لأنَّ الرُّوم لِما كانوا هم الذين خَصَوهم، كانوا مغتاظين عليهم، وكانت متطلّبةً إلى التشفّي منهم، فأخرج لهم حبُّ التشفّي ونسكُ البنوي أن يَدَع الديوان، ونسكُ :شدَّةَ الاعتزامِ على قتلهم، وعلى الإنفاق في كلِّ شيء يَبلُغ منهم، ونُسكُ الخراسانيِّ أن يُحجَّ :أن يُكثر التسبيحُ وهو يشربُ النبيذ، والصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم، والصلاة في جماعة، ونسك الرافضيِّ :المغنِّي التسرُّع إلى إكفار :إقامة السبت، ونسك المتكلّم :إظهارُ ترْك النبيذ، ونسك السَّواديِّ ترْكُ شرب المطبوخ فقط، ونسكُ اليهوديِّ منها أنَّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه :أهل المعاصي، وأنْ يرمَي الناسَ بالجبْر، أو بالتعطيل، أو بالزندقة، يريد أن يوهم أموراً لو كان نَطِفاً، أو مرتاباً، أو مجتنحاً على بليَّة، لما رمى الناسَ، ولرضي منهم بالسلامة، :للدِّين، والإغراق فيه، ومنها أن يقال وما كان ليرميَهم إلاّ للعزِّ الذي في قلبه، ولو كان هناك من دُلِّ الرِّيبة شيء لقطعَه ذلك عن التعرُّض لهم، أو التنبيه على ما عسى إنْ حرَّكهم له أنْ يتحرَّكوا، ولم نجدْ في المتكلّمين أنْطفَ ولا أكثرَ عيوباً، ممَّن يرمي خصومَه بالكفر.

الجماز وجارية آل جعفر وكان أبو عبد الله الجمَّاز، وهو محمد بن عمرو، يتعشَّق جاريةً لآل جعفر يقال لها طُعْيان، وكان لهم خصِيٌّ يحفظُها إذا أرادتْ بيوتَ المغنِّين، وكان الخصيُّ أشدَّ عشقاً لها من الجمَّاز، وكان قد حال بينَه وبينَ كلامِها، والدنوِّ منها، فقال الجماز وكان اسم الخادم سناناً:

ٌ
:وقال فيه أيضاً وفيها

يٌ

:وقال أيضاً فيهما

ُ ي

:ما قيل من الشعر في الخصاء وقال الباخَرزيّ يذكرُ محاسِنَ خِصال الخِصيان

مُقيم الأسفارُ

:وقال حميد بن ثور يهجو امرأته

صي حمارها اً إليها الجلامدُ

:وقال مزرِّد بن ضِرار

العَير لم تَحْلَ عَاجةً وحُ علـى وَشْمِ

:وقال عمرو الخارَكى

رد رصا
قْ أخْصى

:وقال آخر

بأفعَى هْدِ البَلاءِ
ن رفيقٍ بَ النساء
حين نلقى ي الخَلاَءِ
رفيقي لِ بالخصاء

:وقال بعض عبد القيس

واهِصَةَ الخُصى بني الجـارودِ
ر أن زَوِّجتَهـا ةٌ بـجُدُود
خطبتَ إلـيهـم بالمـغـمـود

?كيف تجِدك :كان عندنا رجلٌ أحدبُ فسقَط في بئرٍ فذهبت حَدَبته وصار آدَر فقيل له :حدَّثني أبو الخطاب قال :وقال أبو عبيدة

.الذي جاءَ شرٌّ من الَّذِي ذهب :فقال

خرج معاويةُ ذاتَ يومٍ يمشي ومَعه خَصِيٌّ له، إذ دخلَ على ميسونَ ابنة بحدل وهي أمُّ يزيد، :وأبو الحسن عن بعض رجاله قال

.أتُرَى أنَّ المثلة به تُحِلُّ ما حرَّم اللّه تعالى :قالت ?أتستترين منه، وإنَّما هو مثلُ المرأة :فاستترت منه فقال

قرأت كتابَ عمر رضي اللّه تعالى عنه إلى سعد، يَنْهَى عن :ذكر ما جاء في خصاءِ الدوابّ ذكر آدمُ بن سليمان عن الشعبيّ قال

.حذْف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يُجْرِيَ من رأس المائتين، وهو أربعة فراسخ

هل الإنماء إلاّ في :وسُفيان الثَّوري عن عاصم بن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنه كان ينهى عن خِصَاء البهائم ويقول الذكور.

أخبرني إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم النَّخَعي أنّ عمرَ رضي اللّه تعالى عنه نَهَى عن خصاءِ :وشَريك بن عبد اللّه، قال الخيل.

لا تُجرِيَنَّ فرساً إلاّ من :كتب عمرُ بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لبعض عماله :وسفيان الثوري عن إبراهيم بن المهاجر قال المائتين، ولا تخْصِينَّ فرساً.

كان عبد اللّه بن عمر يكرَه خِصاءَ الذكور من الإبل، والبقر، والغنم :وسمعتُ نافعاً يقول :وقال.

لا تقطعوا نامية خَلْقِ اللّهِ تعالى :أنَّ ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول :وعبيد اللّه بن عمر عن نافع نهى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن أن تُخصَى ذكورُ الخيل، والإبل، والبقر، :وعبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلاّ بالذكور :والغنم، يقول.

أخبرني عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عُتبة بن مسعود، أنَّ :قال ?هل بخِصاء البهائم بأس :سألت الزُّهريَّ :ومحمد بن أبي ذئب قال والخِصاءُ صبرٌ شديد :رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهِرين، نهى عن صَبْرِ الروح، قَالَ الزُّهريُّ.

هو :قال "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّه" :حدَّثنا الرَّبيعُ بن أنس، عن أنس بن مالك في قوله تعالى :وأبو جعفَر الرَّازيّ قال الخِصاء.

وأبو جرير عن قتادة عن عِكرمة عن ابن عبَّاس نحوه.

لعن اللّه من خَصَى الرجال ?تسألني عَن هذا :سألتُ الحسنَ عن خِصاء الدواب فقال :أبو بكر الهذليّ قال.

أخطأ :وقال سعيد بن جبير :خصاء الدواب، قال :قال "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللّهِ" :أبو بكر الهذليُّ عن عِكرمة في قوله تعالى عكرمة، هو دين اللّه.

كذَبَ :خصاء البهائم، فبلغ مجاهداً فقال :قال "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" :حدَّثنا قَتادة عن عِكرمة في قوله تعالى :نَصر بن طريف قال كذبت، والناسُ لا :فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له .هو دين اللّه يضعون هذه الكلمة في موضِع خطأ الرأي ممَّن يُظَنُّ به الاجتهاد، وكان ممَّن له أن يقول، ولو أنَّ إنساناً سمِع قولَ اللّه تبارك إنَّما يعني الخِصاء، لم يقبل ذلك منه؛ لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شيء، وإذا :قال "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" :وتعالى كان اللفظُ عامّاً لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شيءٍ بعينه إلاّ أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك مع تلاوةِ الآية، أو

يكونَ جبريلُ عليهِ السلام قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي، ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد؛ وإنَّما الدلالةُ في بِنيةِ الكلام نفسِه، فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبين اللّه تعالى عملٌ آخر كالذي .يكون من الناس، تعالى اللّهُ عن قول المشبِّهة علوّاً كبيراً

.هو الخصاء :قالَ "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" :أبو جرير عن عمار بن أبي عمار أنَّ ابنَ عباسٍ قالَ في قوله تعالى

.وأبو جرير عن قتادة عن عِكرمة عن ابن عبَّاسٍ مثله

كان أحبَّ الخيلِ إلى سَلَفِ المسلمين، في :أبو داود النَّخَعِيّ، عن محمَّدِ بن سعيدٍ عن عبادة بن نسيّ، عن إبراهيم بن محيريز قال .عهد عمر، وعثمان، ومعاوية، رضي اللّه تعالى عنهم، الخِصْيان؛ فإنَّها أخفى للكَمين والطلائع، وأبقى على الجَهْدِ

.أخبرني ابن جُريج عن عطاء أنَّه لم يَرَ بأساً بخصاء الدواب :أبو جرير قال

.لو تُركت الفحولةُ لأكل بعضُها بعضاً :وأبو جرير عن أيُّوبَ عن ابن سيرين، أنَّه لم يكن يرى بأساً بالخصاء، ويقول

.أنّه لم يكن يرى بأساً بخصاءِ الدواب :وعمر ويونس عن الحسن

.أنّه خَصى بعيراً :سفيان بن عُيينة عن ابن طاوس عن أبيه

.إذا خفت عِضاضه :وسفيان بن عيينة عن مالك بن مِغوَل عن عطاء، أنه سئل عن خصاء البغل فقال

أقوال في النتاج المركب

ولنَصِلْ هذا الكلام بالكلام الذي قبل هذا في الخلق المَركب وفي تلاقح الأجناس المختلفة، زعموا أن العِسبارَ ولد الضبع من :الذئب، وجمعه عسابر، وقال الكميت

و | عَسابِرْ
.يرميهم بأنَّهم أخلاطٌ وَمُعَلْهَجُونَ

السمع ولد الذئب من الضبع وزعموا أنّ السِّمع ولد الذئب من الضبع، ويزعمون أنّ السِّمع كالحيَّةِ لا تعرف العِلل، ولا تموتُ .حَتْفَ أنفِها، ولا تموت إلاّ بِعَرَض يَعْرِض لها، ويَزْعمون أنّه لا يَعدو شيءٌ كعدو السِّمع، وأنّه أسرعُ مِنَ الريح والطَّير

:وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه

ِارْمِ اللّيلَ في عرضِ | ِ ليْلـهُ خَبَبَـا
البَيْطَار سِرّتـه | يِز لـه عَصَبَـا

:وقالَ ابن كُناسة يصف فرساً

يَضْرِبُها الطّ | لى عِسبار

:وقال سؤر الذئب

رَ شيئاً شْبارُ

إذا اشتدَّ هربُ المطلوبِ الهاربِ من الطالب الجادّ، فهو أحث للطالب، وإذا صار كذلك صار المطلوبُ حينئذٍ في معنى :يقول

.من يحثٌّ الطلب، إذ صار إفراط سرعَتِه سبباً لإفراطِ طلبِ العُقاب

:وقال تأبط شرّاً، أو أبو محرز خلف بن حيَّان الأحمر

ى رِقلٌ أزَلٌّ

:وإنَّما قال أزَلّ وجعَلَه عادياً ووصفهُ بذلك، لأنَّه ابن الذئب، وقال الأصمعي

عِسبارَه

:وقال في موضع آخر

ستعارَه

:وقال آخر

لأزَلَّ الأطلَسَا

:وزعموا أنَّ ولدَ الذئب من الكلبة الدَّيْسَم، ورووا لبشَّارِ بن بُرْد في دَيْسَمٍ العَنزيّ أنّه قال

بِ مِنْ نسلِ زارعِ ادراً غَيْرَ مُقْصِرِ

.اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارع :وزارع

زعم لأرسطو في النتاج المركب وزعم صاحب المنطق أنّ أصنافاً أُخَرَ من السباع المتزاوِجات المتلاقِحات مع اختلاف الجنس

وتتولَّد أيضاً كلابٌ سَلوقيةٌ من ثعالبَ وكلاب، :قال :والصورة، معروفة النتاج مثل الذئاب التي تسفَد الكلابَ في أرض رُومِيَة

وليس يكون ذلك من الولادة :وبين الحيوان الذي يسمَّى باليونانيَّة طاغريس وبين الكلب، تحدث هذه الكلابُ الهندية، قال :قال

.الأولى

.وزعموا أنَّ نِتاجَ الأولى يخرجُ صعباً وحشيّاً لا يلقَّن ولا يؤلَّف :عن بعض البصريين عن أصحابه قال :قال أبو عثمان

تلاقح السبع والكلبة وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهل الكوفة من بني تميم أنَّ الكلبة تعرض لهذا السبع حتَّى تلقح، ثم تعرَض

لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليلَ الصعوبة يقبلُ التلقين، وأنَّهم يأخذون إناثَ الكلاب، ويربطونها في تلك البراريّ،

فتجيءُ هذه السباعُ وتسفَدُها، وليس في الأرض أنثى يُجتَمَع على حبِّ سفادها، ولا ذكرٌ يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناس

.المختلفة، أكثرَ في ذلك من الكلب والكلبة

وإذا رَبَطوا هذه الكلابَ الإناثَ في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع هائجة سفِدَتها، وإن لم يكن السبع هائجاً فالكلبة :قال

:مأكولة، وقال أبو عدنان

في رَسْم دمنةٍ مَهَا والجآذرُ

هَيْق سَفَنَّجٌ ـة وحَضَاجِرُ
ثِلْبٌ ودَوْبَلٌ عَسابِرُ

وقد سمعنا ما قال صاحبُ المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن يخلّد على نفسه في الكتب شهاداتٍ لا يحقّقها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهُه من العلماء، وما عندَنا في معرفةِ ما ادَّعى إلاّ هذا القول.

وأمَّا الذين ذكروا في أشعارهم السِّمْع والعِسبار، فليس في ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادَّعى عليهم النّاسُ من هذا التركيب المختلف، فأدَّينا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة، إذ لم نجد عليها بُرهاناً.

ولاد السعلاة وللنَّاس في هذا الضَّرْب ضروبٌ من الدعوى، وعلماءُ السوء يُظهرون تجويزَها وتحقيقَها، كالذي يدَّعون من أولاد السَّعَالِي من الناس، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع، وكما يروي أبو زيدٍ النحويُّ عن السِّعلاة التي أقامت في بني تميم حتى وَلَدت فيهم، فلمَّا رأتْ برقاً يلمَعُ من شقِّ بلاد السَّعالِي، حنَّت وطارت إليهم، فقال شاعرهم:

مَ فَوْقَ بَكْرٍ ما أغاما

وأنشدني أن الجنَّ طرقوا بعضَهم فقال:

مَنُونَ أنـتـمْ عِموا ظَلامَا
فقال منهـم نَ الطّعامـا

ولم أعِب الرواية، وإنَّما عبتُ الإيمانَ بها، والتوكيدَ لمعانيها، فما أكثرَ من يَروي هذا الضربَ على التعجُّبِ منه، وعلى أن يجعَلَ الرواية له سبباً لتعريفِ النَّاس حقَّ ذلك من باطِلِه، وأبو زيدٍ وأشباهُه مأمونون على النَّاس؛ إلاَّ أنَّ كلَّ من لم يكن متكلّماً حاذقاً، وكان عند العلماء قدوةً وإماماً، فما أقرَبَ إفسادَه لهم من إفسادِ المتعمِّد لإفسادهم وأنشدوا في تثبيتِ أولاد السعلاة:

وان ووَتِـدْ مَـا أجِـد
ـان أو أحُـدْ جِروِ الأسَدْ
مأسوراً بقِدّ

وقال آخر:

لسِّعلاةِ عمراً وقابوساً شِرَارَ النات

ما زعموا في جرهم وذكروا أنَّ جُرهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان الملَكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه في السماء أهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل، وفي طبيعته، كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأن الزُّهَرة، وهي أناهيد ما كان، فلَّما عصى اللّهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه إلى الأرض في صورةِ رجل، تزوَّج أمَّ جُرهمٍ فولدتْ له جُرهماً، ولذلك قال شاعرهم:

عِبادُكا مُ تِلادُكا

ما زعموا في بلقيس وذي القرنين ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بلقِيسُ ملكةُ سَبأ، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمُّه فيرى آدميَّة وأبوه عبرى من الملائكة، ولذلك لما سمِع عمرُ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه رجلاً ينادي: يا ذا

.?أفرَغْتُمْ من أسماءِ الأنبياء فارتفعتم إلى أسماءِ الملائكة :القرنين، فقال

.ذلك المَلَكُ الأمرط :وروى المختارُ بن أبي عبيد أنَّ عليّاً كان إذا ذَكَر ذا القرنين قال

وَشَارِكْهُمْ فِي الأمْوَالِ " :ما زعموا من تلاقح الجن والإنس وزعموا أنَّ التناكح والتلاقُح قد يقع بين الجنِّ والإنس، لقوله تعالى

، وذلك أن الجِنِّيَّاتِ إنَّما تعرض لصَرْعِ رجالِ الإنس على جهة التعشُّق وطلبِ السِّفاد، وكذلك رجال الجنِّ لنساء بني "وَالأوْلاَدِ

.آدم، ولولا ذلك لعرض الرِّجالُ للرِّجال، والنساءُ للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء

"الَّذِينَ يَأْكُلُون الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ" :ومن زعَم أن الصَّرْعَ من المِرَّة، ردَّ قوله تعالى

، فلو كان الجانُّ لا يفتضُّ الآدَمِيَّاتِ، ولم يكنْ ذلك قطُّ، وليس ذلك في تركيبه، لما "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ" :وقال تعالى

.قال الله تعالى هذا القول

ما زعموا في النسناس وغيره وزعموا أنّ النَّسْنَاسَ تركيبُ ما بين الشِّق والإنسان، ويزعمون أنَّ خلقاً من وراء السدِّ تركيبٌ من

النَّسْنَاس، والناس، والشقِّ، ويأجوج ومَأجوج، وذكروا عن الوَاق واق والدوَال باي أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النَّباتِ والحيوان،

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ " :وذكروا أنَّ أمَّةً كانت في الأرض، فأمرَ الله تعالى الملائكة فأجلوَهم؛ وإيَّاهم عَنَوا بقولهم

،فهذا "وَلاَ تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" :، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ لآدم وحواء"الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

.يدلُّ على أن ظالماً وظُلماً قد كان في الأرض

:في أرجوزة مشهورة، ذكرَ فيها طُولَ عمر الحَيَّة -أو خلفٌ -قال الأصمَعيُّ

و تَثَنَّـى وَهَنَّـا ... لطَ اليَرَنَّا اسْتَنَّـا

.وكان يقال لتلك الأمَّة مهنا :قال

قول المجوس في بدء الخلق وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنينة، وأنَّهما تولدا فيما بينَ أرحام الأرَضين، ونطفتين

ابتدرتا من عينَي ابن هُرمُز حين قتله هرمر، وحماقات أصحابِ الاثنَين كثيرةٌ فِي هذا الباب، ولولا أنّي أحببْتُ أن تسمَعَ نوعاً

.من الكلام، ومبلغَ الرأي، لتُحدِثَ لله تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرتُ كثيراً من هذا الجنس

عبد الله بن هلال صديق إبليس وختنه وزعم ابن هيثم أنَّه رأى بالكوفة فتًى من ولد عبد الله بن هلال الحميري، صديق إبليس

وخَتَنِهِ، وأنَّهم كانوا لا يشكُّون أنَّ إبليسَ جَدُّه من قِبَل أمَّهاتِه، وسنقولُ في ذلك بالذي يجبُ إن شاء الله تعالى، وصِلَة هذا الكلام

.تجيءُ بعد هذا إن شاء الله تعالى

حوار في الكلب والديك

ولو تمَّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما ألف الإنسانَ، واستوحش من السبع، وكرِه الغياض، وألِف الدُّور، واستوحَشَ من :وقلت البراري وجانب القفار، وألِفَ المجالسَ والدِّيار، ولو تمَّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء، لما أكل الحيوانَ، وكَلِب على النَّاس، نعمْ حتَّى رُبَّما كلِب وَوَثَبَ على صاحبِه وكلِبَ على أهله، وقد ذكر ذلك طرفةُ فقال:

آونةً ... بالبُؤس
تَرَبَّبه ... الغَلَس
رْفِرُه ... يَنْتهس

وقال حاجب بن دينار المازِنيُّ في مثل ذلك:

أعنتمْ عليكُم ... سَلِم الحَبْلُ
سمَنَ الكَلْبَ رابَهُ ... حينَ فَارَقَه الجهلُ

وقال عوف بن الأحوص:

سمِّن كَلْبَه ... لافِرُه

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم:

يأكُلَ بعضَهمْ ... مَا سُمِّنَ الكَلْبُ

وفي المثل: سمِّن كَلْبَكَ يَأْكُلْك.

وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجَّاج بن يوسف، وكان يحضُر طعامَه، فكتب إلى أهله يخبرُهم بما هو فيه من الخِصْب، وأنه قد سَمِن فكتبت إليه امرأته:

اسَ والخبْزُ حاجَتِي ... لأميرِ بَطِينُ
صَدِيقاً وإن تقمْ ... يَدَيك ضَنِينُ
ءِ في جُوعِ أهلِه ... وهو سَمِينُ

سمن كلب في جوعِ أهلِه، وذلك أنه عند السُّواف يصيب المال، والإخداجِ يعرض للنُّوق، يأكُلُ الجِيفَ فيسمَن، :وفي المثل وعلى أنه حارسٌ مُحتَرَسٌ منه، ومؤنسٌ شديد الإيحاش من نفسه، وأليفٌ كثير الخيانةِ على إلفِه، وإنما اقتنوه على أنْ ينذِرَهم بموضع السارق، وتركوا طَرده لينبهَهُم على مكان المبيِّت، وهو أسرقُ من كل سارق، وأدومُ جنايةً من ذلك المبيِّت، ويدلُّ على أنَّه سروقٌ عندَهم، قولُ الشاعر:

بٌ فبيَّت جُلَّةً ... لَيْلَى تُطلقُ

فهو سَرَّاق، وصاحب بَيات، وهو نَبَّاشٌ، وآكلُ لحومِ النَّاس، ألا إنَّه يجمعُ سِرقة الليل مع سرقة النّهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خِزانةٍ، أو مطبَخ، أو عَرْصةِ دار، أو في طريقٍ، أو في بَراريَّ، أو في ظهر جَبل، أو في بَطْن وادٍ، إلاَّ وخطمُه في الأرض يتشمَّم ويستروح، وإنْ كانت الأرضُ بيضاءَ حَصَّاءَ ودَوِّيَّةً ملساءَ، أو صخرةً خلقاء؛ حرصاً وجشعاً، وشرهاً وطمعاً، نعم حتَّى لا تجده أيضاً يرى كلباً إلاَّ اشتمَّ استَه، ولا يتشمَّم غيرهَا مِنهُ، ولا تراه يُرمَى بحجر أيضاً أبداً إلاَّ رجَع إليه فعضَّ عليه؛ لأنَّه لمَّا كان لا يكاد يأكلُ إلاَّ شيئاً رمَوا به إليه صار ينسَى لِفَرْط شرَهِه وغلبة الجشع على طبعه، أنَّ الراميَ إنَّما أراد عقره أو قتله،

فيظنّ لذلك أنَّه إنَّما أراد إطعامه والإحسانَ إليه، كذلك يخيِّل إليه فرْطُ النَّهم وتُوهِمُه غلبَةُ الشَّرَه، ولكنَّه رَمى بنفسِه على الناس عجزاً ولؤماً، وفُسولةً ونقصاً، وخافَ السباعَ واستوحش من الصَّحارى.

إنَّ المحروم هو الكلب؛ "وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" :ولمَّا سمِعوا بعضَ المفسِّرين يقول في قوله تعالى اصنَعُوا المعروفَ ولو إلى الكلب عَطفُوا عليه واتَّخَذُوه في الدُّور، وعلى أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ من سِفْلتهم :وسمِعوا في المثل وأغبيائهم، ومن قلَّ تقزُّزُهُ وكثُر جهلُه، وردَّ الآثارَ إمَّا جهلاً وإمَّا معانَدة.

وأما الديك فمِن بهائم الطير وبغاثها، ومن كلولِها والعِيال على أربابها، وليس مِنْ أحرارها ولا مِنْ عِتاقِها وجوارحها، ولا ممَّا يطرب بصوته ويُشجِي بلحنه، كالقماريِّ والدَّباسيِّ والشَّفَانين والوراشِين والبلابل والفواخت، ولا ممَّا يُونِق بمنظره ويمتع الأبصار حسنُه، كالطواويس والتَّدارج، ولا مما يعجِب بهدايته ويُعقد الذمام بإلفه ونِزاعه، وشدةِ أُنسه وحنينه، وتُريده بإرادته لك، وتَعطِف عليهِ لحبِّهِ إياك، كالحمام، ولا هو أيضاً من ذوات الطيران منها، فهو طائرٌ لا يطير، وبهيمةٌ لا يَصيد، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمتِّع من هذه الجهة ويُراد لهذه اللّذة.

والخُفَّاش أمرَطُ، وهو جيِّدُ الطيران، والدِّيكُ كاسٍ وهو لا يطير، وأيُّ شيءٍ أعجبُ من ذي ريشٍ أرضيٍّ، ومن ذي جلدةٍ هوائيّ. وأجمعُ الخلق لخصال الخير الإنسان، وليس الزِّواجُ إلاّ في الإنسان وفي الطير، فلو كان الديك من غير الطير ثمَّ كان ممن لا يزاوج، لقد كان قد مُنِع هذه الفضيلة وعَدِم هذه المشاكَلة الغريبة، وحُرم هذا السَّببَ الكريم والشِّبْه المحمود، فكيف وهو لا يزاوج، وهو من الطيرِ الذي ليس الزواجُ والإلف وثباتُ العهْد، وطلبُ الذرء وحبُّ النَّسل، والرجوعُ إلى السكن والحنين إلى الوطن- إلاَّ له وللإنسان، وكلُّ شيء لا يزاوج فإنَّما دخله النقصُ وخسِر هذه الفضيلة من جهةٍ واحدة، وقد دخل الديكَ النقص مِنْ جهتين، ووصف أبو الأخزَر الحِمَّانيُّ الحِمارَ وعَيْر العانةِ خاصَّة، فإنَّه أمثلُ في باب المعرفة من الأهْليّ، فذكركيف يضرب في الأُتُن، ووصَفَ استبهامَه عن طلب الولد، وجهلَه بموْضِع الدَّرْء، وأنَّ الولدَ لم يجئ منه عن طلبٍ له، ولكن النُّطفة البريئة من الأسقام، إذا لاقت الأرحام البريئَة مِن الأسقام حَدَث النِّتاج على الخلقة، وعلى ما سوِّيت عليه البنية، وذكر أنّ نزوَه على الأتان، من شكل نَزْوه على العير، وإنَّما ذلك على قدْر ما يحضُره من الشَّبَق، ثمَّ لا يلتفِت إلى دُبرٍ من قُبُل، وإلى ما يَلْقَحُ من مثلِه ممَّا لا يُلْقَحُ فقال:

ولا بالعازل

هو لا يريد الولد ولا يعزل :يقول.

والأشياء التي تألفُ الناسَ ولا تريدُ سِواهم، ولا تحنُّ إلى غيرهم، كالعصفور والخُطّاف والكلب والسِّنَّور، والدِّيك لا يألفُ منزلَه

ولا رَبْعه ولا يُنازع إلى دجاجته ولا طَرُوقته، ولا يحنُّ إلى ولده، بل لم يَدرِ قطُّ أنّ له ولداً؛ ولو دَرَى لكان على دِرايتِهِ دليل، فإذ قد وجدناه لبيضِه وفراريجهِ الكائنةِ منه، كما نجدُه لما لم يلدْه ولِمَا ليسَ من شَكلهِ ولا يرجع إلى نسبه، فكيف تُعرَف الأمور إلاّ بهذا وشبهه، وهو مع ذلك أبلهُ لا يعرف أهلَ داره، ومبهوتٌ لا يُثْبتُ وَجهَ صَاحِبه، وهو لم يُخْلَق إلاّ عندَه وفي ظلّه، وفي طعامِه وشرابه، وتَحْتَ جناحه.

والكلبُ على ما فيه يعرف صاحبَهُ، وهو والسِّنَّور يعرفان أسماءهما، ويألَفان موضعَهما، وإن طُردا رَجعا، وإن أُجيعا صَبَرَا، وإن أُهِينا احتملا.

والديك يكون في الدار من لَدُنْ كانَ فَرُّوجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرَج من باب الدار، أو سقط على حائط من حيطان الجيران، أو على موضعٍ من المواضع، لم يعرفْ كيف الرُّجوعُ، وإن كان يُرَى منزلُه قريباً، وسهل المطلبِ يسيراً، ولا يَذكُر ولا يتذكّر، ولا يهتدي ولا يتصوَّر له كيف يكونُ الاهتداء، ولو حنَّ لَطلَبَ، ولو احتاج لالتمس، ولو كان هذا الخُبْرُ في طباعه لظَهَر، ولكنَّهَا طبيعةٌ بلهاءُ مستبهمة، طامحة وذاهلة، ثمَّ يسفَدُ الدَّجاجة ولا يعرفُها، هذا مع شدَّةِ حاجته إليهنَّ وحِرصهِ على السِّفاد، والحاجةُ تفتِقُ الحِيلَة، وتَدُلُّ على المعرفة، إلاَّ ما عليه الديك؛ فإنَّه مع حِرصهِ على السِّفاد، لا يعرفُ التي يسفَد، ولا يقصِدِ إلى ولدٍ، ولا يحضُن بيضاً ولا يعطِفُه رَحِمٌ، فهو من ها هنا أحمقُ من الحُبارَى وأعقُّ من الضبِّ، وقال عثمان بن عفَّان رضي اللّه تعالى عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولدَه حتى الحُبَارى، فضرَب بها المثلَ كما ترى في المُوق والغفْلة، وفي الجهل والبَلَه، وتقول العرب: أعَقُّ من الضَّبِّ؛ لأنَّه يأكلُ حُسُولَه.

أبَرُّ مِنْ هِرَّة، وأعقُّ مِنْ ضَبٍّ، فوَجَّهوا أكلَ الهرَّةِ أولادَها على شدَّة: أكل الهرة أولادها وكرُمَ عند العرَب حظُّ الهرَّة، لقولهم الحبِّ لها، ووجَّهوا أكْلَ الضبِّ لها على شدَّةِ البغْض لها، وليس ينجو مِنْهُ شيءٌ منها إلاّ بشغْلِه بأكْل إخْوته عنه، وليس يحرُسُها ممَّا يأكلُها إلاّ ليأكلَها، ولذلك قال العَمَلَّسُ بن عَقيل، لأبيه عَقيل بن عُلَّفَة:

اضَبِّ حتَّى ... ءلأ الوبيل
ا شهوداً ... من بَجيلِ

وقال أيضاً:

اضَبِّ حتَّى ... لَهُمْ عديد

وشبَّه السّيِّدُ بن محمَّد الحميريُّ، عائشة رضي اللّه تعالى عنها في نصْبِها الحربَ يوم الجملِ لقتال بنيها، بالهرَّةِ حين تأكلُ أولادَها، فقال:

نَ في هَوْدَجِ ... ةِ أجْنَادَها
هِرَّةٌ ... لادَهَا

.أحمَقُ مِنْ جَهيزَة، وهي عِرس الذئب؛ لأنَّها تدعُ ولدها وترضع ولد الضبع :رعاية الذئبة لولد الضبع وتقول العرب أيضاً

.وهذا معنى قول ابن جِذْل الطِّعَان :قال

أُخرَى وضَيَّعَتْ لك مَرْقَـعـا

:إنَّ الضبعَ إذا صِيدَت أو قُتلت، فإنَّ الذئب يأتي أولادَها باللحم، وأنشد الكُميت :رعاية الذئب لولد الضبع ويقولون

حِضْنِها أمُّ عامرٍ عَال أوسٌ عِيالها

:وأوس هو الذئب، وقال في ذلك

وَاله ، إبَالَه

ساً لهبالَه

:الإعطاء، وأويس هو الذئب، وقال في ذلك الهذليّ :الأوس

نك والأمْرُ أمَمْ سٌ في الغنمْ

:وقال أميَّةُ بن أبي الصَّلت

يُحْسِنُ أوسهم ٍ عامٍ جامد

أَشْرَدُ مِنْ نعامة قالوا ذلك لأنّها تدَعُ الحَضْن على بيضِها ساعة الحاجة إلى :أَحْمَقُ مِنْ نَعَامة كما يقولون :حمق النعامة ويقولون

الطُّعم، فإن هي في خروجها ذلك رأتْ بيضَ أخرى قد خرجت للطُّعم، حضَنَت بيضَها ونسِيت بيضَ نفسها، ولعلَّ تلك أن تُصادَ

:ولذلك قال ابن هَرْمة :فلا ترجعُ إلى بيضها بالعَرَاء حتَّى تهلِك، قالوا

الأكرَمِينَ اَ شَحَاحا

لعَرَاء رَى جناحا

وقد تحضُن الحمامُ على بيض الدَّجاج، وتحضُن الدَّجاجةُ بيضَ الطاوُس، فأمَّا أن يَدَعَ بَيضَه ويحضُنَ بيضَ الدَّجاجة، أو تَدَعَ

الدجاجةُ بيضَها وتحضُن بيضَ الطاوس فلا، فأمَّا فَرُّوجُ الدَّجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنَّهُ يكونُ أكيسَ، وأمَّا الطاوُس

.الذي يخرج من تحت الدَّجاجة فيكون أقلَّ حسناً وَأَبْغَضَ صوتاً

الفرخ والفروج وكلُّ بيضةٍ في الأرض فإنَّ اسمَ الذي فيها والذي يخرُج منها فرخ، إلاَّ بيضَ الدَّجاج فإنَّه يسمى فرُّوجاً، ولا

يسمَّى فرخاً، إلاَّ أن الشعراء يجعلون الفَرُّوج فَرخاً على التوسُّع في الكلام، ويجوِّزون في الشعر أشياءَ لا يجوِّزونها في غير

:الشعر، قال الشاعر

المَكَاكيِّ بالضُّحَى شيٍّ نَـواعِبُـه

راخ دَجاجةٍ نُوسُ غباغِبُـه

:وقال الشمَّاخ بن ضِرار

نَ عنِّـي ك الشِّتـاءُ

من صغير بـه الفَنـاءُ

نَ دِيكـاً الوَغَـاء

وأيُّ شيء بلَغَ من قدْر الكلبِ وفضيلة الديك، حتَّى يتفرّغ لذكر محاسِنهما ومساويهما، والموازنة بينهما والتنوية :فإنْ قلت بذكرهما، شيخان من عِليةِ المتكلّمين، ومن الجلة المتقدّمين، وعلى أنَّهما متى أبرما هذا الحكمَ وأفصحا بهذه القضيَّة، صار بهذا التدبير بهما حظٌّ وحكمة وفضيلة وديانة، وقلدَهما كلُّ مَن هو دونَهما، وسيعودُ ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذّبّان وبناتِ وَرْدانَ، وبين الخنافس والجِعْلان، وبين جميع أجناس الهمَج وأصناف الحشراتِ، والخشاش، حتَّى البعوض والفَراش والديدان والقِردان فإن جاز هذا في الرأي وتمَّ عليه العمل، صار هذا الضَّربُ من النظر عِوضاً من النَّظر في التوحيد، وصار هذا الشكلُ من التمييز خَلَفاً من التعديل والتجوير، وسقط القولُ في الوعد والوعيد، ونُسي القياسُ والحكم في الاسم، وبطَلَ الردُّ على أهلِ الملل، والموازنةُ بين جميع النِّحَل، والنظرُ في مراشد الناس ومصالحهم، وفي منافِعهم ومَرافقهم؛ لأنَّ قلوبَهم لا تتَّسع للجميع، وألسنَتهم لا تنطِلق بالكلِّ، وإنَّما الرأيُ أن تبدأ من الفتق بالأعظم، والأخوف فالأخوف.

وهذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرُّف وطريق من طرق المزاح، وسَبيلٌ من سُبُل المضاحك، ورجالُ :وقلتَ الجدِّ غير رجالِ الهزْل، وقد يحسُن بالشَّبَابِ ويقبُح مثلُه من الشيوخ، ولولا التحصيلُ والموازنَة، والإبقاء على الأدب، والدَّيانة بشدَّة المحاسبة، لما قالوا: لكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ زمانٍ رجالٌ، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطة، ولكلِّ طعامٍ أكلة.

تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها قد زعم أناسٌ أنَّ كلِّ إنسانٍ فيه آلةِ لمِرْفِقٍ من المرافق، وأداةٌ لمنفعةٍ من المنافع، ولا بدَّ لتلك الطبيعة من حركةٍ وإنْ أبطأت، ولا بدَّ لذلك الكامنِ من ظهور، فإنْ أمكنَهُ ذلك بعثَه، وإلاَّ سَرَى إليه كما يسري السمُّ في البدن، ونمَى كما يَنْمِي العرق، كما أنّ البُزور البرّيَّة، والحبَّة الوحشيَّة الكامنة في أرحام الأرَضين، لا بدَّ لها من حركةٍ عندَ زمان الحركة، ومن التفتُّق والانتشار في إبَّان الانتشار، وإذا صارت الأمطارُ لتلك الأرحامِ كالنُّطفة، وكان بعضُ الأرض كالأم الغاذية فلا بدَّ لكلِّ ثديٍ قوِيٍّ أن يُظهر قُوَّتَه، كما قال الأوّلُ:

يوماً من النَّفْثْ

ولا بدَّ من شَكوى إذا لم يكنْ صبرُ ولذلك صارَ طلبُ الحسابِ أخفَّ على بعضهم، وطلبُ الطّبِّ أحبَّ إلى بعضهم، وكذلك :وقال النِّزاع إلى الهندسة، وشغَفُ أهلِ النُّجوم بالنُّجوم، وكذلك أيضاً ربَّما تحرَّك له بعد الكَبرَة، وصَرف رغبتَه إليه بعد الكهولة، على قدر قوَّة العِرق في بدنه، وعلى قدْر الشَّواغل له وما يعترضُ عليه، فتجد واحداً يَلهج بطلب الغِناء واللحون، وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يَكْتَتِبَ مع الجُند، وآخر يختار أن يكون ورّاقاً، وآخر يختارُ طلبَ الملك، وتجِدُ حرصَهم على قدر العلل الباطِنة المحرِّكة لهم، ثمَّ لا تَدْري كيف عرضَ لهذا السّببُ دونَ الآخَر إلاَّ بجملة من القول، ولا تجدُ المختارَ لبعض هذه الصناعات على بعضٍ يعلَمْ لم اختارَ ذلك في جملةٍ ولا تفسير، إذْ كان لم يَجْر منه عَلَى عِرْق، ولا اختارَه على إرْث.

من سار على غير طبعه وليس العجبُ من رجلٍ في طباعه سببٌ يَصِل بينه وبينَ بعض الأمور ويحرِّكه في بعض الجهات، ولكنَّ العجبَ ممَّن يموت مغنِّياً وهو لا طبعَ له في معرفة الوزن، وليس له جرمٌ حسَن، فيكون إن فاته أن يكون معلِّماً ومغنِّيَ خاصَّة أنْ يكون مُطرباً ومُغَنِّيَ عامّة، وآخر قد ماتَ أن يُذكرَ بالجود، وأن يسخَّى على الطعام، وهو أبخلُ الخلق طبعاً، فتراه كلفاً باتِّخاذ الطيِّبات ومستَهتَراً بالتكثير منها، ثمّ هو أبداً مقْتَضِحٌ وأبداً منتقض الطباع، ظاهرُ الخطأ، سيِّئ الجزع عندَ مؤاكلةِ من كان هو الداعيَ له، والمرسِلَ إليه، والعارفِ مقْدارَ لقمِه ونهاية أكله، فإنْ زعمتم أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء إنَّما هو رهنٌ بأسبابه، وأسيرٌ في أيدي عِلله، عذرتم جميعَ اللئام وجميع المقصِّرين، وجميعَ الفاسقين والضالّين، وإن كان الأمر إلى التمكين دونَ التسخير،أفليس من أعجبِ العجبَ ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الدِّيَكة والكِلاب.

قَدْ عَرَفنا قولَك، وفهمْنا مذهبَك.

وما بلْغ من خَطَر الديك وقدر الكلب فإنَّ هذا ونحوَه كلامُ عبدٍ لم يفهم عن ربِّه، ولم يَعقِل عن سيِّده، إلاَّ بقدْر فهم :فأما قولُك العامَّةِ أو الطبقةِ التي تلي العامَّة، كأنَّكَ، فهَّمك اللّه تعالى، تظنُ أنَّ خَلْقَ الحيَّةِ والعقرَب، والتدبيرَ في خلق الفَراش والذباب، والحكمة في خلْق الذئاب والأسدِ وكلِّ مبغَّضٍ إليك أو محقَّر عندك، أو مسخَّرٍ لك أو واثبٍ عليك، أنَّ التدبير فيه مختلِفٌ أو ناقص، وأنَّ الحكمة فيه صغيرةٌ أو ممزوجة.

مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر اعلم أنَّ المصلحة في أمرِ ابتداء الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتها امتزاجُ الخير بالشرِّ، والضارِّ بالنافع، والمكروهِ بالسارِّ، والضَّعَةِ بالرِّفعة، والكَثرة بالقِلَّة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلَكَ الخلقُ، أو كان الخيرُ مَحضاً سقَطت المِحْنة وتقطَّعَتْ أسبابُ الفِكرة، ومع عَدَم الفِكرةِ يكون عَدَمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالِمِ تثبُّتٌ وتوقُّف وتعلُّم، ولم يكن علم، ولا يُعرف بابُ التبيُّن، ولا دفعُ مضرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة، ولا صَبْر على مكروهٍ ولا شكْرٌ على محبوب، ولا تفاضُلٌ في بيانٍ، ولا تَنَافس في درجةٍ، وبطلت فَرحةُ الظَّفَر وعزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبْطِلٌ يجد ذِلَّة الباطل، وموقنٌ يجد بَرْدَ اليقين، وشاكٌّ يجد نقصَ الحَيرةِ وكَرْبَ الوُجوم؛ ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تتشعَّبْهَا الأطماع، ومَن لم يعرف كيف الطَّمعُ لم يعرفِ اليأس، ومن جَهل اليأسَ جهلَ الأمن، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياءُ والأولياءُ، إلى حال السبُع والبهيمة، وإلى حال الغباوةِ والبلادة، وإلى حال النجوم في السُّخْرة؛ فإنها أنقص من حالِ البهائم في الرَّتْعَةِ، ومَنْ هذا الذي يسرُّه أن يكون الشمسَ والقمرَ والنَّارَ والثلج، أو برجاً وكلُّ شيءٍ في العالم فإنما هو ?من البروج أو قطعةٌ من الغيم؛ أو يكونَ المَجرَّةَ بأسْرها، أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء للإنسان ولكلِّ مختَبَرٍ ومُختَار، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبيُّن والرويَّة.

مِن سرورِ الظَّفَر بالأعداء؛ ومِن انفتاح بابِ العلم بعد إدْمان -وأين تقعُ لَذَّة البهيمة بالعَلُوفة، ولذَّة السبع بلَطْع الدَّمِ وأكل اللحم وأين ذلك من حال النُّبوّةِ والخِلافة، ومِن عزِّهما وساطع نورهما، وأينَ ?وأين ذلك من سرورِ السُّودَد ومن عزِّ الرياسة ?القرْع مِن السرور -تقعُ لذَّةُ درْك الحواسِّ الذي هو ملاقاةُ المطعَم والمشرب، وملاقاةُ الصوتِ المُطربِ واللّونِ المونق، والملمسة الليِّنة ، ولو استَوت الأمور بطلَ التمييزُ، وإذا لم ?بنَفاذ الأمر والنَّهي، وبجواز التوقيع، وبما يُوجب الخاتَمُ من الطاعة ويُلزِم من الحجَّة تكن كلفةٌ لم تكن مَثوبة، ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرةُ التوكُّلِ على الله تعالى، واليقين بأنَّه الوَزَرُ والحافظ، والكالئ والدافع، وأنَّ الذي يحاسِبُك أَجْوَدُ الأجْوَدِين، وأرحَمُ الراحمين، وأنه الذي يقبلُ اليسيرَ ويَهَبُ الكثير، ولا يهلِك عليه إلاّ هالك، ولو كان الأمرُ على ما يشتهيه الغَرير والجاهلُ بعواقبِ الأمور، لبطلَ النَّظَرُ وما يشحذ عليه، وما يدعو إليه، ولتعطّلت الأرواحُ من معانيها، فسبْحَان من جعل منافعَها نعمةً، ومضارَّها ترجع إلى أعظم المنافع، .والعقولُ من ثِمارها، ولعَدِمت الأشياءُ حظوظَها وحقوقَها وقسّمها بين مُلِذٍّ ومُؤلم، وبين مؤنِسٍ ومُوحش، وبين صَغيرٍ حقير وجليل كبير، وبين عدوٍّ يرصُدُك وبين عقيلٍ يحرسك، وبين مُسَالِمٍ يَمْنَعُكَ، وبين مُعينٍ يعضُدك، وجعَل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تتمُّ النعمة، وفي بطلانِ واحدٍ منها بُطلانَ الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً، فإنّ الجميع إنَّما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضُمَّ إليهما، ولأنّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنّ كلَّ جُثَّةٍ فمن أجزاء، فإذا جوَّزتَ رفْعَ واحدٍ والآخرُ مثلُه في الوزن وله مثلُ علَّتِه وحظِّه ونصيبه، فقد جوَّزْتَ رفعَ الجميع؛ لأنّه ليس الأولُ بأحقَّ من الثاني في الوقت الذي رجوتَ فيه إبطالَ الأوَّل، والثاني كذلك والثالث والرابع، حتَّى تأتيَ على الكلِّ وتستفرغ الجميع، كذلك الأمورُ المضمَّنة والأسباب المقيَّدة؛ ألا ترى أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على الله تعالى مِنْ الحصاة، وليس الطاوسُ المستحسنُ بأدَلَّ على الله تعالى مِنْ الخِنزير المستقبح، والنارُ والثلج وإنْ اختلفا في جِهَة البرودة والسُّخونة، فإنَّهما لم يختلفا في .جهة البرهان والدَّلالة

وأظنُّك ممَّن يرى أنَّ الطاوسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب، وأن التُّدْرُجَ أعزُّ على الله تعالى من الحِدَأةِ، وأنّ الغزالَ أحبُّ إلى الله تعالى من الذئب، فإنَّما هذه أمور فرّقها الله تعالى في عيون الناس، وميَّزها في طبائع العباد، فجعَلَ بعضها بهم أقربَ .شبهاً، وجعل بعضَها إنسيّاً، وجعل بعضَها وحشيّاً، وبعضها غاذِياً، وبعضها قاتلاً، وكذلك الدُّرَّة وَ الخَرَزة والتمرة والجَمرة .فلا تَذْهَبْ إلى ما تريك العينُ واذهَبْ إلى ما يريك العقل

حكم ظاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول، والعقل هو الحجَّة، وقد علمْنا أنَّ :الاعتماد على العقل دون الحواس وللأُمور حكمان خَزَنَة النارِ من الملائكة، ليسوا بدون خزَنَةِ الجنَّة؛ وأنَّ ملك الموت ليس بدُونِ ملَكِ السَّحاب، وإن أتانا بالغَيث وجلب الحيَاء؛ وجبريلُ الذي يَنْزل بالعذاب، ليسَ بدون ميكائيل الذي ينزل بالرحمة؛ وإنَّما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقاتِ ذلك

ومواضعه، والاختلاف بين أصحابنا أنَّهم إذا استووا في المعاصي استَووا في العقاب، وإذا استَووا في الطاعة استووا في الثواب، وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل، هذا هو أصل المقالة، والقُطْب الذي تدورُ عليه الرحى.

التين والزيتون

فزعم زَيدُ بنُ أسلم أنَّ التّين دمشق، والزيتون فِلسطين، وللغاليةِ في هذا تأويلٌ أرغبُ "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" :وقد قال الله عزّ وجلَّ بالعِتْرة عنه وذكرِه، وقد أخرَجَ الله تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم، وما تُعرَف دِمَشق إلاّ بدِمشق، ولا فِلسطين إلاّ بفلسطين، فإن كنتَ إنَّما تقف من ذكر التين على مقدار طعمِ يابسِه ورَطْبه، وعلى الاكتنان بورَقِه وأغصانه، والوَقود بعيدانه، وأنّه نافعٌ لصاحب السُّلِّ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلُح في مواضعَ من الدواء، وفي الأضْمدةِ، وأنَّه ليس شيءٌ حلو إلاّ وهو ضارٌّ بالأسنان غيره، وأنَّه عند أهل الكتاب الشَّجرةُ التي أكَلَ منها آدمُ عليه السلام، وبورقها ستَرَ السّوءَة عند نزول العقوبة، وأنّ صاحبَ البواسير يأكله ليُزْلِقَ عنه الثفل، ويسهلَ عليه مخرج الزِّبل؛ وتقف من الزيتون على زيتِه والاصطباح به، وعلى التأدُّم بهما فقَدْ أسأتَ ظنّاً بالقرآن، وجهلتَ فضلَ التأويل، وليس لهذا المقدار عظّمهما الله -والوَقود بشجرهما، وما أشبه ذلك من أمرهما عزّ وجلَّ، وأقسَمَ بهما ونوّه بذكرهما.

التأمل في جناح البعوضة

ولو وقفتَ على جَناح بَعوضةٍ وُقوفَ معتبر، وتأمَّلتَه تأمُّلَ متفكّر بعد أن تكونَ ثاقبَ النَّظرِ سليمَ الآلة، غوَّاصاً على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلاّ على حسب صحَّةِ عقلك، ولا من الشواغل إلاّ ما زادَ في نشاطِك، لملأت ممَّا تُوجِدك العِبرةُ من غرائب الطوامير الطِّوال، والجلود الواسعةِ الكِبار، ولرَأيتَ أنَّ له من كثرة التصرُّف في الأعاجيب، ومن تقلُّبه في طبقات الحكمة، ولرأيتَ له من الغزْر والرَّيع، ومن الحَلب والدَّرِّ ولتَبجَّسَ عليك من كوامِن المعاني ودفائِنها، ومن خَفِيَّاتِ الحكم وينابيع العلم، ما لا يشتدُّ معه تعجّبُك ممَّن وقفَ على ما في الدِّيك من الخصال العجيبة، وفي الكلبِ من الأمور الغريبة، ومن أصنافِ المنافع، وفنون المرافق؛ وما فيهما من المِحَن الشِّداد، ومع ما أودِعا من المعرفة، التي مَتى تجلَّت لك تصاغَرَ عندك كَبيرُ ما تستعظم، وقلَّ في عينك كثير ما تستكثر، كأنَّك تظنُّ أنَّ شيئاً وإنْ حسُن عندك في ثمنِه ومنظره، أنَّ الحكمة التي هي في خلْقه إنَّما هي على مقدار ثمنه ومنظره.

كلمات الله

والكلماتُ "وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ" :وقد قال الله تعالى

في هذا الموضع، ليس يُريد بها القولَ والكلامَ المؤلَّفَ من الحروف، وإنَّما يريد النِّعَم والأعاجيب، والصفات وما أشبه ذلك، فإنَّ كلاًّ من هذه الفنون لو وقف عليه رجلٌ رقيقُ اللسان صافي الذهن، صحيحُ الفِكْر تامُّ الأدَاة، لما بَرِح أن تحسره المعاني وتَغْمرَه الحِكَم.

وقد قال المتكلمون والرؤساء والجِلَّةُ العُظماءُ في التمثيل بين الملائكةِ والمؤمنين، وفي فرق ما بين الجنِّ والإنس، وطباعُ الجنِّ أبعدُ من طباع الإنس، ومن طباعِ الديك، ومن طباع الكلب، وإنَّما ذهبوا إلى الطاعة والمعصية، ويخيَّل إليَّ أنك لو كنت سمعتَهما يمثّلان ما بين التُّدْرُج والطاوُس، لَمَا اشتدَّ تعجُّبُك، ونحن نرى أنَّ تمثيلَ ما بينَ خصالِ الدَّرَّة والحمامة، والفيل والبعير، والثَّعلبِ والذيب أعجَب، ولسنا نعني أنَّ للدَّرَّة ما للطاوس من حسن ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه، ولا أنَّ لها غَنَاءَ الفرَس في الحرب والدَّفْع عن الحريم؛ لكنَّا إذا أردنا مواضعَ التدبير العجيبِ من الخلْق الخسيس، والحسِّ اللطيفِ من الشيء السخيف، والنَّظرِ في العواقب من الخلق الخارج من حدود الإنس والجنِّ والملائكة، لم نذهب إلى ضِخَم البدَن وعِظَم الحجم، ولا إلى المنظر الحسَن ولا إلى كثرة الثمن، وفي القرد أعاجيبٌ وفي الدُّبِّ أعاجيب، وليس فيهما كبير مَرْفِقٍ إلاّ بقدْر ما تتكسَّب به أصحاب القردة، وإنما قصدنا إلى شيئين يَشِيعُ القولُ فيهما، ويكثرُ الاعتبار ممَّا يستخرج العلماءُ من خفِيِّ أمرهما، ولو جمعْنا بين الدِّيك وبين بعض ما ذكرت، وبين الكلب وبين بعض ما وصفت، لانقطع القولُ قبل أن يبلغَ حدَّ الموازنِة والمقابلة.

وقد ذكرتَ أنَّ بعضَ ما دعاك إلى الإنكار عليهما والتعجُّبِ من أمرهما، سقوطُ قدرِ الكلب ونذالتُه، وبَلَهُ الدِّيكِ وغباوتُه، وأنَّ الكلبَ لا بهيمةٌ تامَّة ولا سبعٌ تامٌّ، وما كان ليخرجَه من شيءٍ من حدود الكلاب إلى حدود الناس، مقدارُ ما هو عليه من الأنس بهم، فقد يكون في الشيءِ بعضُ الشبه مِنْ شيء ولا يكون ذلك مُخرِجاً لهما من أحكامِهما وحدودِهما.

تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما وقد يشبِّه الشعراءُ والعلماءُ والبلغاءُ الإنسانَ بالقمر والشمس، والغيثِ والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحيَّة وبالنَّجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدِّ الإنسان، وإذا ذمُّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القِرد والحمار، وهو الثور، وهو التَّيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهو الجُعَل، وهو القرنْبَى؛ ثم لا يُدخِلون هذه الأشياءَ في حدود الناس ولا أسمائِهم، ولا يُخرجون بذلك الإنسانَ إلى هذه الحدودِ وهذه الأسماء، وسمَّوا الجارية غزالاً، وسمَّوها أيضاً خِشْفاً، ومُهْرةً، وفاختِةً، وحمامةً، وزهرةً، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى، وصنَعوا مثلَ ذلك بالبروج والكواكب، فذكَّروا الأسدَ والثور، والحَمَل والجدي، والعقربَ والحُوت، وسمَّوها بالقوس والسُّنبلة والميزان، وغيرها، وقال في ذلك ابن عَسَلَة الشيبانيّ:

يُّ يحسَبُها ة النَّجْم

ويُروى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: نِعْمَتِ العَمة لكُم النَّخلة خُلقت مِنْ فضلة طينةِ آدم وهذا الكلام صحيحُ المعنى،

لا يَعيبه إلاّ مَن لا يعرف مجاز الكلام، وليس هذا ممَّا يطَّرِد لنا أن نقيسَه، وإنَّما نُقدِم على ما أقدَموا، ونُحجم عمّا أحجموا، .وننتهي إلى حيثُ انتهوْا

ونراهم يسمُّون الرجلَ جملاً ولا يسمُّونه بعيراً، ولا يسمُّون المرأةَ ناقة؛ ويسمُّون الرجلَ ثوراً ولا يسمُّون المرأةَ بقرةً، ويُسَمُّونَ الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتاناً؛ ويسمُّون المرأة نعجةً ولا يسمُّونها شاة، وهم لا يضعون نعجة اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون .ذلك علامة مثلَ زيد وعمرو، ويسمُّون المرأة عنْزاً

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

سَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا " :أوَ ما علمتَ أنّ الإنسان الذي خُلقت السمواتُ والأرضُ وَمَا بَينَهما مِن أجْله كما قال عزَّ وجلَّ إنَّما سَمُّوه العالَم الصغير سليلَ العالَم الكبير، لِمَا وجَدوا فيه من جَمع أشكالِ ما في العالم الكبير، ووجدْنا "في الأَرْض جَميعاً مِنْهُ له الحواسَّ الخمسَ ووجدُوا فيه المحسوساتِ الخمس، ووجدُوه يأكل اللَّحمَ والحبَّ، ويجمعُ بينَ ما تقتاته البهيمةُ والسبع، ووجَدوا فيه صَولة الجمل ووُثوبَ الأسد، وغدْرَ الذئب، وروَغان الثعلب، وجُبْن الصِّفْرد، وجَمْعَ الذَّرَّةِ، وصنْعة السُّرْفة وجُودَ الدِّيكِ، وإلفَ الكلب، واهتداءَ الحمام، وربَّما وجدوا فيه ممَّا في البهائم والسباع خُلُقَيْن أو ثلاثة، ولا يبلغُ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغَيرته، وصَولته وحِقدُه، وصبرُه على حَمْل الثّقْل، ولا يلزَم شبهُ الذئبِ بقدْر ما يَتَهَيَّأُ فيه من مِثْل غدْره ومكْره، واسترواحِه وتوحُّشه، وشدَّة نُكْره، كما أن الرجلَ يصيبُ الرأيَ الغامضَ المرَّةَ والمرَّتين والثَّلاثَ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهيةٌ وذو نَكراء أو صاحبُ بَزْلاء، وكما يخطئ الرجل فيفحُش خَطَاؤه في المرَّة والمرَّتين والثلاث، فلا يبلغ الأمرُ به أن ولأنَّ :وسمَّوه العالَمَ الصغيرَ لأنَّهم وجدُوه يصوِّر كلَّ شيءٍ بيده، ويحكي كلَّ صوتٍ بفَمه، وقالوا .يقال له غبيٌّ وأبلهُ ومنقوص أعضاءَه مقسومةٌ على البروج الاثني عشر والنجومِ السبعة، وفيه الصفراء وهي من نِتاج النار، وفيه السوداء وهي من نِتاج الأرض، وفيه الدَّمُ وهو من نِتاج الهواء، وفيه البلغَمُ وهو من نِتاج الماء، وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة، فجعَلوه العالَمَ الصغير، إذ كانَ فيه جميعُ أجزائِه وأخلاطِهِ وطبائعه، ألا تَرَى أنَّ فيه طبائعَ الغضبِ والرضَا، وآلة اليقين والشكِّ، والاعتقاد والوقف وفيه طبائعُ الفِطنةِ والغَباوة، والسلامة والمكر، والنصيحةِ والغِشِّ، والوَفاء والغدر، والرياء والإخلاص، والحبّ والبُغْض، والجِدِّ والهزْل، والبخْل والجُود، والاقتصادِ والسّرَف، والتواضع والكبر، والأُنس والوحشة، والفكرة والإمهال، والتمييز والخبْط، والجبْن والشجاعة، والحزم والإضاعة، والتبذير والتقتير، والتبذل والتعزز، والادِّخار والتوكُّل، والقناعة والحِرْص، والرغبة والزُّهْد، والسُّخْط والرِّضا، والصبر والجزَع، والذِّكر والنسيان، والخوفِ والرجاء، والطَّمَع واليأس، والتنزُّه والطبَع، والشكِّ واليقين، والحياء والقِحَة، والكِتْمانِ والإشاعة، والإقرار والإنكار، والعلم والجهل، والظلم والإنصاف، والطلب

والهَرب، والحِقْد وسرْعة الرضا، والحِدَّةِ وبُعْدِ الغَضب، والسُّرور والهمّ، واللّذّةِ والألم، والتأميلِ والتمنّي، والإصرارِ والنَّدَم، والجِمَاح والبَدَوات، والعيِّ والبلاغَة، والنُّطْق والخَرَس، والتصميم والتوقف، والتغافُل والتفاطُن، والعفوِ والمكافأة، والاستطاعةِ والطبيعة، وما لا يحصى عدده، ولا يُعرَف حَدُّه.

فالكلبُ سبع وإن كانَ بالناس أنيساً، ولا تخرجُه الخصلة والخَصلتان ممَّا قاربَ بعضَ طبائِع الناس، إلى أن يخرجَه من الكَلْبيَّة، وكذلك الجميع، وقد عرَفت شبَه باطنِ الكلب بباطن الإنسان، وشبَه ظاهِرِ القرد بظاهر الإنسان: قال: ترى ذلك في طَرْفِه وتغميضِ عينه، وفي ضِحْكه وفي حكايته، وفي كفّه وأصابعه، وفي رفعِها ووضعِها، وكيف يتناولُ بها، وكيف يجهز اللُّقمة إلى فيه وكيف يكسِر الجَوْزَ ويستخرج لبَّه وكيف يَلْقَنُ كل مَا أُخِذَ به وأُعِيدَ عليه، وأنَّهُ من بين جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرِق مثلَ الإنسان، ومع اجتماعِ أسبابِ المعرفة فيه يغرق، إلاّ أن يكتسب معرفة السباحة، وإن كان طبعُه أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلُّ، وكلُّ شيءٍ فهو يسبَح من جميع الحيوانات، ممَّا يوصف بالمعرفة والفِطنة، وممَّا يوصَفُ بالغَباوة والبَلادة؛ وليس يصير القردُ بذلك المقدار من المقارَبَة إلى أن يخرُج من بعض حدود القرود إلى حدود الإنسان.

عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك وزعمتَ أنَّ ممَّا يمنعُ من التمثيل بين الديك والكلب أنّه حارسٌ محترسٌ منه، وكلُّ حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونِ تَبَدُّله.

ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالي: مَنْ على شُرطتكم؟ قالوا: بَلْج بنُ نُشْبَة الجُشَميّ، فقال:

ن يَسعى عليهمُ — لِه وهو حارس

ويقال: إن الشاعر قال هذا الشعرَ في الفلافس النَّهشَليّ، حين ولِيَ شُرطة الحارِث بن عبد اللّه فقال:

ا ابنة مـالـكٍ — فيه الفُلافسُ
ن يَسعَى عليهمُ — لِه وهو حارسُ

وليس يُحكمَ لِصغار المضارِّ على كبارها بل الحكمُ للغامر على المغمور والقاهِر على المقهور، ولو قد حكَينا ما ذكر هذا الشَّيخُ من خِصال الكلب وذكَرَ صاحبُه من خصالِ الديك، أيقنتَ أنَّ العجَلة من عمل الشيطان، وأنَّ العُجْبَ بئس الصاحب.

وقلتَ: وما يبلغُ من قدْر الكلب ومِن مقدارِ الديك، أن يتفرَّغ لهما شيخان من جِلَّة المعتزلة، وهم أشراف أهلِ الحكمة؛ فأيُّ شيءٍ بلغ، غفر اللّه تعالى لك، من قدْر جزءٍ لا يتجزَّأ من رمْل عالج، والجزءِ الأقلِّ من أوَّل قطْع الذَّرَّة للمكان السحيق، والصحيفة التي لا عمقَ لها، ولأيِّ شيء يُعنَوْن بذلك، وما يبلغ من ثمنِه وقدْر حجْمه، حتَّى يتفرَّغ للجدالِ فيه الشُّيوخ الجِلَّة، والكهولُ العِلْية، وحتَّى يختاروا النَّظرَ فيه على التسبيح والتهليل، وقراءةِ القرآن وطولِ الانتصابِ في الصلاة؛ وحتَّى يزعم أهلُه أنَّه فوقَ الحجِّ والجهاد، وفوقَ كل برٍّ واجتهاد، فإنْ زعمتَ أنّ ذلك كلّه سواءٌ، طالت الخُصومةُ معَك، وشغلتنا بهما عمّا هو أولى بنا فيك،

على أنَّك إذا عَممْتَ ذلك كلَّه بالذمِّ، وجَلّلته بالعيب، صارت المصيبةُ فيك أجلَّ، والعزاءُ عنها أعسر، وإن زعمتَ أنَّ ذلك إنَّما جاز لأنَّهم لم يذهبُوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم الحجم، وإلى ما يروقُ العينَ ويلائِمُ النفس، وأنَّهم إنَّما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه، وإلى نتيجتِه، وما يتولّد عنه من علم النّهايات، ومن باب الكلِّ والبعْض، وكان ويكون، ومن باب ما يحيط به العلم أو ما يفضل عنه، ومن فَرق ما بين مذاهب الدُّهريَّة ومذاهب الموحِّدين، فإن كان هذا العذْرُ مقبولاً، وهذا الحكم صحيحاً، فكذلك نقول في الكلب، لأنَّ الكلبَ ليس له خطرٌ ثمين ولا قدْر في الصدر جليل؛ لأنَّه إن كان كلبَ صيد فديتُه أربعون دِرهماً، وإن كان كلب ضَرْع فديتُه شاة، وإن كان كلبَ دارٍ فديتُه زنبيلٌ من ترابٍ، حُقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحبِ الدار أن يقبلَه، فهذا مقدارُ ظاهِرِ حاله ومُفتَّشِه، وكوامِنُ خِصاله، ودفائِنُ الحكمةِ فيه، والبرهاناتُ على عجيب تدبير الربِّ تعالى ذكرُه فيه،على خلاف ذلك؛ فلذلك استجازُوا النَّظَر في شأنه، والتمثيلَ بينَه وبين نظيره، وتعلم أيضاً مع ذلك أنَ الكلبَ إذا كانَ فيه، مع خُموله وسقوطِه، مِن عجيبِ التدبير والنعمةِ السابغةِ والحكمةِ البالغة، مثلُ هذا الإنسان الذي له خلق اللّه السمواتِ والأرض وما بينهما، أحقُّ بأنْ يُفكر فيه، ويُحْمَدَ اللّهُ تعالى على ما أودَعَه من الحكمةِ العجيبةِ، والنِّعمة السابغة.

وقلت: ولو كان بدلُ النظر فيهما النظرَ في التوحيد، وفي نفي التشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي التعديل والتجوير، وفي تصحيح الأخبار، والتفضيلِ بين علم الطبائع والاختيار، لكان أصوبَ.

دفاع عن المتكلمين والعجبُ أنَّك عَمَدْتَ إلى رجالٍ لا صناعة لهم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاء إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وضْعُ الكتبِ فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهمْ لذّةٌ ولا هَمٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلا عليهِ وإليه؛ فحين أرادُوا أن يُقسِّطُوا بينَ الجميع بالحِصص، ويَعْدِلوا بينَ الكلِّ بإعطاء كلِّ شيء نصيبه، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً، والتقسيطُ جامعاً، ويظهرَ بذلك الخفيُّ من الحِكَم، والمستورُ من التدبير، اعترضْتَ بالتعنُّتِ والتعجُّب، وسطّرت الكلامَ، وأطلتَ الخطب، من غير أنْ يكون صوَّبَ رأيَكَ أديبٌ، وشايَعَك حكيم.

نسك طوائف من الناس وسأضرب لك مثلاً قد استوجبتَ أغلظَ منه، وتعرَّضتَ لأشدَّ منه ولكنَّا نستأنِي بك وننتَظِرُ أوْبَتَك، وَجَدْنَا لجميع أهلِ النَّقص، ولأهلِ كلِّ صِنفٍ منهم نُسْكاً يعتمِدون عليه في الجَمَال، ويحتسِبون به في الطاعة وطلب المثُوبة، ويفزَعون إليه، على قدْرِ فسادِ الطِّباع، وضعفِ الأصل، واضطراب الفرْع، مع خبْث المنشأ، وقلّةِ التثبُّتِ والتوقُّفِ، ومع كثرة التقلُّب والإقدام مَعَ أوّل خاطر: فنُسك المَريبِ المرتابِ من المتكلّمين أنْ يتحلَّى برمْي الناس بالرِّيبة، ويتزيَّنَ بإضافةِ ما يجدُ في نفسه إلى خَصمه، خوفاً من أن يكونَ قد فطِن له، فهو يستُرُ ذلك الداءَ برمْي الناس به.

ونُسكُ الخارجيِّ الذي يتحلَّى به ويتزيًّا بجماله، إظهارُ استعظامِ المعاصي، ثم لا يَلتفِت إلى مجاوزَةِ المقدار وإلى ظُلْم العباد، ولا

ونسْك الخُراسانيِّ أن يُحجَّ ويَنَام على .يقِف على أنَّ اللّه تعالى لا يحبُّ أن يَظْلِمَ أظلمَ الظَّالمين، وأنَّ في الحقِّ ما وسِعَ الجميع إذا نَسَك الشَّريفُ تواضَعَ، وإذا نسَكَ الوضيعُ تكبَّر، :قفاه، ويعقد الرِّياسة، ويتهيَّأ للشَّهادة، ويبسُط لسانَه بالحِسْبة، وقد قالوا وتفسيرُه قريبٌ واضح، ونُسْك البَنَوي والجنديِّ طرحُ الديوان، والزِّرايةُ على السُّلطان، ونسك دَهاقِين السَّوادِ تركُ شُرْب المطبوخ، ونُسْك الخَصِيِّ لُزُوم طرَسُوس وإظهارُ مجاهَدَةِ الروم، ونُسك الرافضيِّ تركُ النبيذ، ونسك البستانيِّ تركُ سَرقة الثَّمر، .ونُسْك المغنِّي الصَّلاةُ في الجماعة وكثرةُ التسبيح، والصلاةُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم

.ونسك اليهودِيِّ التشدُّدُ في السَّبْت وإقامته

والصوفيُّ المظهرُ النُّسكَ من المسلمين، إذا كان فسلاً يبغض العمل تطرف وأظهر تحريمَ المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسألتَه .وسيلة إلى تعظيم الناس له

وإذا كان النَّصرانيُّ فسلاً نذْلاً مبغِضاً للعمَل، وترهَّب ولبس الصُّوف؛ لأنَّه واثقٌ أنَّه متى لبس وتزيَّا بذلك الزِّيِّ وتحلَّى بذلك اللّباس، وأظهر تلك السِّيما، أنَّه قد وجَبَ على أهل اليُسر والثَّروة منهم أن يعُولُوه ويَكْفُوه، ثمَّ لا يرضى بأنْ رَبحَ الكِفاية باطلاً .حتى استطال بالمرتبة

فإذا رمى المتكلِّمُ المريبُ أهلَ البراءة، ظنَّ أنَّه قد حوَّل ريبتَه إلى خَصمه، وحوَّل براءةَ خصمِه إليه، وإذا صار كلُّ واحدٍ من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمنيَّة، ووقَفَ على النِّهاية، فاحذَر أن تكونَ منهم واعلَمْ أنَّكَ قد أشبهتهم في هذا الوجه، .وضارعتَهم في هذا المذهب

.مما قدَّمْنَا ذكرَه، وبينَه وبينَ ما ذكرنا بعضُ الفرْق

أجرأ من الليث، وأجبَنُ من الصِّفْرد، وأسخَى مِنْ لافِظة، وأصبرُ على الهُونِ من كَلب، وأحذر من عَقْعَق، وأزهى مِن :يقال غراب، وأصنَع من سُرفَة وأظلم من حيَّة، وأغدَر من الذئب، وأخبَث من ذِئبِ الحَمَز وأشدُّ عداوةً من عقرب، وأروغُ من ثعلب، وأحمقُ من حُبارى، وأهدى من قطاة، وأكذَبُ مِن فاختة، وألأمُ من كلبٍ على جيفة، وأجمَعُ من ذَرّة، وأضلُّ من حِمار أهلي، .وأعقُّ من ضَبٍّ، وأبرُّ من هِرَّة، وأنْفَر من الظليم، وأضَلّ من وَرَل وأضلُّ من ضبٍّ، وأظلم من الحيَّة

فيعبِّرون عن هذه الأشياء بعبارةٍ كالعبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والإساءة، حتَّى كأنَّهم من الملومِين والمشكورين، ثم :يعبِّرون في هذا البابِ الآخَر بدونِ هذا التعبير، ويجعلونَ خبَرهم مقصوراً على ما في الخِلقة من الغريزة والقُوى فيقولون .أبصرُ من عُقاب، وأسمعُ من فرَس، وأطولُ ذماءً من ضبٍّ، وأصحُّ من الظليم

والثاني يشْبه العبارةَ عن الحمد والذمِّ، والأوَّل يُشبه العبارةَ عن اللائمةِ والشكر، وإنَّما قلنا ذلك، لأنَّ كلّ مشكورٍ محمود، وليس

كلُّ محمودٍ مشكوراً؛ وكلُّ ملومٍ مذموم وليس كلُّ مذمومٍ ملوماً، وقد يحمدون البَلَدَةَ ويذمُّون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللّوم ولا على جهة الشكر؛ لأنَّ الأجْر لا يقع إلاّ على جهة التخيُّر والتكلُّف، وإلاّ على ما لا يُنال إلا بالاستطاعة والأوَّلُ إنَّما يُنالُ بالخِلقة وبمقدارٍ من المعرفة، ولا يبلغ أنْ يسمَّى عقْلاً، كما أنّه ليس كلُّ قُوَّةٍ تسمَّى استطاعة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ما ذكر صاحبُ الديك من ذمِّ الكلابِ

وتعدد أصناف معانيها

وتعداد أصناف معايبها ومثالبها، مِن لؤمها وجبنها وضعْفها وشرَهها، وغدْرِها وبَذائِها، وجهْلها وتسرُّعِها، ونثنها وقذْرها، وما جاء في الآثار من النَّهْي عن اتخاذها وإمساكها، ومن الأمْر بقتْلِها وطردها، ومن كثرةِ جناياتها وقلّة رَدِّها ومِن ضرب المثَل بلؤمها ونذالتها، وقبحِها وقبْحِ معاظلتِها وَمِن سماجة نُباحِها وكثرة أذاها، وتقذُّر المسلمين من دنوِّها، وأنّها تأكل لحومَ الناس، كالبغْل في الدوابِّ وكالراعِبيِّ في الحمام، وأنّها لا سبعٌ ولا بهيمة، ولا إنسيَّةٌ ولا جِنِّيَّة، وأنَّها كالخلْق المركّبِ والحيوان الملفّق وأنَّها من الجِنِّ دون الجِنّ، وأنّها مطايا الجِنِّ ونوعٌ من المِسْخ، وأنَّها تنبُش القبورَ وتأكُلُ الموتى، وأنَّها يعتريها الكَلَبُ مِن أكل لحوم الناس. فإذا حكيْنَا ذلكَ حكَينا قولَ من عدَّد محاسنَها، وصنّف مناقبها، وأخذْنا مِنْ ذكر أسمائِها وأنسابها وأعراقها، وتفدية الرجال إيَّاها واستهتارهم بها، وذكر كسْبِها وحراستها، ووفائها وإلْفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أُودِعت من المعرفة الصحيحةِ والفِطَن العجيبة والحسِّ اللطيف والأدب المحمود، وذلك سِوى صِدق الاسترواح وجَودَةِ الشمِّ، وذِكْر حفظها ونَفَاذها واهتدائِها، وإثباتِها لصُوَر أربابها وجيرانها، وصبرها، ومعرفتِها بحُقوق الكرام، وإهانتها اللئام، وذكر صبْرها على الجفا، واحتمالها للجوع، وذكر ذِمامها وشدَّةِ مَنْعِها مَعَاقِدَ الدِّمَارِ منها، وذكر يَقَظتها وقِلّة غفلتها وبُعْدِ أصواتها، وكثرة نسْلها وسرعة قَبولها وإلقاحها وتصرُّفِ أرحامِها في ذلك، مع اختلاف طبائِع ذكورها والذكور من غير جنسها، وكثرةِ أعمامِها وأخوالها، وتردُّدها في أصناف السِّباع، وسلامتها من أعراق البهائم، وذكر لقْنها وحكايتها، وجودة ثقافتِها ومَهْنِها وخِدمتها، وجِدِّها ولِعْبها وجميع أمورها؛ بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتُبِ المنَزَّلة والأمثال السائرة، وعن تجربةِ النَّاس لها وفِراستِهم فيها، وما عايَنوا منها؛ وكيف قال أصحابُ الفأل فيها، وبإخبار المتطيِّرين عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها وعدد جرائها، ومدَّةِ حملها، وعن أسمائها وألقابها، وسِماتِها وشِياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتي لا تلقَنُ منها وعن أعراقِها والخارجيِّ منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.

:قال الجَارود بن أبي سَبْرَةَ في ذلك :وذكر صاحبُ الديك ما يحفظ من أكلِ الكلابِ للحُوم النَّاس فقال

بِّـي بَحـوْلِـه ... عَمْرَةَ مـالـكـا
مـغيَّبِ سـائلاً ... ض الرُّصافةِ هالكا
اديـاتُ يَنُـشْنَـه ... مِنَ الليل حالـكـا

:وقال نُفَيع بن صقَّار المحاربي من ولد مُحارب بن خُصَفة في حرب قيسٍ وتغلب

ن بكرٍ حَرْبُنـا ... تَغلِب فاستَوَى
هم وخُصَاهُمُ ... فِ وللخُصـى

:وقال أبو يعقوب الخُرْيمي، وهو إسحاق بن حسَّان بن قوهي في قتلَى حربٍ ببغداد

نَ في بـاحة ... مَنَاخِرُهـا
قيقتَـه ... نَى مَساعِرُها
بُ تنـهَشُـه ... أظافِرُهـا

:وقال أبو الشمقمق وهو مَرْوان بن محمد، مولى مرْوان بن محمَّد، ويكنى أبا محمَّد

رْخ

جُلَّه

كل

ما تقولُ في دم :كنَّا عندَ الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سُود فجلس، فقال يا أبا سعيد :وذُكر لي عن أبي بَكر الهُذَليِّ، قال

يا عجباً ممَّن يلَغ في دماءِ المسلمين كأنَّه كلبٌ، ثم يسألُ عن دم البراغيث فقام وكيعٌ :فقال ?أيصلَّى فيه :البراغيث يُصيب الثوب

إنَّ لله في كلِّ عضوٍ منه نعمة فيستعين بها على المعصية، اللَّهمَّ لا تجعلنا ممَّن :يتخلَّج في مِشيتِه كتخلُّج المجنون، فقال الحسن

.يتقوَّى بنعمتِك على معصيتك

أشياءُ مِنَ الحيوان تُضافُ إلى نتن الجُلُود وخُبث الرائِحة، كريح :ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة وقال صاحب الديك

أبْدان الحيَّات، وكنتْن التُّيوس وصُنان عرَقها، وكنتن جِلدِ الكلاب إذا أصابه مطر، وضروبٌ من النَّتن في سوى ذلك، نحنُ

.ذاكروها إن شاء الله تعالى

:وقال رَوح بن زنباع الجُذَاميّ في امرأته، وضرب بالكلب المثل

وفٌ لَهُ أَرَجٌ ... بِ مَسَّهُ مَطَرُ

إنَّها جاريةٌ حسناء، :وكانت امرأةُ رَوح بن زِنباع أمَّ جعفر بنتَ النُّعمان بن بشير، وكان عبدُ الملك زوَّجه إيّاها، وقال :قال

.فاصبرْ على بَذَاءِ لسانِها

:وقال الآخر

ريح جُلَّه ... بَدَاةٍ طلّهْ

:وأنشد أبو زيد في ذلك

خُبْثِ طُعْمَتِهِمْ ما بلّها المطر

:ومما ذُكر به الكلبُ في أكله العَذِرة، قولُ الراجز

على عِقْيِ صَبي

:وقال مثل ذلك حَنْظلة بن عَرَادة في ذكره لابنِه السَّرَنْدَى

َ اللـهُ أيْمَـتَـهُ بـيد وادَّلـجـا
ي الكَلْبَ طُعْمَـتَـه ن جـارهِ ولـجـا
لَفَـرْخ أصـْرُبُـهُ ن تحتِ استِه الرَّدَجا

يقال للذي يخرُج من بطن الصبيِّ حين يخرُج من بطن أمه عِقي بكسر العين، ويقال عقى الصبي يعِقي عَقْياً، فإذا شُدَّ بطنُه

إنَّ :فقال ?هلاً بايعت أخاك ابن الزُّبير :للسِّمن قيل قد صُربَ ليسمَن، والعِقي وهو العَقْية الغيبة، وإيَّاه عنَى ابنُ عمر حين قيل له

.أخي وضَعَ يده في عَقْيَةٍ ودعا إلى البَيعة، إنِّي لا أنزَع يَدِي مِن جماعةٍ وأضعُها في فُرقة

.الراجعُ في هِبَتِه كالرَّاجع في قيئه، وهذا المثلُ في الكلب :وفي الحديث المرفوع

الجيفة أحبُّ إليه من اللحم الغريض، ويأكل العَذِرة ويرجع في قيئه، :أبخَلُ من كلبٍ على جيفة، وقال بعضُهم في الكلب :ويقالُ

.ويشغَر ببَوله فيصير في جوفِ فيه وأنفه، ويحذفه تِلقاءَ خَيشومه

إنْ كنتُم إنَّما تستسقطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفةُ أنتنُ من العذرة، والعَذرة شرٌ من القيء، :وقال صاحب الكلب

.والجيفة أحبُّ إلى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغضِّ

مأكل السبع والأسَد سَيِّد السباع، وهو يأكل الجيفة، ولا يعرض لشرائع الوحش وافتراس البهائم، ولا للسابلة من الناس، ما وَجَدَ

في فريسته فَضْلة، ويبدأ بعدَشْرْب الدَّم فيبقُر بطنَه ويأكل ما فيه من الغثيثة والثفل والحَشْوة والزِّبل، وهو يرجع في قيئه، وعنه

.ورث السِّنَّور ذلك

ما هو إلاّ الأسد :ما قيل في السبع من الأمثال وهو المضروبُ به المثلُ في النَّجدة والبسالة، وفي شِدَّة الإقدام والصَّولة، فيقال

على براثنه وهو أشدُّ من الأسد وهو أجرأ من الليث العادي وفلان أسدُ البلاد وهو الأسد الأسود، وقيل لحمزة بن عبد المطّلب

أسدُ اللّه، فكفَاك من نُبْل الأسد أنَّه اشتُقَّ لحمزة بن عبد المطّلب من اسمه، ويقال للملك أصْيَد إذا أرادوا أن يصفوه بالكِبْر وبقلَّةِ

:الالتفات، وبأنَّ أنفَه فيه أسلوب ولأنَّ الأسد يَلتفت معاً لأنَّ عنقه من عظم واحد، وقال حاتم

ماءُ عـلـيكُـمُ ثلَ رأس الأصْيَدِ

:وقال الآخر

ِّمـاح وطـَيِّنَاً لنواظرِ من بَكر

:وقال الآخر

بٍ أصْيَدٍ صـيَدُ

وبعدُ فإنّ الذي يأكل الجيفة لم يبعُد من طبع كثيرٍ من الناس؛ لأنَّ من الناس من يشتهي اللحمَ الغابَّ، ومنهم من يشتهي النَّمكسُود، وَلَيْسَ بَيْنَ النَّمَكْسُودِ، وبين المصلوب اليابس كبيرُ فرق، وإنَّما يذبحون الدِّيَكَة والبَطَّ والدَّجاج والدُّرّاج من أوَّلِ الليل، ليسترخيَ لحمُها، وذلك أول التَّجييف.

فالأسد أجمعُ لهذه الخصال من الكلب، فهلاَّ ذكرتمْ بذلك الأسد وهو أنبَهُ ذِكراً وأبعدُ صيتاً.

وأمَّا ما ذكرتم من نَتْن الجِلد ومن استنشاق البول، فإنَّ للتيسِ في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذْفِ ببوله تِلقاءَ أنفه، وباينَه بشدَّةِ الصُّنان؛ فإنَّ الأمثالَ له أكثرُ ذِكراً، وفي العنز أيضاً عيوب.

وفي توجيه التيس ببوله إلى حاقِّ خَيشومه قال الشاعر لبعض من يهجُوه:

نْزيدَ فلـم تَـزِدْ فأسْمَاك بالقحر
يسُ يَعْتِك بولُه بَانِ وفي نحر

وقال آخر في مثل ذلك:

بن لؤم يَبولُ
شالت يقول

فما يُعلَمَ من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلاَّ أقبح. وبعد:

وقال ابن أحْمَرَ الباهليُّ في ذلك:

مْ وجاملـهـم وْقيها وتَرْتَضِعُ

هَجَا ابْنُ غادية السلمي بعضَ الكِرام، حينَ عُزل عن يَنْبُع، فقال لمن ظنَّ أنَّه إنَّما عُزل لمكانه: وقلتم:

ظهرُك منهمُ فَقَارِ مُوقَعُ
يهِ وينتحـي زُّ ويمـنـعُ

وقال ابن هَرْمة الفِهريّ:

من رؤوسـاً ها نِـزارَا
حَ مَنْ خَلاهَا ا الشِّفـارَا

وما نعلم الرُّجوعَ في الجِرَّة، وإعادةَ الفرثِ إلى الفم ليُستقصَى مضغُه إلاَّ أسمجَ وأقذَرَ من الرُّجوعِ في القَيْءِ، وقد اختار اللّه عَزّ وجلَّ تلك الطبيعة للأنعام، وجعل الناسَ ليسوا لشيءٍ من اللُّحمان أشدَّ أكلاً ولا أشدَّ عَجباً بِهِ منكم، ولا أصلحَ لأبدانهم ولا أغْذَى لهم من لُحُوم هذه الأنعام أفتائِهَا ومَسَانِّهَا.

وقال صاحبُ الديك: ما يشبه عَوْدُ الماشيةِ في الجرَّة، ورجوعُها في الفرث تطحَنُه وتُسيغه، الرجُوعَ في القيء، وقد زعمتم أنَّ جرَّةَ البعيرِ أنتنُ مِن قيءِ الكلاب لطول غُبُوبها في الجوف، وانقلابها إلى طباع الزِّبل، وأنَّها أنتن من الثلط، وإنَّما مثل الجرَّة مثل الرِّيق الذي ذكره ابنُ أحمر فقال:

أن أصاحبه طَّامِعِ الأمَلُ

فإنَّما مَثَلُ القَيءِ مَثَلُ العَذِرَة؛ لأنَّ الرِّيق الذي زعمتم، ما دامَ في فم صاحبه، ألذُّ من السلوى، وأمتعُ من النسيم، وأحسنُ موقعاً من الماء البارد من العطاش المسهوم، والريقُ كذلك ما لم يزايل موضعَه، ومتى زايل فَمَ صاحبه إلى بعض جِلْده اشتدّ نتْنه وعادَ في سبيل القيء.

فالرِّيق والجِرَّةُ في سبيلٍ واحد، كما أنَّ القيء والعَذِرة في سبيل واحد، ولو أن الكلبَ قلَسَ حتَّى يمتلئ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مباينةٍ له، لكان في ذلك أحقَّ بالنظافة من الأنعام في جرَّتها، وحشيِّها وأهليِّها، وإنَّ الأرانبَ لَتَحِيضُ حيضاً نَتِناً، فما عاف لحمَهَا أصحابُ التَّقَذُّر لمشاركَتِها الأنعامَ في الجِرَّة.

أمَّا ما عبتموه من أكْلِ العَذِرة، فإنَّ ذلك عامٌّ في الماشيةِ المتخيَّر لحمُها على اللُّحْمان، لأنَّ الإبل والشياه كلّها جَلالة وهُنَّ على يابس ما يخرُج من الناس أحرَصُ؛ وعلى أنّها إذا تعوَّدت أكل ما قد جفَّ ظاهرُه وداخلُه رطبٌ، رَجَع أمرُها إلى ما عليه الكلب، ثم الدَّجاج لا تَرْضَى بالعَذِرة، وبما يَبْقَى من الحبوبِ التي لم يأتِ عليها الاستمراء والهضْم، حتَّى تلتمِس الديدانَ التي فيها، فتجمع نوعين من العذرة لأنها إذا أكلت ديدان العَذِرَةِ فقد أَتَتْ على النَّوْعين جميعاً، ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَكَم في هجائِه الأنصار بخبيث الطعام، فضرب المثلَ بالدَّجاج من بين جميع الحيوان، وترَكَ ذِكر الكلاب وهي له مُعْرِضة فقال:

ي قُرَاها مِنَ الدَّجَاج

ولو قال:

ي قُرَاها مِنَ الكِلابِ

لكان الشِّعْر صحيحاً مُرضياً.

وعلى أنَّ الكلابَ متى شبعت، لم تعرض للعَذِرة، والأنعامُ الجلاّلةُ وكذلك الحافِر، قد جعلت ذلك كالحَمْض إذا كانت لها خَلّةٌ؛ فهي مَرَّة تتغذَّى به ومرة تتحمَّض، وقد جاء في لحُوم الجَلاّلة ما جاء.

رغبة الملوك والأشراف في الدجاج

وملوكُنا وأهلُ العيش مِنَّا، لا يرغبون في شيءٍ من اللُّحمان رغبَتَهم في الدَّجاج، وهم يقدِّمونها على البطِّ والنواهض، والقَبَج والدُّرَّاج، نعم وعلى الجِداء والأعْنُق الحُمْر من بَنَاتِ الصَّفَايا، وهم يعرفُون طبعها وسوء قُوتِها، وهم مع ذلك يأكلون الرَّواعِيَ كما يأكلون المسمَّنات.

الشبوط أجود السمك وأطيبُ ما في الأنهار من السمك، وأحسنُها قُدوداً وخَرْطاً، وأسبطُها سُبُوطاً، وأرفعُها ثمناً وأكثرُها تصرُّفاً

في المالح والطريّ، وفي القَريس والنَّشوطِ الشَّبُّوطُ، وليس في الماء سمكة رفيعةُ الذكر ولا ذاتَ خمول، إلاّ وهي أحرص على أكّل العَذِرة منها، وإنّها في ذلك لأشدُّ طلباً لها من الخِنزير في البرِّ، والجرِّيِّ في البحر.

لحم الخنزير وقد عَلِم الناسُ كيفَ استطابةُ أكلِ لحُومِ الخنازير، وأكلُ الخنازيرِ لها، وكيف كانت الأكاسرة والقياصرةُ يقدِّمونها ويفضِّلونها، ولولا التعبُّدُ لجَرَى عندنا مَجْرَاه عندَ غيرنا.

وقد علم النَّاسُ كيف استطابةُ أكل الجِرِّيِّ لأذنابها.

ما قيل في الجري وفي الجِرّيِّ: قال أبو كَلَدة: هو أدْم العُميان، وجيِّدٌ في الكَوْشَان ودواءٌ للكليتين، وصالحٌ لوجَع الظهر وعَجْبِ الذّنب، وخِلافٌ على اليهود، وغيظٌ على الروافض؛ وفي أكله إحياءٌ لبعض السُّنن، وإماتةٌ بعض البدَع، ولم يُفْلجْ عليهِ مُكثِرٌ منه قطُّ، وهو محنةٌ بين المبتدِع والسُّنِّي، هلك فيه فِتَّان مذْ كانت الدنيا: محلّلٌ ومحرِّم.

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجِلدِ، ناقص الدّماغ، يلتهم العَذِرة ويأكل الجرذان صحاحاً والفأرَ، وزَهِمٌ لا يُستَطاعُ أكله إلاّ محسِيّاً ولا يتصرَّفُ تصرُّفَ السمك، وقد وقع عليه اسم المِسْخ، لا يَطِيب مملوحاً ولا ممقوراً، ولا يؤكل كباباً، ولا يُختارُ مطبوخاً، ويُرمَى كلُّه إلاّ ذنَبه.

والأصناف التي تَعرض للعَذِرة كثيرة، وقد ذكرنا الجلاَّلاتِ من الأنعامِ والجرِّيِّ والشَّبُّوطِ من السمك، ويعرض لها من الطير الدَّجاجُ والرَّخَمُ والهَدَاهِد.

الأنوق وما سمي بهذا الاسم وقد بلغ من شَهوة الرَّخَمَة لذلك، أنْ سمَّوها الأنوق، حتى سمَّوا كلَّ شيءٍ من الحيوان يعرض للعذِرة بأنوق، وهو قول الشاعر:

تَدَرَّى واكتحل فنـثـلْ
ىُرَنْبَى والجُعَل

ما قيل من الشعر في الجُعَل

ولشدَّة طلب الجعل لذلك قال الشاعر:

الأقوام يَربَؤُهم في حَـرَس

وكذلك قال الآخر:

وأكَـلْ ألفَيْ جُعَل

هذا البيتُ يدلُّ على عِظَم مقدار النَّجْو، فهجاه بذلك، وعلى أنَّ الجُعَل يقتات البَراز.

وإنما قلت هذا لأنَّ الشعر يَرتفِع عنه، والشعر قوله -إن كان قاله- وفي مثل ذلك يقول ابن عَبْدَل:

ةِ المرضعُ الغر و كـلـثـوم

عـنـد صـديقٍ مـأدُوم
حاجبَ الـشـم ـِ المَـهْـدُوم
ـنـازير مـنـه مـركـوم

:وقال الراجز في مثل ذلك

ـَوْمَـعَـا ي جَعْجَعَـا
غَـى أنْ يَنْجَعا واسْتَرْجَعا
كلباً أبقعا

:وفي طلب الجُعَل للزِّبْلِ قال الراجز وهو أبو الغُصْن الأسَدي

ـتُ الحرجـه ـنِ غَمَلّجـه
ـلال أرَجَـه ـسَاءِ السمجه
ـشجـه ـِّ مُدحرجَـه

:تقول العرب سَدِكَ به جُعَله، وقال الشاعر :وقال يحيى الأغرّ

ثَـبَّ لِـي جُـعَـل ـغْرَى به الجُعَلُ

وكان أصلُه ملازمة الجُعَل :يضرب هذا المثلُ للرَّجل إذا لَصِقَ به من يكره، وإذا كان لا يزال يراه وهو يهرُب منه، قال يحيى

.لمن بات في الصحراء، فكلّما قام لحاجةٍ تبِعه؛ لأنَّه عنده أنَّه يريد الغائط

:القرنبى وفي القَرَنْبَى يقول ابنُ مقبل

ـاتِ بالليل قابعاً ـلقْتُه مجاعره

.دويْبَّةٌ فوق الخُنْفَسَاء ودونَ الجعل، وهو والجعل يتْبعان الرَّجلَ إلى الغائط :الاجتماع والتقبض، والقرَنْبى :والقبوع

الهدهد وخبث ريحه ومن الطَّير الذي يُضارع الرَّخمة في ذلك الهدهدُ، منتنُ البَدَن وإن لم تجدْه ملطخاً بشيءٍ من العَذِرة؛ لأنَّهُ

يبني بيته ويصنع أُفحوصَه من الزِّبل، وليس اقتياتُه منه إلاَّ على قدْر رغبتِه وحاجته في ألاّ يتَّخذ بيتاً ولا أُفحوصاً إلاّ منه،

.فخامَرَه ذلك النَّتنُ فَعَلِق ببدنه وجرى في أعراق أبويه؛ إذ كان هذا الصنيع عامّاً في جنسه

:وتعتري هذه الشَّهْوةُ الذّبان، حتَّى إنَّها لو رأتْ عسلاً وقذراً، لكانت إلى القذَر أسرعَ، وقال الشاعر

ـأُطِـيلَ كـأنَّـه ـلْهُمومَ عَلَى بَثَق
ـذُبابٍ على خِرأ ـعَقُور على عَرْق

ويزعمون أنَّ الزُّنبورَ لهِجٌ بصيد الذّبان، ولا يكاد يصيده إلاّ وهو ساقطٌ على عذرة لفَرْط شَهْوتِه لها ولاستفراغها، فيعرِف

وإنَّما قلنا ذلك لأنّا لم نجِدْه يرومُ صيدَه وهو ساقِطٌ على ثمرةٍ، فما دونها في :الزُّنبور ذلك، فيجعل غَفلتَه فُرصة ونُهْزَة، قالوا

.الحلاوة

:شعر في الهجاء وقال أبو الشَّمَقمق في ذلك

جـاءكـم الأح ـِ والـقـذِره
في صـورةِ الفي ـن والبـقَـره

ـ حَلْقتكم — إلـى عَذْره

:وقال حَمَّادُ عَجْرَد في بشَّارِ بْن بُرْدٍ العُقَيليّ

ـهاً لـه — خَلْقِهِ صَوَّرا
جـهاً ولا — لا مَكْسِرا
ـثلـه — أو أقـذرا
عنبراً لنتَّنت — ا
ـكِيّاً إذَنْ — يه خـرَا

:وقال أبو نُواس في هِجَاء جَعْفر بْن يحيى بن خالد البرمَكيّ

ـ من خِـرَا — اعْطَى الخِرَا

:وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له جُلمود بن أوس، كان مُنتنَ العرق

ـضـي تـألَّـقـا — ـه وَبــرَقـا
ـ بـنَ أوس غَـرَقـا — صـارَ أحـمَـقـا
ـرَقـاً وخِـرَقـا
ـدٍ في بشَّار
إليك فمثلُ ال — ـ أنْـتَ لا الإنْـسَـان
ـتَ شَـرٌّ مـن الكل — بِـكُـلِّ هَــوَان
ـ أطـيَبُ مِـنْ ري — ـيان ذي الـثُّـبَّــان
ـعراء في عبد الله بن عُمير
ـزْوَةً تركْتَ له — وْرَبِ الـمـتـخـرق

:وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار

ـي رَمْسِـه — ـن رجْسِـه
بُـردٍ ولا — أو تَعسـه
ـتـرارٌ بـه — ـن مَسِّـهِ
ـبرْ على ضَغْمةٍ — ضِـرْسِـهِ
ـليلِه — أمـسِـهِ
ـن غَيِّه — في رَمْسِه
ـهاً لـه — ـن إنْسِـهِ
في نَتْنِـه — أو خمْسِهِ
ـن ريحـهِ — ـسِّـهِ
ـن وَجهـه — فـسـهِ
ـ عُـودِه — جنـسـهِ

.وعودُه أكْرَمُ من عُودِه :وأنا حفظك الله تعالى أستظرف وضعَه الخنزيرَ بهذا المكان وفي هذا الموضع، حين يقول

:قَبَحه الله تعالى، وقبح من يشتهي أكله، وقال حمَّادُ عجرد في بشَّار بن بُرد ?وأيُّ عودٍ للخنزير

ـ رُؤيَا فـأوَّلَـهَـا — ـانِ ولا أثَـرِ
ـة لـلّـه سـابـغة — ـوفاً عن الـنَّـظَـرِ
لكنـتُ كمـا :وقال — في الضِّيق والعُسُـرِ
ـيين مـجـتـهـداً — غيرَ مُـؤتَـجَـرِ
أقنَعْ بـفـعـل أبـي — الـجَـدِّ أو بَـقَـرِ
ـقـى شـقـاءَهُـمُ — والإدلاج وَ الْبُـكَـرِ

من كلِّ مَكْسَبَةٍ ... بابٍ من القَدَرِ
من غير ما طلب ... تَ في صِغَري
شيءٍ فأذخره ... رِ ومن كِسَرِ
لو لم أكن زَمِناً ... شيئاً سوى الحَجَرِ
لهُ مِن رجُلٍ ... على الغُرَرِ
يءٍ تعيش به ... أدققتَ في النظر
ت عن شيخ صِبْيَتِها ... هامات والعُجَر
مي ومنقصتي ... نَتْن ومن دَفَرِ
ٌ وهي صادقة ... عنها أبا زُفَرِ
المستطبٌّ بها ... مولى الغُرِّ من مُضَرَ
دُلاًّ أو أذلُّ وفي ... نزير واليَعَر
تشويه منظره ... أبهى منك في الصُّوَر

:ووصف ابن كريمة حشّا له، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه فقال

اللّه يطرقني ... ل غير فتَّار
يَعرفها ... زن النَّارِ
ادَنِي بدَعاً ... إضْرَاري
ثُلاًثُ كلُّهم ... قُرْبه جاري
سَامِ أقتَلهُ ... يدخُلنْ داري
أنفي لكثرتِه ... رُ إضماري

ثروة المحلول من الشعر

أمَا إنِّي لا أحفَظُ إلاَّ بيتاً :فهاته، قال :بيتاً واحداً اشتهيته فحفظتُه، فقيل له :فقال ?ويلكَ، ما حفظتَ بيتَ شعرٍ قط :وقيل للمحلول

:فَأَنْشِدْهُ، فَأَنشَدَهم ?فكيف رزق منك هذا البيت :واحداً، قيل

تَسِيلُ من مَخْطَةٍ مَجْدُوم

بلَغه أن ناساً من عبد القيس يتحدَّوْنَه برجلٍ منهم، فمضى إليهم -وكان أنتنَ الناس إبطاً -وزعم أصحابنا أنّ رجُلاً من بني سعد

:شدّاً، فوافاهم وقد أزْبَدَ إبطاه، وهو يقول

اعتينا ... نُ المخنُونا
ءِ الجَبينا ... غُضُونا
يَأبطونا

:ومتَح أعرابيٌّ على بئرٍ وهو يقول :قال

مُنَانِي ... رَانِ

:وقال آخر

الَ المدى ... وَاميخ القرى

ويقال إنّهُ ليس في الأرض رائِحة أنتنُ، ولا أشَدُّ على النفس، من بَخَر فمٍ أو نَتْن حِرٍ، ولا في الأرض رائِحة أعصمُ لرُوح من

.رائِحة التفاح

فما نرى النَّاسَ يَعافُون تسميدَ بُقولِهم قبل نُجومِها وتفتُّق بزورها ولا بعد انتشارِ ورقها وظهورِ موضع اللُّبِّ :وقال صاحب الكلب

وعلى أنَّهُم ما ?منها حتَّى ربَّمَا ذرُّوا عليها السَّمادَ ذرّاً، ثُمَّ يُرْسَل عليها الماءُ حتى يَشْرَبَ اللُّبُّ قُوى العذرة، بل مَن لهمْ بالعَذِرة يصيبونها إلاّ مغشوشةً مُفْسَدَة، وكذلك صنيعُهم في الريحان، فأمَّا النَّخْلُ فلو استطاعوا أن يَطْلوا بها الأجذاعَ طلياً لفعلوا، وإنَّهم لَيُوقدون بها الحَمَّاماتِ وأتاتينَ المِلاّل، وتنانير الخبز، ومن أكرم سمادهم الأبعارُ كلُّهَا والأخثاءُ إذا جفَّت، وما بينَ الثَّلط جَافاً والخثاء يابساً، وبين العَذِرة جافَّةً ويابسة فرق، وعلى أنَّهم يعالِجون بالعَذِرة وبخرْء الكلب، من الذُّبحة والخانُوق في أقصى مواضِع التقزُّز وهو أقصى الحلق، ومواضع اللهاة، ويضعونَها على مواضع الشَّوكة، ويعالجون بها عُيون الدَّوابّ.

إنَّمَا اشتُقَّ الخير من الخُرْء، والخرء في النوم خير، وسَلْحَةٌ مُدركَةٌ ألذُّ مِن كَوْمِ العَروس :أقولُ لمسبِّح الكناس وقال مسبّح الكناس ليلة العُرس، ولقد دخلتُ على بَعْض الملوك لبعض الأسباب، وإذا به قُعاصٌ وزكام وثِقَلُ رأس، وإذا ذلك قد طاولَه، وقد كان بلغني أنَّه كان هجَر الجلوس على المقعدة وإتيانَ الخلاء، فأمرتُه بالعَود إلى عادته، فما مَرَّت به أيامٌ حتى ذهب ذلك عنه.

وزعم أنَّ الدنيا مُنتِنة الحِيطان والتُّرْبةِ، والأنهار والأودية، إلاّ أنَّ النَّاسَ قد غمرهم ذلك النتْن المحيط بهم، وقد مَحَقَ حِسَّهم له فمن ارتابَ بخبري، فليقفْ في الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك في أوَّل ما يخرجُ إلى الدنيا، عَنْ بيتٍ :طولُ مُكثِه في خياشيمهم، قال مطيَّب؛ وليتشَمَّمْ تشمُّمَ المتشبِّث، عَلى أنّ البقاعَ تتفاوت في النتن، فهذا قولُ مسبّح الكنَّاس.

عصبية سلمويه وابن ماسويه

وزعم لي سَلْمَوَيه وابن ماسَوَيه مُتطبِّبا الخلفاء، أنَّه ليس على الأرض جِيفةٌ أنتنُ نَتْناً ولا أثْقَبُ ثُقوباً مِن جيفةِ بعير، فظننتُ أنَّ الذي وهَّمهما ذلك عَصَبِيَّتُهُمَا عليه، وبغضُهما لأربابه، ولأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله، هو المذكورُ في الكتب براكب أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفها :جِيَف الكلاب، فامتحِنَتْ فقيل له :فقيل ?أيُّ الجِيَفِ أنتن :البعير، ويقال إن الحجَّاج قال لهم الذكورُ منها، فصلب ابن الزُّبير بين جِيفَتَيْ سنَّورين ذكرين.

أطيب الأشياء رائحة وأنتنها

وأنا أقول في النتن والطِّيب شيئاً، لعلَّك إن تفقدتَه أن توافقَني عليه وترضى قولي، أمَّا النتن فإنِّي لم أشمَّ شيئاً أنتنَ من ريح حُشٍّ مقيَّر، يبول فيه الخِصيان ولا يُصَبُّ عليه الماء؛ فإنّ لأبوالهم المترادفة المتراكبة ولريح القار وريح هواء الحشِّ وما ينفصل إليه جِهةٌ من النَّتْن ومذهباً في المكروه، ليس بينه وبين الأبدان عمل، وإنَّما يقصِد إلى عين الرُّوح وصميم القلب، -من ريح البالوعة ولا سيَّما إذا كان الخلاءُ غيرَ مكشوف، وكان مغموماً غيرَ مفتوح، فأمَّا الطِّيب فإني لم أشْمَمْ رائِحة قطُّ أحيا للنفس ولا أعصَمَ للرُّوح، ولا أفتَقَ ولا أغنج، ولا أطيب خِمرة من ريح عَروس، إذا أُحكِمت تلك الأخلاط، وكان عَرْف بَدَنها ورأسِهَا وشعرها سليماً، وإن كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنّك ستجد ريحاً تعلَمُ أنّهُ ليس فوقَهَا إلاّ ريحُ الجنة.

ما قيل في الظربان

:ومما قالوا في النّتْن، وفي ريح جُحْرِ الظّرِبان خاصَّة، قول الحكم بن عَبْدَل

عَرُوض مَشَقَّةٍ ... نَاجِل أهْوَنُ
ض أمِّكَ قُلفلٌ ... الـدَّنْدِنُ
منك حقيقةٌ ... ي لا يُحْـزَنُ
لأمير ونحِّـه ... أنْفِكَ أهْرَنُ
جُحْرٌ مُنتِنٌ ... حمَّدُ أنـتَنُ

حينَ رمى قوماً بأنّهم يَفسُون في مجالسهم، لأنّ الظَّربان أنتنُ خلْق الله تعالى -وذكر الظّربان -وقال الربيع بن أبي الحقَيق

فَسْوةً، وقد عَرَف الظربانُ ذلك فجعَلَه من أشَدِّ سِلاحِهِ، كما عرَفَتِ الحُبارَي مَا في سُلاَحِها من الآلة، إذا قرب الصقر منها،

والظّربانُ يدخل على الضبِّ جُحرَه وفيه حُسوله أو بيضُه، فيأتِي أضيقَ موضعٍ في الجُحر فيسدُّه بيديه، ويحوِّل استَه فلا يفسو

.ثلاثَ فَسَوَاتٍ حتى يُدَارَ بالضبِّ فيخِرَّ سكرانَ مفشِيّاً عليه، فيأكله، ثم يقيم في جُحره حتَّى يأتِيَ على آخِرِ حُسوله

إنّه ربَّمَا دخَل في خِلال الهَجْمة فيفسو، فلا تتِمُّ له ثلاثُ فَسَواتٍ حتى تتفرَّق الإبل عن المبْرَك، تتركه وفيه قِرْدان :وتقول العرب

.فلا يردُّها الراعي، إلاّ بالجَهْدِ الشديد

:فقال الربيع، وهجاهم أيضاً بريح التُّيوس

الـهياج ... ر شـديدِ
دُوركم ... الرَّصُودِ
جلسونَ ... ـن نَـدِيدِ
تُعْرَفونَ ... ح الخدودِ

إذا وقعَ بين الرجُلين شرٌّ -أفسى من الظّربان ويسمّى مفرِّقَ النَّعَم، يريدون من نتْن ريح فُسَائه، ويقال في المثل :ويقال :قال

أنتَن مِنْ ظربان لأنَّ الضبّ إنَّما يخدع في جُحْره ويُوغِل في سِرْبه لشدَّة طلب :فسَا بَيْنَهُمَا ظَربَان، ويقال :-فتباينَا وتقاطعَا

:الظّربان له، وقال الفرزدق في ذلك

الجحيم لأصبَحَتْ ... عنِّي تثيرها

.الظَّربان، يريد هذا المعنى، كما يسمى كل حِمَّانِيٍّ ظَربَاناً :وكان أبو عُبيدة يُسمِّي الحِمَّانيَّ صاحِبَ الأصَمِّ

:وقال ابن عَبدَلٍ

لأمير ونحِّه ... أنْفِكَ أهْرَنُ
جُحرٌ مُنتِنٌ ... حمد أنتن

:في شعره الذي يقول

نِي فشفيتُـه ... القصيدَ ويَلْحَنُ
لام كـأنَّمـا ... ـن تُـعْرَنُ
كنتُ أمـيرَهـم ... أشَاءُ وأسجُنُ

اص محمَّدٍ التقرُّب تجبُنُ
عَروض مَشَقَّةٍ ناجِل أهْوَنُ
ض أمِّك فلفلٌ الدِّنْدِن
منك حقيقَةٌ ذي لا يُخْزَنُ
لأميرِ ونحِّهِ أنفِك أهْرَنُ
جُحْرٌ منتنٌ حمَّدُ أنتَنُ
رُ موقَّقٍ حة مَعْدِنُ
تَجِدْهُ عالِماً ي لا تحزُن
يومٍ عفصةً داك وتحسِنُ
باب واحدٍ لا تُخْتَنُ
مماً فدفنتَها نُ آدَمَ يُفتَنُ
غيرُ مُدَرْهِمٍ ي القِيان وتزْفِنُ
بَةً بصريَّة يها السَّوْسَنُ

وقال ابن عبدل أيضاً:

خانُ فيه عَطِين جِلْدِ
جُلٍ أتاني وفَ عِندي
ل عليه، ي وحَمْدي
عنِّي كأنِّي رأس صمْدِ
ةٍ ليدنو ير بُعْدِ
ن يميناً نَّ رَدِّي
من تميم جوتَ حَمدي
جدتُ ريحاً قريبَ عَهْدِ
انَ نَتْنِ هلَ نَجْدِ
ردِدتُ أنِّي ي ببُعْدِ
ةُ من جَواهُ ع بزَنْدِ
تراحَتْ سيرِ قِدٍّ
يَّ حتَّى غيرَ عَمْدِ
يه دُبابٌ ه بقَنْد
ن موتاً له بِوردِ
يّ فَوْحاً المُغِدِّ
فقلت له: ارِ رَنْدِ
لاً ولكنْ غير سَرْدِ
دقَ أدنى ذِب وجَحْدِ
عَفَجٍ طحور مُغَدِّي
ة أخدَريٍّ نياب وَرْدِ
ن فيكَ حتْفي ت أهدي
مغنِّياتٍ كل فِندِ
لها إذا ما شِيبٍ ومُرْدِ
ولم يُصبْني سعيد جدٍّ
ذا :وقلتُ له جَوفِ مَهْدِي
فقلت له: بجَهْدِ
قاءً :فقال ستُسْدي
لت له وأبدي
ر كَلْبٍ ون كَنَعْدِ

ثٍ وثُومِ | دِماغ فَهْدِ
ِ وابن عِرسِ | ِ بَزْرِ فَقْدِ
لسان صقر | وّان رَقْدِ
خول منـه | ـرِ قِرد
شـعيرِ | لـبَـرْدِ
ت منـه | ار ونَدٍّ
ُ وأنتَ حيٌّ، | ـرَ رشـدِ
ازدردْهـا | ِ أيّ زَرَدِ
على مِصَـلٍّ | ـمَـعِـدِّ
مذْ قعَدْنـا | رَعــد
عـنـدي | له سيُجدِي
وتشتـهـيه | َّ المقدِّي
ِلِ دِقْلـى | لصَفٍ ورَنْدِ
ُن فيهِ | اهُ بَـعْـدِي

أشعار العرب في هجاء الكلب

سنذكُر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرّداً على وجهه، ثمَّ نذكر ما ذمُّوا من خلالهِ وأصنافِ أعماله، :وقال صاحب الديك

:وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكر هجائه في الجملة، قال بشَّار بن بُرْد

فخرتَ وتَوْلَباً | سُويدٍ وتَولبِ

:وقال بشَّارٌ أو غَيره

على الحيِّ شـاءَهُـمْ | ب في كلِّ مَطْعَـم
َعْبٍ من فَضْلِ سُؤْرِهِ | ـيدَين وبـالـفـم

:وقال ابن الذئبة

ِ لا يَثُبْ به | ِ جِـذْبـه
هَوانَ كلبِهِ

:وقال آخر

ـبُّ بـوجــهــه | ـبـاً يُهـارش أكـلُـبـا
لـان بـيـنـي وبـينَــه | كـان مُـجْــربــا
بناً له فشبَّهه بجرْوِ كَلْبٍ فقال
أشْقَحْ | ب لـم يُفَـقــحْ
ِقُمْ فـيـنـــبــحْ | جةِ الـمـسـتـفـتِـحْ

:وقال أبو حُزَابة

الخَفـاءُ | الفِدَاءُ
والأكفاءُ | اللَّفَاءُ
ـعـاءُ | رِّدَاءُ
ـمـواءُ | ِ اءُ

:وقال عبد بني الحسحاس، وذكر قبح وجهه فقال

ثيِّينَ غُدْوةً | ير جميل

ئْتُ بِفَوقِه غيرَ قليل

:وقال أبو ذباب السعدي في هوان الكلب

َ من تميمٍ ن الضَّبابِ
ٍد ريفٍ عِذابِ
ها مُلوكاً الَ الكِلابِ
دَى تـميم كلّ بـابِ

:فاشتق هجاءه من نسبه فقال -وجرير من بني كليب -وأراد اللعين هجاء جرير

ِ بني كُليبٍ ني عِقال
ه خبيثٌ في سَفالِ
لمتْ مَعَدٌّلئيمُ الأصل من عمٍّ وخالِ
ثُماني صَـرَدَ الـنـبـال

وقال رجلٌ من همْدان، يقال له الضَّحَّاك بن سعد، يهجو مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتقَّ له اسماً من الكلب فجعله

:كلباً فقال

ِ فقلـتُ لـه ا همُّهُ الهـربُ
ة الملك إن قبلت ا دينٌ ولا أدبُ
ون العذابِ، وإن دونَه كَـلِـبُ

:وقال آخر وجعل الكلبَ مثلاً في اللُّؤم

ن ليلِها ثمّ عرّسَتْ ج ألأمَ مِنْ كلـبِ

:وكذلك قول الأسود بن المنذر، فإنّه قال

ولـه ـابِ
ٰهـداً الكلابِ

:وقال سحيمة بن نعيم

ٍ وكلـبةٍ لْبُيوتِ هَرِيرُ

:وقال النَّجْرانيُّ في ذلك

رجَتْنِي زوجتي رير الكَلبةِ
ِ حِرْفَـتـي تْ جَـرتـي
بالـحـسـرةِ ِب الضَّـرَّة

الفلحس والأرشم

رجلٌ من بني شيبان كان :فلان أسألُ مِنْ فَلْحَس، وفَلْحَسٌ :ويقال للكلب فلحَس وهو من صفات الحِرْص والإلحاح، ويقال

.حريصاً رغيباً، ومُلحِفاً مُلِحّاً، وكلُّ طُفَيليٍّ فهو عندهم فَلْحَسٌ

:الكلب والذئب، وقد اشتقَّ منه للإنسان إذا كان يتشمَّم الطعام ويتبع مواضعه، قال جريرٌ في بعضهم :والأرشَم

هي ضَيفة لِّيافةِ أرشَما

:وقال جريرٌ في استِرواح الطعام

فةٌ أحلامُهم | ﻭ الألـوان
؛ أو شَـرْبـةٍ | مْعُهم بعُمان
ـنـاتِـهـمْ | يح كلِّ دُخان

:وقال سَهمُ بن حنْظلَة الغَنَويُّ في ذلك

ُ الـكِـلا | بُ إلاَّ هريرَا
الـبـغـا | الحَـمـيرا
ـطّـارَةُ | اَ كـثـيرا

بين جرير والراعي

إنَّه قد طال وقوفُك على هذا الكلب الكُلَيبيّ، فإلى :ومرَّ جريرٌ يوماً بالمِرْبَد، فوقف عليه الراعي وابنه جنْدَل، فقال له ابنه جندل

والله لأثقِلنَّ رواحلك فلما أمسى أخذ في هجائه، فلم يأته ما :وضرب بغلته، فمضى الراعي وابنه جندل، فقال جرير ?متى

:يريد، فلما كان معَ الصبح انفتَح له القولُ فقال

كَ من نُميرٍ | لا كِلابـا
بنـي نُمـيرٍ | ﹺ إذاً لذَابـا

:ثم وقف في موقفه، فلمَّا مرَّ به جندلٌ قبض على عِنان فرسِه، فأنشده قوله، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت

ـنـو نـمـيرٍ | ستِ أبيك غابا

.يقولون والله شرّاً :فأدبَرَ وهو يقول :قال

:-وضرب بالكلب المثلَ في قُبْح الوجه -وقال الشاعر

هَجٍ فتبرقعَتْ | قعت ضَبَّارا

.اسم كلب له :وضَبَّار

أحبُّ أهلي :وتقول العرب .إنّ لكلِّ رُفقةٍ كلباً، فلا تكنْ كلبَ أصحابك :أمثال في الكلاب وقال كعب الأحبار لرجل وأراد سفراً

الكلابَ على البَقر، ومن أمثالهم في :إليّ كلبهم الظاعن، ومن الأمثال وقع الكلبُ على الدِّئب ليأخذ منه مثل ما أخَذ، ومن أمثالهم

كلبةُ قومٍ نبحَت على جيشٍ مرُّوا ليلاً وهمْ لا يشعُرون بالحيِّ، فاستباحوهم :على أهْلِها دلّتْ بَرَاقِشُ، وبراقش :الشؤم قولهم

.واستدلُّوا على مواضعهم بنباحها

:قال الشاعر

، ثورٍ | فماتا

قتيل الكبش وقتيل العنز

ألا تتعجبون من الضحَّاك بن قيس يطلب :قد يموت الناسُ بكلِّ شيء، وقد قال عبد الملك بن مروان :وقال صاحب الكلب

ووطئتْ أباه عنْزٌ -الخلافة ونطح أباه كبش فوُجِد ليس به حَبَضٌ ولا نَبَض، وقال عَرفجة بن شريك يهجو أسلَم بن زُرْعة

:فقال -بالمِربد فمات

َ منِّيَ معشَري | أنْ أتكلّـمـا
ْز هل أنت ثائرٌ | الزَّرِيبةِأزنمـا

:وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى

إلى الضَّرْبِ | إلى الكلْبِ
ُ وجـهَـه | للـسَّـبِّ
ه الـهـوَى | صـبٍّ
فـي دينـهِ | الصُّلْـبِ

:ولم قال :لا، قلت :قال ?أليس بُقْعُ الكلاب أمثلَها :وقلتُ لأبي عبيدة :قال

ما تَـوَاصَـوْا | من بُقْعِ الكِلابِ

:ليس هكذا قال، إنما قال :قال

سُودِ الكِلابِ

:ألا ترى أنّه حين أراد الهجاء قال

مدَ شـهـرٍ | بُقْعُ الكِلابِ

:ويدل على ذلك قول الجَدَليِّ

جـواء سـويقة | عـلاه أجـزع
ـاوِرَ أهـلـه | مرأى ومسمـعُ
عونَ بالرَّيِّ لا يني | المنيَّةِ يلـمَـعُ
ي صبراً فقلتُ | أرى الصَّبرَ ينفعُ
َ قُسِّمَ بَـيْنَـهُـمْ | والحزْنُ أجمعُ
هنيئاً وأصبحَـتْ | ء بالرمل تَضْبَعَ
َ علج كـأنَّـمـا | ا مـاتَ أبـقَـعُ

:فلم قال الشاعر :وقلت :فقد بيَّن كما ترى أنَّ الأبقعَ شرُّها، قال :قال

ِ بُقْعِ الكلاب فقد | ي الأرض فُلاَّلا

أرسلتَ أسداً على سود :وإذَا صغّر شأنَ من هَزَموا فقد صغَّر شأنَ الممدوح، بل إنَّما قال ?فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم :قال

.الكلاب

.وإنَّما جاء الحديثُ في قتل سُود الكلاب، لأنَّ عُقُرَها أكثرُ ما تكون سوداً، وذلك من غلَبة أنفسها :قال

.وليس في الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحِمارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسان، إلاّ والسُّودُ أشدُّها أسْراً وعَصَباً، وأظهرُها قُوَّةً وصبْراً

:وقال أبو سعد المخزومي في هجائه دِعبلاً

ـعيدٍ إنَّـهـا | نْ تـتـنَـقّلا
حُرْمَةِ دِعْبـلِ | لا يساوي دِعبلا

:وقال ابن نوفل

اءَ تنقلُ سَوءةً ءةٍ لا تَهابُها
ِ سَلَمُ بنُ جَنْدَلٍ لرِّجال كلابُها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفرَ بنَ يحيى:

أطيل كـأنَّـه لهموم على بثق
ذباب على خِراً عَقُورٍ على عَرْق

وقال أبو الشَّمقمق:

وفـعـالٍ ى والعطيَّهْ
مكانـي تـحيَّهْ
ارثةِ اللؤ لـطيَّهْ
ضَ عنِّـي بةٍ سُوسِيَّهْ
بـغلٍ ةٍ مِصريَّهْ

وقال أيضاً:

لمخـازي يْس الضروطِ
فيلُ فيه النَّشوط
يرَ فـيه بَـثْق رُوط
باب قلـب بالـخُيوطِ
قرُ بـادٍ بـقوطِ
إلى المَعَالِـي في هَبُوط

وقال أيضاً في ذلك: من البسيط

الخنزير في سعةٍ في يهماءَ دوِّيَّهْ
في حال فاقتـه حـال عـينـيَّه

وقال جرير بن عطية، يهجو الصَّلَتان العبديّ:

يغسِل كُحلـهـا هِ في كَرَبِ النخلِ

فأجابه الصَّلَتَانُ فقال:

النَّخْلُ مـالـنـا لو كان ذا نَخْلِ

يعيِّره جريرُ بأنَّه كان هو وأبوه من أصحاب النَّخْل.

وقال وضّاحُ اليمن:

انـاً وفي سكري بةٌ ومستمِـعُ
علمٍ ومَقْدِرَةٍ النَّجْدِ مُطَّلَـعُ
عي ركـائبَـه لكلب والرُّبَـع
تشتدُّ عُقْبَتُـه نعْلِه قطَـع

وقال محمد بن عباد الكاتب مولي بحيلة، وأبوه من سبى دابق وكاتب زهير، وصديق ثمامة، يهجو أبا سعد دعى بني مخزوم، وبعد أن لقي منه ما لقي:

ذي اس رْبَـا
ا لأه إرْبـا

ـفـي ... ـرْبَـا

ـبـب ... أن تُسَبَّا

فلـي ... ـن كَلْبا

مكـا ... اً وغربا

ك فـال ... صـْبـا

وقال آخر يصف كلباً:

خَدِيٍّ تركـتُـه ... خَشية الحَدَثان

بيني وبـينـه ... السُّرى فدعاني

فوصفه كما ترى أنَّه يبدي له البغضاء.

وقال آخر:

ن ليلها ثم عرَّست ... ج ألأمَ من كلـبِ

وقال راشِد بن شهاب اليشكُريُّ:

ـمـالٌ عَـرِيَّةٌ ... لجزور ولا بَرَمْ

وقال كُثيِّر بن عبد الرحمن، وهو يصف نعلاً من نِعال الكرام:

ـبِ الكلبَ ريحُـهـا ... مجلس القَوم شُمَّتِ

إنَّما وصف تيساً :وقال اللّعين في بعض أضيافه، يخبر أنّه قراه لحمَ كلب، وقد قال ابنُ الأعرابي:

داءَ بطـنِـه ... ـهـنَّ زوائدُ

شَعير عليهمـا ... ـال أعقدَ سافِدِ

وقال خُلَيد عَيْنَين وهو يهجو جرير بن عطية ويردّ عليه:

ن كان مالـنـا ... لو كان ذا نخل

وقال دِعبل بن عليّ:

عن حيلةٍ ... ـتُـرْبـهْ

أهلُ العفا ... ائهم شَرْبَهْ

رزْقُـه ... كـلـبـهْ

من هُجِيَ بأكل لحوم الكلاب ولحومِ الناس

قال سالم بن دَارة الغطفانيُّ:

لِـمَـهْ ... ه حرَّمه

فما أكلتَ لحمَه ولا دَمه وقال الفرزدق في ذلك:

ماً ببلـدةٍ ... فهو آكلُه

وقال مساور بن هند:

غُـلامـاً ... الغـلام

ي دُبَـير ... من الطَّعام

مُلقيَاتٍ ... م براثنُها.

فهذا الشعر وما أشبَهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنَّما قراهم كلباً ولم يَقْرِهم تيساً، وأنَّ الصوابَ خلافُ ما قال ابْنُ الأعرابيِّ.

وقال مُساور بن هند أيضاً:

ـ العامَ فقْعس   ـلابِ وعامُها

وقال شريَح بن أوس يهجو أبا المهوّش الأسدي:

ـراق وبُـرَّه   ـ شيَّطه الجمْر

أكل لحوم الناس

وما قيل في ذلك من شعر

وقال معروفٌ الدُّبيريّ في أكلِهم لحومَ الناس:

ـا فقعسيّاً   طعـامـا
فـدَعْـهُ   ـعَ الحراما

وقد هُجيت هذيلٌ وأسد وبَلْعنْبَر وباهلة بأكلِ لحوم الناس، قال حسَّان بن ثابت يذكر هذيلاً:

ـرفاً لا مِزَاجَ له   ـ عن دارِ لِحْيان
ـ الجار بينـهـم   لإنسـانُ سِيَّان

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل:

ـة بن مـخـدَّم   أحـدٌ بـعـدُ
ـ خَمس وأربع   ـرُ وانسبَا الجِلْدُ
ـرئيسـكـم   ـالكَ ماشُـكْـدِ

وقال الشاعر في ذلك في باهلة:

اهـلـه   ـوكاهلَه
ق ثاكِلَه

وهجا شاعر آخر بَلْعَنبر، وهو يريد ثَوْبَ بن شَحْمَة، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير، فأمَّا مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خيبري فعيَّر الشاعرُ ثوب بنَ شحمة بأكل الرجلِ العنبريِّ لحمَ المرأة إلى أن أتى ثوبٌ من الجبَل فقال:

ـ عِـلاجْ   النِّعاجْ
كالعاجْ

فلما عيَّره قال ثوب:

ـدراكِ ما حسبي   الزاد أضلاعي
ـشَـى بـوادِرُه   ـلُ السَّيْفِ قَرَّاع

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان:

ـفري بنـابـهـا   ـ مِرَاراً وتَكدِمُ
ـلَّتْ بعَرْقِـهـا   ـلى العَرْق تَعْذِمُ

فقفْ على هذا الشعر فإنّه من أعاجيب الدنيا.

وقال سُنَيح بن رباح شار الزِّنجي:

كُليبٍ سبَّنا يباً وعِقال

قتيل الكلاب

حينَ وضَعَك قبرٌ بالمشقَّر، يا ابن قتيلِ :إنَّما رفعك قَبْرٌ بتُسْتَر فقال شقيق :وتنازع مالك بن مِسْمَع وشقيق بن ثور، فقال له مالِك

.النساء وقتيل الكلاب

وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلُ الكلاب، وذلك أنَّه لجأ في الردة إلى قومٍ من عبد القيس، فكان كلبُهم ينبحُ عليه فخاف أن :قال

.يدلَّ على مكانه فقتَلَه فقُتِلَ به

أمثال أخرى في الكلب

ألأم من كلبٍ :أحرصُ من لَعْوة وهي الكلبة، وجمعها لِعاء، وفي المثل :أسرَعُ من لَحْسَةِ كلبٍ أنفه، ويقال :والعرب تقول :قال

.اصنع المعروف ولو مَعَ الكلب :على عَرْق، ونَعِم كلبٌ في بؤس أهله، وفي المثل

رؤيا الكلب وتأويلها

.الكلبُ في النوم رجلٌ فاحش، فإن كان أسودَ فهو عربيٌّ، وإن كان أبقَعَ فهو عجَميّ :وقال ابن سيرين

:رأيتُ أبا بلالٍ في النوم كلباً تذرف عيناه، وقال :وقال الأصمعيّ عن حمّاد بن سلمة عن ابن أخْتِ أبي بلال مِردَاس بن أُدَيَّة قال

.إنّا حُوِّلنا بعدَكم كلاباً من كلاب النار

ولمّا خرج شَمِر بن ذي الجَوشَن الضِّبابي لقتال الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما، فرأى الحسينُ فيما يرى النائم أنَّ :قال

.كلباً أبقعَ يلغُ في دمائهم، فأوَّلَ ذلك أن يقْتُلهم شمر بن ذي الجوشن، وكان مُنْسلخاً بَرَصاً

.كلابَ النار :والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ :قال

صاحب الكلب يصِفُه بالسُّرعةِ في الحُضْر، :شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب وقال صاحب الديك

وبالصّبر على طول العَدْو، وبسَعة الإهاب، وأنَّه إذا عدا ضَبَع وبسَط يديهِ ورجليه حتى يمسَّ قَصَصُهُ الأرْض، وحتى يشرط

أذنيه بشَبَا أظفاره، وأنَّه لا يحتِشي ريحاً مع ما يصيب الكلاب من اللَّهَث، فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراءُ الفرسَ

وقال أبو دُؤاد ?وشبّهته بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاءُ وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنْسَأ لا يلتفت أحَدٌ لِقِتَهُ

:الإياديُّ في ذلك

ـــئَةَ الـــوَرَلَ الأح علـــيه الـــعَـــرارُ

ـيء، وقال خالد بن عجرة الكلابي

عليه ـــج الـــعـــرار

:وقال امرؤ القيس

نٍّ وبـرْكَةٌ ، قد تموَّرا

:ولم يذكره في شيءٍ، وقال عُقْبة بن سابق

جـب جنبِ

:ولم يذكره في شيء، وقال امرؤ القيس

، العتقَ فيهمـا ِة وسط ربرب

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عقبة بن سابق

ئ هيقٍ ُخِضَابِ

:ولم يذكره في شيء، وقال خُفاف بن نَدبة

ليم الشّظا الصـاردِ

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس

الشَّوى شَنِجِ النَّسا ِبِ الـغَـذْوان

:ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال عقبة بن سابق

:ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال الجَعْديُّ

ـاغـهِ ِ مَشْرَبِ

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس

كـمـا ه النَّمِرْ

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال أبو دُؤاد

متَين ِنِصْ

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال ابن الصَّعِق

ـا قِدْحا

:ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال رَبيعة بن جُشم النمري، ويروى لامرئ القيس

أصمَعَا منبتِرْ

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري

نبان بدل

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك

ِس فحْلٍ ي ظليم

:ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال الأعشى

فكأنّه	تّخيل مشذَّب
ارسُ معرضاً	غَضَا المتصوِّبُ
فتسوقُه	ليفٌ أحدَبُ
؛ حماتها	عنه أرنبَ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال الأسعر الجُعْفي:

فكأنّه	طيرَ وقد رأى
ه متمطّرا	برحان الغَضا
فتَسُوقه	ئع عاريةُ النَّسَا

ولم يذكره في شيءٍ، وقال أبو داؤد:

تّه وإذا	ضَرْبُ
ه ومشَى	عَقْبُ
مةٍ تبعتْ	اعَها خطّبُ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

ساقا نعامةٍ	وتقريبُ تَتْفُلِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال ابن سِنانٍ العبْديّ:

ممطارةٌ	ُّ المِنْجَلِ
تْ فنبيلة	مِها والمِركَلِ
، نعامة	لاب الجَنْدَلِ

ومما يشبه خلقُه من خَلْقَ النعامة طولُ وظيفِها وقصر :قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان قال أبو عبيدة

ساقيها وعُري نَسَيِيها، وممَّا يشبه من خلقه خلْقَ الأرنب صِغَر كعبَيها، وممَّا يشبه من خلْقه خلْق الحمار الوحشيِّ غِلَظ لحمه،

.وظمأ فصوصهِ وسَراتِه، وتمحص عصَبِه، وتمكُّن أرساغه، وعَرض صهوته

إنّ مما يشبه من خلقه خلْقَ الكلب هَرَت شدقِه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصِّه، :قد قال أبو عبيدة :قال صاحب الكلب

:وسبوغ ضُلُوعِه، وطول ذراعيه، ورُحْب جلده، ولحوق بطنه، وقال طُفيل الغَنَويّ، يصف الخيل

لزّجاج كأنّها	أةً من مكلّبِ

:وقال طُفَيل أيضاً

ِ ثوبَ مائِحِ	ن لحيبه يَذْهَبِ

لعلّنا إن تتبَّعنا ذلك :وقال صاحب الكلب ?وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة، من جميع أشعار العرب :وقال صاحب الديك

وجدناه كثيراً، ولكنك تقدَّمت في أمر ولم تُشْعِر بالذي تعني، فَلَنلتقط من الجميع أكثرَ مما التقطت، والإنسان شريف الأعضاء وقد

:تشبه مواضعُ منه مواضع من الفرس العتيق، وما حضرنا من الأشعار إلاّ قوله

امَه	سِبْ

:وقال الشاعر في ذلك

الصراخ إذا غدت   اح للكَلاّبِ

.وقد شبهوا بالكلب كلَّ شيء وكان اسم فرس عامر بن الطفيل، الكلب، والمزنوق، والوَرد

شعر في وصف الناقة

:قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقة ونشاطها والذي يَهيجها فقال :قال صاحب الديك

ند مَعْرِضها   يها وخنْزيرُ

:والتفَّ ديك وقال أبو حيَّة :والتف كلبٌ كما قال :فهلاّ قال

أن بدَقِّها   ها بالأظفر

:وقال الأعشى

ّ بدَقِّها   طيُّ ظلالها

:وقال عنترة بن شدَّاد العَبْسي

ب دَقِّها ال   العشيِّ مؤوَّم

طفَتْ له   يدين وبالفم

:وقال المثقِّب العَبْديّ

ات لَوْثٍ   القُيُون

كأنّ هرّاً   وَضِين

إنما يذكرون في هذا الباب السِّباعَ المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار، كما ذكر الهرَّ وابن آوى، والكلبُ :قال صاحب الكلب

:ليس يوصف بالمخالب، وليس أنَّ الهر أقوى منه، ألا ترى أوسَ بن حجر قال في ذلك

بْدَ معْرِضِها

فذكر الموضع الذي يوصف بالخلْبِ والخدْش والخمش والتظفير، فلما أراد أن يفزِّعها ويثوِّرَها حتى تذهبَ جافلة في وجْهها،

:أو نادَّة، أو كأنّها مجنونة من حاق المرح والنشاط قال

يها وخِنزير

:وقال أبو النجم

ها لم تَحْفِل   رزٍّ معضل

:ولو قال أوس

بها وخِنزير

:لكان جائِزاً، لولا يُبْس الشنِّ وقحُوله، وأنّه ليس مما يلتوي على رجليها، وقال آخر

ثَقّ تحت غرْزِها   ابَيهِ ظَفَرا

حديث عمرو بن شُعيب عن عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم :وقال صاحب الديك

لا يحِلُّ لرجلٍ أنْ يُعطِيَ عَطِيَّة ويرجِع فيها، إلاّ الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يُعطي العطيَّة ثم يرجعُ فيها كمثل الكلب :قال

.يأكل، حتى إذا شَبع قاءَ ثم عاد في قيئه

لا يرجع في هِبَته إلاّ الوالد من ولده، والعائِدُ في هبتِه كالعائد :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :وعن عبد الله بن عمر قال .في قيئه

وكانت أمِّي تحتَ أبي :وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر، أنّ أبا بكرٍ أمر بقتل الكلب، قال عبد الله بن جعفر أي -لا تقتلوا كلبَ ابني، ثمّ أشار بإصبعه إلى الكلب :فقال ?يا أبتِ، وكلبي أيضاً :بكر، وكان جروٌ لي تحت سريره فقلت له .وأنا لا أدري، فقتل -خذوه من تحت السرير

.أُمَّتان من الجنِّ مُسِختا، وهما الكلاب والحيَّات :وإسماعيل بن أُميَّة قال

.إذا عرف الرجلُ قدْرَ نفسه صار عِند نفسِه أذلَّ من الكلب :ابن المبارك قال

لؤم الكلب

من لؤمِه أنَّه إذا أسمنْتَه أكلك، وإن أجعْتَه أنكرك، ومن لؤمه اتِّبَاعه لمن أهانه، وإلفُه :-وذكَرَ الكلب فقال -قال صاحب الديك .لمن أجاعَه؛ لأنه أجهلُ من أن يأنس بما يؤنس به وأشره وأنَهمُ وأحرصُ وألجُّ من أن يذهب بمطمعته ما يذْهَب بمطامع السباع

ومن جهله أيضاً أنّا لم نجدْه يحرُس المحسنين إليه بنباحه، وأربابَهُ الذين ربّوه وتبنُّوه إلا كحراسته لمن عَرفه ساعةً واحدة، بل لمن أذلّه وأجاعَه وأعطشه، بل ليس ذلك منه حراسةً، وإنَّما هو فيه من فضل البَذاء أو الفُحْش، وشدَّة التحرُّش والتسرُّع، وقد قال :الشاعر في ذلك

بي من خَزَرْ من غير عَوَر
من كلبٍ ذَكَرْ ، في السَّحَر

.وإنَّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي يعتري نِسَاءَ السِّفْلة من الصخب

جبن الكلب

.والكلب جبانٌ وفيه جرأة ولؤم، ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيُّب كان أمثل، ومن فرط الجبن أنّه يفزَع من كلِّ شيء وينبحَه

والبرذون ربَّما رمَح البرذونَ مبتدئاً، وقلق وصهل صَهيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضْل قوَّةٍ يجدُها في نفسه على المرموح، ولكنَّه يكون جباناً، فإذا رأى البرذون الذي يظنُّ أنَّه يعجز عنه أراه الجبنُ أنَّه واقعٌ به، فعندها يقلَق وإذا قلِق رمَح، وهذه العلّة تعرض للمجنون؛ فإنَّ المجنونَ الذي تستولي عليه السَّوداء، ربما وثب على من لا يعرفه، وليس ذلك إلاّ لأنَّ المِرَّة أوهمثه أنَّه .يريده بسوء، وأنّ الرأي أن يبدأه بالضرب، وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماءِ والنار

مما حدث للنظام

فأمّا الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيَّار النظّام، فإنّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبُلّة، وتقدَّمتُه شيئاً، وألح عليه كلبٌ وكره -وكانَ أنِفاً شديدَ الشَّكيمةِ أبّاء للهَضيمة -من شكل كلاب الرِّعاء، وكره أن يعدوَ فيغريَه ويُضرِّيه، وأنف أيضاً من ذلك أن يجلسَ مخافة أن يشغَر عليه أو لعلَّه أن يعضَّه فيَهْرِتَ ثوبَه، وألحَّ عليه فلم ينله بسوءٍ، فلمَّا جُزْنا حدَّه وتخلَّصنا منه، قال إن كنت سَبْع فاذهبْ مع السِّباع، وعليك بالبراري :إبراهيم في كلامٍ له كثير، يعدِّد خصالَه المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال إن كنت سَبْع ولم أقلْ :والغِياض، وإن كنت بَهيمة فاسكتْ عنَّا سكوت البهائم ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقولٍ ملحون، من قولي .إن كنت سبعا

إفساد الإعراب لنوادر المولدين

إنّ الإعرابَ يفسد نوادر المولَّدِين، كما أنّ اللحنَ يُفْسِد كلام الأعراب؛ لأنّ سامعَ ذلك الكلام إنَّما أعجبته تلك :وأنا أقول الذي إنما أضحك بسُخْفِه وبعضِ كلام العجميَّة التي -الصورة وذلك المخرَج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دَخَلَت على هذا الأمر حروفَ الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوَّلتَه إلى صورةِ ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهلِ المروءَة والنجابة انقلب المعنى مع -فيه .انقلاب نظْمِه، وتبدَّلَتْ صورته

إنْ أطعمَه اللصُّ بالنهار كسرةَ خُبْزٍ خلاه، ودارَ حولَه ليلاً، فهو في هذا الوجه مرتشٍ وآكلُ سُحت؛ وهو مع :ثم قال أبو إسحاق ذلك أسمجُ الخلق صوتاً، وأحمق الخلق يقظةً ونوماً، وينام النَّهارَ كله على نفس الجادَّة، وعلى مدقِّ الحوافر، وفي كل سوقٍ وملتقَى طريق، وعلى سبيل الحمُولة وقد سهر الليلَ كله بالصياح والصَّخَب، والنَّصَب والتَّعب، والغيظ والغضب، وبالمجيء والذَّهاب، فيركبه من حبِّ النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطئته دابَّةٌ فأسوأُ الخَلق جزَعاً وألأمه لؤماً، وأكثره نُباحاً وعُواءً، فإن سلم ولم تَطأْهُ دابَّةٌ ولا وطئه إنسان، فليست تتمُّ له السلامة؛ لأنّه في حالٍ متوقِّعٍ للبليَّةِ، ومتوقِّعُ البليَّةِ في بَليَّة، فإنْ لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأُ حالاً منه؛ لأنّه أسوَؤُهم جزَعاً، وأقلُّهم صبراً، ولأنّه الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطُّرق .الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة

وبعد فإنّ كلَّ خُلُقٍ فارقَ أخلاقَ النَّاس فإنّه مذموم، والناس ينامون بالليل الذي جعله الله تعالى سكناً، وينتشرونَ بالنّهار الذي .جعله الله تعالى لحاجات الناس مَسْرحاً

إنّ سهره بالليل ونومَه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكيَّةٌ لقلنا، ولو كان خلافُ ذلك ألذّ لكانت الملوك :لو شئنا أن نقول :قال صاحب الكلب

بذلك أولى، وأمَّا الذي أشرتمْ به من النوم في الطرق الخالية، وعبتُموه به من نومه على شارعاتِ الطُّرق والسِّكَكِ العامرة وفي الأسواق الجامعة، فكلُّ امرئٍ أعلم بشَأنِهِ، ولولا أنّ الكلبَ يعلمُ ما يَلقَى من الأحداث والسُّفهاءِ وصِبيان الكتَّاب، من رضِّ عظامِه بألواحهم إذا وجدوه نائِماً في طريق خالٍ ليس بحضرته رجالٌ يُهابون، ومشيخةٍ يرحمون ويزجرون السفهاءَ، وأنّ ذلك لا يعتريه لقَلّ خلافه عليك، ولما رقد في الأسواق، وعلى أنّ هذا الخُلُق إنَّما يعتري كلاب الحُرَّاس، وهي التي في -في مجامع الأسواق الأسواق مأواها ومنازلها.

وبعد فمن أخطأ وأظلمُ ممَّن يكلّف السباعَ أخلاقَ الناس وعادات البهائِم وقد علمْنا أنّ سباعَ الأرض عن آخرها إنَّما تَهيج وتَسرح وتلتَمس المعيشة وتتلاقى على السفاد والعظال ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل.

سبب اختيار الليل للنوم

وإنما نام الناسُ بالليل عن حوائِجهم، لأنّ التمييز والتفصيل والتبيُّن لا يمكنهم إلاّ نهاراً، وليس للمتعَب المتحرِّك بدٌّ من سكون يكون جَماماً له، ولولا صرفُهم التماسَ الجَمام إلى الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقتُ مانع من التمييز والتبيُّن، لكانت الطبائعُ أحدهما لأنّ الليلَ إذ كان من طبعه البرد والرُّكود والخُثورة، كان ذلك أنزَعَ إلى النوم وما :تنتقض، فجعلوا النَّوم بالليل لضربين دعا إليه، لأنّه من شكله، وأمّا الوجه الآخر فلأنّ الليلَ موحِشٌ مخُوف الجوانب من الهوامِّ والسباع، ولأنّ الأشياء المبتاعة والحاجات إلى تمييز الدنانير، والدراهم، والحبوب، والبزور، والجواهر، وأخلاط العطر، والبَرْبَهار، وما لا يحصى عدده، فقادتهم طبائعُهم وساقتهم غرائزهم إلى وضع النوم في موضعه، والانتشار والتصرف في موضعه على ما قدَّر الله تعالى من ذلك وأحبَّه، وأمَّا السباع فإنها تتصرَّف وتبصر بالليل، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرُها.

نوم الملوك

وأمَّا ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليل، فإنّ الملوكَ لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركةِ بالنهار، ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلت حوائِجها عن مقدار النهار ولم يتّسع لها، فلما استعانَت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون، وجمعت المقدارَ الفاضلَ عن اتِّسَاع النهار إلى المقدار الذي لا بدَّ للخلوة بالأسرار منه؛ أخذتْ من الليل صدراً صالحاً، فلمَّا طال ذلك عليها أعانها المِران، وخفَّ ذلك عليها بالدُّربة.

وناسٌ منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وإلى أن سَماع الصوت الحسن مما يزيد في المُنّة، ويكون مادَّةً للقوة، وعلموا أنّ العوامَّ إذا كانت لا تتناول الشّرابَ ولا تتكلف السماع على هذا المعنى، أن ظنّها سيسوءُ، وقولَهَا سيكثُر؛ فرأوا أنّ الليل أسترُ

:وأجدرُ أن يتمَّ به التدبير، وقال الراجز

ارُ أفْضَحُ

.اللَّيل أخفَى للويل :وقالوا في المثل

تلهي المحزون بالسماع

وما زالت ملوكُ العجَم تلهِّي المحزون بالسماع، وتعلّل المريض، وتَشغله عن التفكير، حتَّى أخذت ذلك ملوكُ العرب عن ملوك

:العجم، ولذلك قال ابن عَسَلة الشيباني

نْلُنا وُمَ العُجْمْ

يٌّ يحسَبُها ة النَّجْم

.يعني سحابة دائِمة :واحد وجمع، وإنَّما يعني في البيت الثريَّا، ومدجنة :النجم

وإذا كان نساءُ العرب في الجملة أعقلَ من رجال -قول أم تأبط شراً في ولدها وفيما يحكى عن امرأةٍ من عقلاء نساءِ العرب

والله ما وَلَدْتُه يَتْناَ، ولا سقَيته غَيْلاً ولا :فروَوا جميعاً أنَّ أمَّ تأبَّط شرّاً قالت -العجَم، فما ظنُّكَ بالمرأةِ منهم إذا كانت مقدَّمة فيهم

.أبتُّه على مَأقة

فأمَّا اليتن فخروج رجل المولود قبلَ رأسِه، وذلك علامة سُوءٍ، ودليلٌ على الفساد، وأما سَقي الغَيْل، فارتضاع لبن الحبلى، وذلك

.فسادٌ شديد

ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه وأما قولها في المأقة، فإنَّ الصبيَّ يبكي بكاءً شديداً متعِباً موجِعاً، فإذا كانت الأمُّ

جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدُّوار، أو نوّمته بأن تضرب يدَها على جنبه، ومتى نام الصبيُّ وتلك الفزْعةُ أو اللَّوعة أو

المكروه قائمٌ في جوفه، ولم يعلَّلْ ببعض ما يلهيه ويُضحكه ويسرُّه، حتى يكون نومه على سرورٍ، فيسْري فيه ويعمَل في طباعه،

ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غمٍّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يعمل في الفساد، والأمُّ الجاهلةُ والمرقِّصة الخرقاء، إذا لم تعرف فرقَ ما

:بين هاتين الحالتين، كثُر منها ذلك الفساد، وترادَفَ، وأعان الثاني الأوّلَ والثالثُ الثانيَ حتَّى يخرجَ الصبيُّ مائقاً، وفي المثل

صاحبي مَئِق وأنا تئِقٌ، يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرَّفيق والزَّميل، وقد استفرغه الضَّجر لطول السفر فقلبُه ملآن، فأوَّلُ

.شيءٍ يكون في ذلك المئق من المكروه لم يحتمله بل يَفيض ضجره عليه، لامتلائه من طول ما قاسى من مكروه السفر

ما يحتاج إليه الملوك فاحتاج حُذَّاق الملوكِ وأصحابُ العنايات التامَّةِ، أن يداووا أنفسَهم بالسماع الحسن، ويشدُّوا من مثنِهم

بالشراب، الذي إذا وقعَ في الجَوف حرَّك الدَّم، وإذا حرك الدَّم حرَّك طباعَ السرور، ثمَّ لا يزالُ زائداً في مِكيال الدم، زائداً في

.الحركة المولّدة للسرور، هذه صفةُ الملوك، وعليه بنوا أمرَهم، جهل ذلك مَنْ جهله، وعَلمه من علمه

أمَّا تركُه الاعتراضَ على اللّصِّ الذي أطعمه أيَّاماً وأحسنَ إليه مِراراً، فإنَّما وجب عليه حفظُ أهلِه لإحسانهم :وقال صاحب الكلب إليه، وتعاهدهم له، فإذا كان عهده ببرِّ اللص أحدَث من عهده ببرِّ أهله، لم يكلَّف الكلبُ النظرَ في العواقب، وموازنة الأمور، والذي أضمر اللصُّ من البَيات غَيْبٌ قد سُتِر عنه؛ وهو لا يَدري أجاء ليأخذَ أم جاء ليعطيَ، أو هم أمروه أو هو المتكلّف لذلك؛ وأمَّا سماجة الصَّوت فالبغل أسمجُ صوتاً .ولعلَّ أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضَّرب والإجاعة، وبالسبِّ والإهانة منه، كذلك الطاووس على أنَّهم يتشاءَمون به، وليس الصَّوت الحسنُ إلاّ لأصناف الحمام من القَماريِّ والدَّبَاسيّ، وأصناف الشَّفانين والورَاشين، فأمّا الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميعُ الطير والسباع والبهائِم فكذلك، وإنَّما لك أن تذمَّ الكلبَ في البيان الحسن، والصوت الحسن، والصورة :ليس في الناس شيءٌ أقلَّ من ثلاثةِ أصناف :الشيء الذي لا يعمّ، والناس يقولون الحسنة؛ ثمّ النَّاس بعدُ مختلِطون ممتزجون، وربّما كان مِنَ الناس بل كثيراً ما تجدُه وصوته أقبحُ من صوت الكلب، فلم تخصّون وأما عُواؤه مِن وَطْء الدَّابّة وسوءُ جزَعه من ضرب الصِّبيان، فجزعُ الفرَس ?الكلبَ بشيءٍ عامَّةُ الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب .من وقْع عذْبة السَّوط، أسوأ من جزَعه من وقع حافر برذون، وهو في هذا الموضع للفرس أشدُّ مناسبةً منه للحمار

.على أنَّ الدِّيكَ لا يُذكَر بصبرٍ ولا جزَع

نوادر ديسيموس اليوناني

والحكماء :كان في اليونانيِّين ممرور له نوادرُ عجيبة، وكان يسمَّى ديسيموس، قال :حدَّثني العُتْبي قال :قال صاحب الديك فمنها أنَّه كان كلَّما خرجَ من بيته مع الفجر إلى :يروون له أكثرَ من ثمانين نادرة ما منها إلاّ وهي غُرَّةٌ؛ وعينٌ من عُيون النوادر شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقَى في أصل باب داره وفي دُوَّارته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه كلَّما رجَع من حاجته، فكان كلَّما رجع لم يجد الحجَر في موضعه، ووجد البابَ منصفقاً، فكَمن له في بعض الأيّام ليرى هذا الذي يصنع ما يصنع، فبينا هو في انتظاره إذ أقبَل رجلٌ حتَّى تناوَلَ الحجر، فلمَّا نحَّاه عن مكانه انصفق البابُ، فقال .فقد علمتَ أنَّه ليس لك :فقال لم أعلمْ أنَّه لك، قال ?وما لك تأخذه ?ما لك ولهذا الحجر :له

.ديسيموس كالمِسَنِّ الذي يشحَذ ولا يقطع :قال ?ما بال ديسيموس يعلِّم الناسَ الشِّعرَ ولا يقول الشعر :وقال بعضهم :قال .إذا جاع ديسيموس في السُّوق أكلَ من السوق :فقال ?أتأكل في السوق :ورآه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال

ما منعك من مكافأته وهو لك :وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطا عليه، وفحش في القول، وتحلَّم عنه فلم يجبه، فقيل له :قال فإنَّ السفيهَ إمّا :لا، قال:قال ?فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه :لا، قال :قال ?أرأيتَ لو رمحَك حِمارٌ أكنتَ ترمحُه :قال ?مُعرِض .أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلباً؛ لأنَّه لا يخلو من شَرارَةٍ تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه

أمثال أخرى في الكلب

ويا كلب ?يقال للسفيه إنَّما هو كلب، وإنَّما أنتَ كلبٌ نَبَّاح، وما زال ينبَح علينا منذُ اليوم، وكلبُ مَن هذا :وقال صاحب الديك .ابن الكلب، وأخسَأ كلباً

احتاج إلى الصُّوف مَنْ جَزَّ كلبَه، و أجِعْ كلبَك يتبَعْك، وأحبُّ شيء إلى الكلبِ خانقهُ، وسمِّن كلبَك يأكلك، :وقالوا في المثل .وأجوَع من كَلبة حَومَل، وكالكلب يربض في الآريِّ فلا هو يأكل ولا يدَعَ الدابَّة تعتلف

.على أهلها دلَّتْ بَراقِشُ :براقش وفي أمثالهم في الشؤم

.كلبة نبحتْ على جيشٍ مرُّوا في جوف الليل وهم لا يشعُرون بموضع الحيِّ، فاستدلُّوا عليهم بنُباح الكلبة فاستباحوهم :وبَراقش

السُّود من :سمعت ابن عبَّاس يقول :روى إسماعيلُ المكِي عن أبي عَطاءٍ العُطاردي قال :الجنّ والحنّ وقال صاحب الدِّيك الكلاب الجِنّ، والبُقْع منها الحنّ، ويقال إنَّ الحنَّ ضَعَفة الجنِّ، كما أنَّ الجنيَّ إذا كفر وظلَم وتعدَّى وأفسد، قيل شيطان؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل، وعلى استراق السمع قيل مارد، فإنْ زاد فهو عِفريت، فإن زاد فهو عبقريّ، كما أنّ الرجلَ إذا قاتل .ألْيَس، فهذا قول أبي عبيدة :بُهْمة، فإن زاد قالوا :في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع، فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا وبعض النَّاس يزعم أنَّ الحِنّ والجنَّ صِنفان مختلفان، وذهبوا إلى قول الأعرابي حينَ أتى بعضَ الملوك ليكتتب في الزَّمْنَى، فقال :في ذلك

، فإنِّي لَزَمِنْ ... ِداءٍ مُستَكِنّ
ياطِينَ تُرِنّ ... حِنٌّ وجنّ

أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه :قال :قتل الكلاب وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر -ما ورد من الحديث والخبر في عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على :وسلم بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال .عينيه؛ فإنه شيطان

إنها أمة من الأمم؛ :أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال :وعن أبي الزبير عن جابر قال :فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان، وعبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال أمرَني رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنْ أقتلَ الكلاب، فكنَّا نقتُلها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوزٌ مسكينة معها ارجعْ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنَّ هذا الكلبَ يُؤنِسني، وليس قربي أحد، فرجع إليه :كلب وليس قربها إنسان فقالت الآنَ استرحْت، :إنَّه لمَّا فرَغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال :فأخبره، فأمر أن يقتلَ كلبها فقتله، وقال في حديث آخر فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب، ثمَّ صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنَّها من الجنّ :قالوا

.والحنّ، وأنَّ أمَّتين مُسِختا، وهما الحيَّات والكلاب

سمعت عثمانَ بن :ما خطب عثمانُ خُطبةً إلاّ أمرَ بقتْل الكلاب وذبح الحمام، وعن الحسن قال :ثم روى الأشعث عن الحسن قال

.اقتلوا الكلابَ واذبحوا الحمام :عفَّانَ يقول

.في قتل كَلْب الصيد إذا كان صائداً أربعُون درهماً، وفي كلب الزرع شاة :وقال عطاءٌ :قال

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

قضى رسول اللّه صلى الله عليه :والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاءٍ عن إسماعيل بن حسان عن عبد اللّه بن عمر قال

وسلم في كلب الصَّيدِ بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفَرَق من طعام، وفي كلب الدار بفَرَق من تراب،

.حقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه

.والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفَرَق :قالوا

وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه، دليلٌ على أنّه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، :وفي قوله

وعلى وجه الإرغام لمالكه، ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أكْره على قبضه أحد،

.ولكان العفو أفضل

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

.وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار مَن هو له كاره :قال

.المأثَمُ على ربِّ الدَّار الذي يملكها :أنّ ابنَ عمر سئل عن ذلك فقال :ابن أبي عَروبة عن قَتادة عن أبي الحكم

فإن اتخذه :من اتَّخذ كلباً ليس بكلب زَرْع ولا ضَرْع ولا صَيد نَقَص من أجره كلَّ يوم قيراط، فقال رجل :وعن ابن عُمر قال

.إنَّما إثمه على صاحب الدار :قال ?رجلٌ وهو كاره

إنَّ دورَنا في الجبّان وهي مُعْورة وليس عليها أبواب، أفترى أن نتَّخذ فيها :سألت الحسن قلت :وصَدَقة بن طَيْسَلة المازنيّ قال

.لا لا :قال ?كلاباً

من اقتَنَى كلباً إلاّ كلب صيدٍ أو كلب ماشية، :قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم :وعن ابن أبي أُنيسة عن سالم عن أبيه قال

.نقص من أجره كلَّ يوم قيراطان

.من اقتنى كلباً فإنَّه ينقص من عمله كلَّ يوم قيراط :وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم

انطلقت مع نفرٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، :حدثنا هُنَيدَةُ بن خالد الخزاعي قال :ويونس عن أبيه عن إسحاق قال ما يُبقي هؤلاءِ من عمل :نعودُ رجلاً من الأنصار، فلمَّا انتَهوا إلى باب الدار ثارت أكلُبٌ في وجوه القوم، فقال بعضهم لبعض .فلانٍ شيئاً، كلُّ كلبٍ منها ينقُص قيراطاً في كلِّ يومٍ

من اتخذ كلباً ليسَ بكلبِ صيدٍ ولا زرْع ولا ضَرْع، فإنه :هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال .ينقُص من أجره كلَّ يوم قيراطٌ، والقيراطُ مثلُ جبل أحُد

أقبل عبد اللّه بن عمرو بن العاص حتَّى نزل ناحية مكَّة، وكانت امرأةُ عمٍّ له تهاديه، فلما :يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال لولا كلابُها لفعلتُ؛ إنَّ الملائكة :لو أرسلتَ إليَّ الغنَم فاستأنستُ برعائها وكلابها فقد نزلتُ قاصية فقال :كانت ذاتَ يوم قالت له إنَّ الكلاب من الجِنّ وإنّ الجِنّ من :الثوريُّ عن سماك بن حرب، أنَّ ابنَ عباس قال على مِنبر البصرة .لا تدخلُ داراً فيها كلب لم :ضَعفة الجن، فإذا غشيكم منها شيءٌ فألقُوا إليها شيئاً أو اطردوه، فإنَّ لها أنفُسَ سوء، وهُشيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا .يكونوا ينهَوننا عن شيء من اللعب ونحنُ غلمان إلاَّ الكلاب

تقامر :روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلميّ، عن محمّد بن المنكدِر، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال :قال صاحب الديك أمرتَ بقتل أمَّةٍ من الأمم تسبِّح اللّه :رجُلان على عهد عُمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تُقتَل فأتاه رجلٌ من الأنصار فقال .فأمر بتركها ?تعالى

أفَأمِنَ " :لا تتَّخذوا الدَّجاج في الدُّور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال اللّه تعالى في أهل القرى :وعن قتادة أنّ أبا موسى قال ."أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ

وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنُّه الناس، لأنّ تأويله هذا ليس على وجه، ولكنَّه كره للفُرسان ورجال الحرب اتخاذَ ما يتّخذه الفلاَّح وأصحابُ التعيُّش، مع حاجته يومئذ إلى تفرُّغِهم لحروب العجم، وأخْذهم في تأهُّب الفُرسان وفي دُرْبة رجال .الحرب، فإن كان ذهب إلى الذي يظهَرُ في اللفظ فهذا تأويلٌ مرغوب عنه

فقد أمر عُمَر بقتل الدِّيَكة ولم يستثنِ منها شيئاً دون شيء، ونهى أبو موسى عن اتخاذ :وقال صاحب الكلب لصاحب الديك الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، والدِّيكةُ تدخل في هذا الاسم، واسم الدَّجاج يجمعها جميعاً، ورويتم في قتل الحمام مثلَ روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم رويتم أنّ الحمام مِسْخ، ولا أنَّ بعضَه من الجن وبعضه من الحِن، ولا أنَّ أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام، وزعمتم أنَّ عمر إنَّما أمر بقتل الدِّيَكة حين كره الهراش بها والقمار بها، فلعلَّ كلابَ المدينة في تلك الأيَّام كثُر فيها العقُور وأكثر أهلُها من الهراش بها والقمار فيها، وقد علمتم أنّ ولاة المدينة ربَّما دَمَروا على صاحب الحمام إذا خيف قِبَله

القِمار وظنُّوا أنه الشَّرَف، وذكروا عنه الرَّمْيَ بالبُندق وخديعة أولادهم بالفراخ، فما بالكم لم تُخرِّجوا للكلابِ من التأويل والعذْر، مثلَ الذي خرَّجتم للحمام والديكة.

المسخ من الحيوان ورويتم في الجرَّيِّ والضِّباب أنهما كانتا أمَّتين مُسختا، وروى بعضهم في الإرْبيانة أنَّها كانت خيّاطة تسرق السُّلوك، وأنَّها مُسِخت وترك عليها بعضُ خيوطها لتكون علامةً لها ودليلاً على جِنْس سرقتها، ورويتم في الفأرة أنَّها كانت طحّانة، وفي سُهيل أنّه كان عشّاراً باليمن وفي الحيَّة أنّها كانت في صورة جَمَل، وأنَّ الله تعالى عاقبها حتى لاطها بالأرض، وقسم عقابَها على عشرة أقسام، حين احتملت دخولَ إبليس في جوفها حتَّى وَسوَس إلى آدم مِنْ فِيها، وقلتم في الوَزَغة وفي الحكأة ما قلتم، وزعمتم أنّ الإبل خُلِقَت من أعنان الشياطين، وتأوّلتم في ذلك أقبحَ التأويل، وزعمتم أنَّ الكلابَ أمّةٌ من الجنّ مُسخت، والذئبُ أحقُّ بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنَّه وحشيٌّ وصاحبُ قِفار، وبه يُضرَب المثل في التعدِّي، والكلب ألوفٌ وصاحبُ ديار، وبه يُضرَبُ المثل، والذئب خَتُور غدّار، والكلب وفيٌّ مناصح، وقد أقام الناسُ في الدّيار الكلابَ مُقامَ السَّنانير للفأر، والذئب مضرَّةٌ كلُّه، والكلبُ منافعُه فاضلةٌ على مضارِّه، بل هي غالبة عليها وغامرةٌ لها، وهذه صفة جميع هذه الأشياء النافعة.

والناس لم يُطبقوا على اتِّخاذها عبَثاً ولا جهْلاً، والقضاة والفقهاءُ والعُبَّاد والوُلاة والنُّسَّاك، الذين يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، والمحتَسِبة وأصحاب التكلُّف والتسليم جميعاً، لم يطبقوا على ترك النَّكِير على ما يشاهدونه منها في دور مَنْ لا يعصيهم ولا يمتنِع عليهمْ إلاّ وقد عَلِموا أنَّه قدْ كان لقتل الكلابِ بأعيانها في ذلك الدَّهر، معنى، وإلاّ فالنَّاسُ في جميع أقطار الأرض لا يُجمِعون على مسالمةِ أصحاب المعاصي، الذين قد خلعوا عُذُرَهم وأبرزوا صَفحتَهم، بل ما ترى خصماً يطعن على شاهدٍ عندَ ولو أنَّكم حملتم .قاض بأنَّ في داره كلباً، ولا تَرَى حَكَما يردُّ بذلك شهادة، بل لو كان اتِّخاذُ الكلاب مأموراً به، لما كان إلا كذلك حكم جميع الهَداهد على حكم هدهد سليمان، وجميعَ الغربان على حكم غُراب نوح، وجميعَ الحمام على حكم حمامة السفينة، لكان ذلك حكماً مردوداً -وجميعَ الذئاب على حكم ذئب أُهبان بن أوس، وجميعَ الحمير على حكم حمار عُزَير.

أمور حدثت في دهر الأنبياء وقد نعرض لخصائص الأمور أسبابٌ في دهر الأنبياء ونزول الوحي، لا يعرض مثلُها في غير زمانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دِحية الكَلبيّ، وكان إبليس يتراءى في السِّكك في صورة سُرَاقة المُدْلجي، وظهر في صورة الشيخ النَّجْدي، ومثل هذا كثير.

شيطانٌ يتبع " :ما يسمى شيطاناً وليس به فإنْ زعمتم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نظرَ إلى رجلٍ يتبع حماماً طيَّاراً فقال ، فخبِّرونا عمن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلةِ البُلدان من الحرميِّين والبصريِّين ومن بني هاشم إلى من "شَيطاناً

دونَهم، أتزعمون أنَّهم شياطينُ على الحقيقة، وأنَّهم من نجل الشياطين؛ أو تزعمون أنَّهم كانوا إنساً فمُسِخوا بعدُ جِنّاً؛ أم يكون

لأنَزعنَّ شيطانَه من نُعرتِه، وعلى قول :وعلى قول عمر "شَيَاطِينَ الجِنِّ وَالإِنْس"قوله لذلك الرجل شيطان، على مثل قوله

:منظور بن رواحة

ـُ تَـرَقَّـصَـتْ إنتَشَيْنَ من الخَمْرِ

.الغضب :قال ?وأيَّ الشياطين تعني :وكان ذلك حين ركبني شيطاني قيل له :وقد قال مَرَّةً أبو الوجيه العُكْلي

:والعرب تسمِّي كلَّ حيّةٍ شيطاناً، وأنشد الأصمعي

ـنْرَميٍّ كأنَّـهُ ي خِرْوَعِ قفْرِ

ما هو إلاّ شيطان يريدون القبح؛ وما هو إلاّ شيطان، يريدون الفِطنة وشدَّة :ما هو إلاّ شيطان الحَمَاطة، ويقولون :وقالت العرب

.العارضة

واللّه ما قتلنا إلاّ شَيطَانَ بَرصاً، لأنَّ الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان، وكان به :وروي عن بعض الأعراب في وقعة كانت

.برص

:وفي بني سعد بنو شيطان، قال طفيلٌ الغنوي

ـهم ويُثَوِّب

:وقال ابن مَيّادة

ـُ محاربٌ ـجُنَّ جُنونُها

:وقال الراجز

ـيثَ السِّنِّ بوٌّ عنِّي

ـُ الجنَّ

:وقال أبو النَّجم

من البَشَـرْ يطانِي ذَكَرْ

:وهذا كلُّه منهم على وجه المثل، وعلى قول منظور بن رَواحَة

ـاخ فـغَـمْـرَةٍ ـم حيَّ بني بَـدْرِ

ـُ تـرقّـصـتْ إنتَشَيْنَ من الخَمْرِ

خرافة رجل من بَني عذرة استهوته الشياطين، فتحدَّث :خرافة العذرى وقد رويتم عن عبد اللّه بن فايد بإسنادٍ له يرفعه قال

.لا وَخُرَافَة حقّ :هذا من حديثِ خُرافة قال :رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يوماً بحديث فقالت امرأةٌ من نسائِه

حديث عمر مع الذي استهوته الجن ورويتم أنَّ شريك بن خُباسة دخَلَ الجنَّة وخرجَ منها ومعه ورقة من وَرَقِها، وأنَّ عمر سأل

:الجدَف، وقال الأعشى :الفول والرِّمَّة، وسأل عن شرابهم فقال :قال ?ما كان طعامهم :الرجل المفقود الذي استهوته الجنُّ فقال

ـني وربِّـكـم أعقَّ وأحْوَبـا
بضرب ظَهْرُهُ ت الماءَ مَشْرَبا

من خنقته الجن، ثم عود إلى الحوار وزعَمتم أنَّ الجنَّ خنقت حرْبَ بن أمية، وخنقت مِرداسَ بن أبي عامر، وخنقت الغَريض المغنِّي، وأنَّها قتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم أمْلياءُ بالخرافات أقوياءُ على ردِّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردِّ تأويل الحديث المشهور إلى أهوائكم، وقد عارضْناكم وقابلناكم وقارضْناكم في الحديث :وقالوا .

أنّ من اقتنى كلباً ليسَ بكلب زرْعٍ ولا ضرْع ولا قنص فقد أثِم، فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرْع والضَّرْع والقنص، وهل عند الكلبِ عند طروق الأسد والنمر والذئاب ?وبعد فهل اتخذوا كلبَ الضَّرْع إلاّ ليحرسَ الماشية وأولادَها من السباع وجميع ما يقتات اللُّحمانَ من رؤساء السباع، إلاَّ صياحَه ونباحَه وإنذاره ودلالته، وأنْ يشغلَها بعضَ الشَّغْل، ويهجهج بها بعض الهجهجة، إلى أن يلحق بها من يحميها، ويتوافى إليها من يذود عنها، إذ ليس في هذا القياس أنّا متى وجدنا دهراً تكثُر فيه اللصوص ويفشو فيه السُّرَّاق، وتظهر فيه النُّقوب، ويشيع فيه التسلُّق، ممَّن إذا أفضى إلى منزل القوم لم يرضَ إلا بالحريبة ليس دونها شيء، أو يأتي على الأنفس، وهو لا يصل إلى ما يريدُ حتى يمرَّ على النساء مكشَّفات، ومَن عسى إذا أخذ المرأةَ أخذ بيدٍ ألاَّ يرضى أن يتوعَّد بذبح الأولاد وأن يُتَّقى بالمال، حتَّى يذبح، ومن عسى إن تمكّن شيئاً أو أمنَ قليلاً، أن يركب الحُرَم بالسَّوءَة العظمى وبالتي لا شَوَى لها، فهذا الحال أحقُّ بالحِراسة من تلك الأحوال.

وبعد فلِمَ صار نساءُ الحرمَين يتزاوَرْن ليلاً، ونساء المصرَين يتزاورن نهاراً، ونساء الحرمين لا يرين نهاراً، ونساء المصرَين لا يُريْنَ ليلاً؛ إلاَّ للمكابرات ولمكان كثرةٍ من يستقفي ويتحوّب للنقب والتسلُّق، وإذا كان الأمر كذلك فأيُّ الأمور أحقُّ بالتحصين ويقْظة ?اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره، أو ترك اتخاذها :والحياطة، وأيُّهما أشبه بالتغرير والإضاعة السُّرَّاق على قدر المسروقين.

وعلى أنّا لو حُلنا بين حَرس الأسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس، وبين اتِّخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضَمان الحراسة، ولامتنع كلُّ محروس من إعطائهم تلك الأجرة، ولوجَد اللصوصُ ذلك من أعظم الغُنْم وأجود الفُرص، أو ما تعلمون أنَّ هذا الحريم، وهذه الحرمات وهذه العقائل من الأموال، أحقُّ بالمنْع والحِراسة والدَّفع عنها بكلِّ حيلة، منْ حفظ الغنم وحريم الراعي وبعد فإنَّ الذئابَ لا تجتمع على قطيع واحد، والذي يُخاف من الذئب السَّلَّة والخطفة، والاستلابُ والاختلاس، ?وحُرمة الأجير والأموالُ التي في حوانيت التجار وفي منازل أهلِ اليسار يأتيها من العدد والعُدّة، ومن نُجب أصحاب النجدة، من يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظم حجمها، ثمَّ يجالدون دون ذلك بسيوف الهند وبالأذرع الطوال، وهم من بين جميع الخليقة لَولاَ أنّهم قد أحسُّوا من أنفسهم الجراءَة وثباتَ العزيمة، بما ليس من غيرهم، لكانوا كغيرهم، ولولا أنَّ قلوبَهم أشدُّ من قلوب الأسْد لما

خَرَجوا، على أنّ جميع الخلق يطالبونهم، وعلى أنّ السلطانَ لم يُوَلِّ إلاّ لمكانهم، والكلابَ لم تُتَّخَذْ إلا لِلإِنْذار بهم، وعلى أنَّهم إذا أُخذوا ماتوا كراماً.

ولعلَّ المدينة قد كانت في ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل الفساد وكان أكثرُ كلابها عَقوراً، وأكثرُ فِتيانها من بين مُهارشٍ أو مقامرٍ، والكلبُ العَقورُ والكلب الكَلِبُ أشدُّ مضرَّةً من الذئب المأمور بقتله.

وقد يعرض للكلاب الكلَب والجنون لأمور: منها أن تأكلَ لحوم الناس، ومنها كالجنون الذي يعرض لسائر الحيوان.

قتل العامة للوزغ وجُهَّالُ النَّاس اليوم يقتلون الوَزَغ، على أنَّ آباءَها وأمهاتها كانت تنفُخ على نار إبراهيم، وتنقُل إليها الحطب، فأحسَب أنَّ آباءها وأمَّهاتِها قد كنَّ يعرفن فصْل ما بين النبيِّ والمتنبِّي، وأنَّهن اعتقدْن عداوة إبراهيم، على تقصيرٍ في أصل النظر- أو عن معاندةٍ بعد الاستبانة حتَّى فعلنَ ذلك؟ كيف جاز لنا أن تَزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى - إلاّ أن تدَّعوا أنَّ هذه التي نقتلها هي تلك الجاحدةُ للنبوَّة، والكافرةُ بالربوبيّة، وأنَّها لا تتناكح ولا تتوالد.

وقد يستقيم في بعض الأمر أن تقتلَ أكثر هذه الأجناس، إمَّا من طريق المحنة والتعبُّد وإمّا إذ كان اللّه عزّ وجلّ قد قضى على جماعتها الموتَ، أن يجريَ ذلك المجرى على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو ملك الموت.

وبعد فلعلَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال هذا القول إن كان قاله، على الحكاية لأقاويل قوم، ولعلَّ ذلك كان على معنًى كان يومئذٍ معلوماً فتَرَك النَّاسُ العِلَّة ورووا الخبر سالماً من العِلل، مجرَّداً غير مضمّن.

ولعلَّ مَن سمع هذا الحديث شهد آخرَ الكلام ولم يشهد أوَّله، ولعلَّه عليه الصلاة والسلام قصَد بهذا الكلام إلى ناسٍ من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شيء، وكلُّ ذلك ممكنٌ سائغٌ غير مستنكَر ولا مدفوع.

وقد رويتم في الفواسق ما قد رويتم في الحيَّة والحدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتم في الكلب العَقور، وكيف يُقتلْنَ في الحِل والحرَم، فإنْ كنتم فُقهاءَ فقد علمتم أنَّ تسمية الغراب بالفِسق، والفأرة بالفُويسِقة؛ أنّ ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق، ولا من شكل تسمية إبليس، وقد يقال للفاسق من الرجال: ما فجرها إلاّ فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه، وقد قالوا: خبيث، الخَبيثَاتُ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من أكَلَ من هذه الشَّجَرَةِ الخَبيثَةِ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَلاَّنَا وهو على غير قوله عزّ وجلَّ: "لِلْخَبيثِينَ"، وقد قال بعضُ الرُّجَّاز وذكر ذئباً:

حَـدِيثُ	نَغِيثُ
مِي يَعيثُ	يا خَبِيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم.

وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفت أماكنُه ودلائله، فإذا كان كذلك فإنَّما

.يعرف فضلُه بالمتكلّمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عُنُوا بالكلام، وهذه جملةٌ، وتفسيرها يطول

أحدهما الامتحان والتعبُّد بفكر :قد أُمِرْنا بقتل الحيَّة والعقرب، والذئب والأسد، على معْنًى ينتظم معنَيْين :القتل والقصاص وقالوا القلب وعمل الجارحة، لا على وجه الانتقام والعقوبة، وأمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العَصَى لا تُغني فيه على جهة الدَّفع وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمَرْ بالقصد إلى قتله، وإنَّما الغاية في دفع بأسِه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه، كان كسارقٍ ماتَ من قطع يده، وقاذفٍ ماتَ عن جَلد ظهره، وقد أُمِرْنا بالقصد إلى قتل الحيَّات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت؛ لأنَّ جنسَها الجنسُ المتلف متَى همَّ بذلك، وليس لنا أن نضربَ الباغيَ بالسَّيف إلاَّ وهو مقبلٌ غيرُ مدبر، ولنا أن نقتل الحيَّة مقبلة ومدبرة، كما يُقتل الكافرُ مقبلاً ومدبراً؛ إلاَّ أنَّ قتلَ الكافر يجمع الامتحان والعقوبة، وليس في قتل الحية إلاّ الامتحان، وقد كان يجوز أن تمتَحَن بحبسها والاحتيال لمنعها، دونَ قتلها، وإذا ولَّى الباغِي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يُؤْنَسَ منه النُّزوعُ، وسبيل الأحناش والسِّباع وذواتِ السموم من الهمَج والحشرات، القتلُ مقبلةً ومدبرة، وقد أبيح لنا قتلُ ضروبٍ من الحيوان عندما يبلُغ من جناياتها علينا الخدش، فضلاً من الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل.

.والبعيرُ قتلهُ فسادٌ، فإن صال على الناس كان قتلُه صلاحاً، والإنسان قتله حرام، فإن خيفَ منه كان قتلُه حلالاً

طائفة من المسائل

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجِرِّيِّ، وعن مسخ الكلاب والحُكَأةِ وأنَّ الحمامَ شيطان، من جنس المُزاح الذي كنَّا كتبنا به إلى ما الشِّنِقناقُ :فقلنا له .بعض إخواننا ممَّن يدَّعي علمَ كلِّ شيء، فجعلنا هذه الخرافاتِ وهذه الفطنَ الصغارَ، من باب المسائل وخبِّرنا عن بني أُقيش وعن ?ومن هاتف سعد ?ومن خانق الغَريض ?والشَّيْصَبَانُ وتنكوير ودركاذاب ومَن قاتل امرأة ابن مقبل وعن سملقة وزَوبعة، والميدعان، وعن النقار ذي الرقبة وعن آصف، ?وعن بني غَزْوان ومَن امرأته ?بني لبنى، ومَن زَوْجُها وأين بلغ كتَابُ ?ومن منهم أشار بأصفر سليم، وعن أطيقس اسم كلب أصحاب الكهف، وكيف صارت الكلابُ لا تنبح من سمَّاه وكيف حدَّثوا عن ابن عباسٍ في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجِرِّيِّ، أنَّهنَّ كلَّهنّ مِسخ؛ وكيف ?شَرطهم وكيف صارت ?وكيف صارت الظباءُ ماشية الجنّ ?وهل يحلُّ لنا أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عبَّاس ?خُصَّت هذه بالمِسخ ولم صارت الأرانب والكِلاب والنَّعامُ مراكبَ ?ولم ماتت من ضربةٍ وعاشتْ من ضربتين ?الغِيلان تُغيِّر كلَّ شيء إلاَّ حوافرَها وما فرق ما بينه وبين عبد الله بن ?وبأي شيء زوَّج أهلُ السّعلاة ابن يربوع ?ولم صارت الرواقيد مطايا السَّواحر ?الغيلان ولم مضى على ?ولم غضِب من ذلك المذهب ?وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي وأبي منصور ?هلال

ولم عُلق السمك المالح بأذنابه ?وما الفرق بين الغِيلان والسّعالي، وبين شيطان الخضراء وشيطان الحَماطة ?وجهه شفشف

وما بال كلِّ شيء أصلُ لسانه ممّا يلي الحلق وطرفه ممَّا ?والطريّ بآذانه، وما بالُ الفراخ تُحمَل بأجنحتها والفراريج بأرجلها

ولم صار كلُّ ماضغ وآكلٍ يُحرِّك فكَّه الأسفل، إلا ?لولا أنَّ لسانه مقلوب لتكلَّم :ولم قالت الهند ?يلي الهواء، إلاَّ لسان الفيل

وما بالُ عين ?ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار، وليس ذلك للدواب إلاّ في الأجفان العالية ?التمساح فإنه يحرِّك فكَّه الأعلى

وما ?وهل يكون الأبلق العقوق ?ولم امتنع بيض الأنوق ?وما بيضة العُقْر وما بيضة الديك ?الجَرادة وعين الأفعى لا تدوران

ولم صار القتيل إذا قُتل ?وما بال الغريق من الرِّجال يطفو على قفاه، ومن النساء على وجهه ?بال لسان سمكِ البحر عديماً

ولم ?يسقط على وجهه ثم يقلبه ذكَرُه؛ وأين تذهب شِقشِقة البعير وغُرمول الحمار والبغْل وكبدُ الكوسج بالنهار، ودَمُ الميت

.?وخبِّرني عن الضفادع، لم صارت تنقُّ بالليل وإذا أُوقدت النارُ أمسَكَت ?انتصب خَلْق الإنسان من بين سائر الحيوان

.قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخُرافة، لنردَّكم إلى الاحتجاج بالخبَر الصحيح المخرج للظاهر :وقالوا

.فإن أعجبتك هذه المسائلُ، واستطْرَفتَ هذا المذهب، فاقرأ رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب، فهي مجموعةٌ هناك

أصناف الكلاب

والكلاب أصنافُ لا يحيط بها إلاّ من أطالَ الكلام، وجملة ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهي الضِّراء، وواحدها ضِروة، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلاَّ السَّلوقيّة؛ وهي من أحرار الكلاب وعتاقها، والخِلاسية هجنها ومقاريفها، وكلابُ .الرعاءِ من زينيّها وكرديها فهي كرادتها

وقد تَصيد الكلابُ غيرُ السَّلوقيّة، ولكنَّها تقصِّر عن السَّلوقيّة بعيداً، وسَلوق من أرض اليمن كان لها حديدٌ جيِّد الطبع، كريم :العنصر حرُّ الجوهر، وقد قال النابغة

ـاعَفَ نَسْجُه ارَ الحُباحِبِ

إيه فدتكَ :سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلبٍ وقد دنا خَطمه من عَجْب ذنب الظبي وهو يقول :وقال الأصمعيّ

:وأنشد لبعض الرجاز !!نفسي

فلمَّا صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والنَّذالة، والحرص والشَّره، والبَذاء والتسرُّع وأشباه ذلك، :قال صاحب الديك

:صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجَوه بهذه الخصال، وقال بشَّار

ـ عن ذَهبٍ ـئٍ ذَهبُهْ

ـى متالفـه ـه كَلَبُـهْ

ما اشتق من اسم الكلب

:لما اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر؛ قال عامر بن الطفيل :قال صاحب الكلب

بِكَّتِهِ كلبِ

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة بن نزار، وفيهم من السباع

أسَد، وضُبيعة، وذئب، وذؤيب، وهم خمسة عشر رجلاً؛ ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقَّة من اسم الكلب، ومن

:هذا الباب كليب بن يربوع، وكلاب بن ربيعة، وكلب بن وَبرة، ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر

نزارٍ لراغبٍ طوالُ الأشاجعِ

تزوَّجها خُزيمة بن النعمان من بني -والكلبة لقب ميَّة بنت عِلاج بن شَحْمة العنبريّ، وبنوها بنو الكلبة الذين سمعتَ بهم

وكان شِيعيّاً من الغالية، فصار -ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمُّهم، وفيها يقول شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي صاحب الغريب

:-خارجيًّا من الصُّفرية

ة وأبُوهُمُ ُ الأصل أوكَسُ

:وفي مَيَّة الكلبة يقول أبوها، وهو عِلاج بن شحمة

بميَّة غربة مَلُّ مَزَارُها

ضُبَيعة كَلْبة ي المحول جوارُها

:ومما اشتقَّ له من اسم الكلب من القُرى والبُلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الوقعة التي كانت بإرم الكلبة، ومن ذلك قولهم

.حين نزلنا من السَّراة صرنا إلى نجد الكلبة

وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غَنْم بن دَوس إلى أزد شنوءة من السراة أنّ بني أخته قتلوا كلبة لجاره، وكانوا أعَدَّ منه

.فغضب ومضى، فسمِّي ذلك النجد الذي هَبط منه نَجْد الكَلْبة

عبَّاد بن أنف الكلب، :كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب، ومن ذلك قولهم :نهر الكلبة ويقولون :وبطَسُّوج بادُوريا نهر يقال له

ومن ذلك أبو عُمَرَ الكلبُ الجَرميّ النحوي، وكان رجلا من العِلية عالماً، عَروضيّاً نحويّا فرضيّا، وعَلُّويه كلب المطبخ، وكان

.أشربَ الناس للنبيذ، وقد راهنوا بينه وبين محمَّد بن عليّ

.كلب الماء، وكلب الرحى والضبة التي يقال لها الكلب، وكذلك الكُلبة والكَلْبتان، والكُلاّب والكَلُّوب :والكلب

:وقال راشد بن شِهابٍ في ذلك المعنى

من ثغورها منَ استاهها بِدَمّ

:وقال

ِامُ ديني ودينَكم رَاضُهُ أزَمْ

:وقال الراجز

غُلاماً يستتر ... فٌ وتَفَرْ
والوَتَـرْ

:وقال أشهب بن رُميلة، وكان أوَّلَ من رمى بني مجاشع بأنَّهم قُيون

بُ القَيْنُ الفَرَسْ ... الخَيلِ نَجَسْ
جَـلَـسْ ... الـقَـبَـسْ

.الكلب :وكان اسم المزنوق فَرَس عامر بن الطفيل

.وقد زعمت العلماء أنَّ حرب أيَّام هَراميت إنَّما كان سببه كلب

.كلاب النار :كلاب النار، وللنوائح :قد قيل للخوارج :قال صاحب الديك

:وقال زفر بن الحارث **!?**ما لكَ تُطيل الوقوفَ على كلبِ بني كليب :وقد قال جَندلُ بن الراعي لأبيه في وقوفِهِ على جرير

لزَّمانُ عليكُمُ ... ابٌ مُـرسَـلُ
اوةَ فالحقـي ... وابْنِي بَحْـدلُ
السواحل إنَّها ... اللِّقاحُ وتُهزَلُ

:وقال حُصين بن القعقاع يرثي عُتيبة بن الحارث

خِنْدِفَ كلّها ... ن بن شِهابِ
قتل سَبْـعةٍ ... بة المرتابِ
الفَقَارِ كَأنَّه ... اجِمِ ورقابِ

:وقال آخر

ءِ مِـنْ نَـفَـرٍ ... يرانه كَلِـبُ
الطَّلْح أرجُلُهم ... البيعة الصُّلُبُ

.ما هو إلاَّ كلب :وإذا كان العُود سريع العُلوق في كلِّ زمانٍ أوْ كلِّ أرض، أو في عامَّة ذلك قالوا

نعم إن لم تدركْه أمُّ كلبة يعني :قال النبي صلى الله عليه وسلم في وزر بن جابر حين خرجَ من عندِهِ واستأذنه إلى أهله :وقالوا

.الحمَّى

وممَّا ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما، أو الفعل الواحد من أفعالهما،

:قال رؤبة

اس الكَلْبِ

:مطلا مُقَرْمَطاً دائِماً، وقال الشاعر في ذلك :يقول

قوم نجـمٌ ... هُبًّى قِبَاعِ

هذه أرضٌ ذات غبرة من الجدب لا يبصر القوم فيها النجم الذي يُهتَدى به إلاّ وهو كأنّه عين الكلب، لأنّ الكلب أبداً :قال

التي قبعت في :الظلمة واحدها هابٍ، والجمع هُبًّى مثل غازٍ وغُزًّى، والقِباع :مُغمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها، والـهُبّى

:القتام، واحدها قابع، كما يقبَع القنفذ وما أشبهه في جُحره، وأنشد لابن مقبل

اتِ باللّيل قابعاً	لفته مجاعره

.دُوَيْبَّة أعظم من الخُنَفساء :الاجتماع والتقبُّض، والقَرنْبى :والقبوع

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

:وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب

ئلِ أهجوتَها	لَحَ البحران
ُ قديمَـهـا	الأسْنـان

:وقال الشاعر في منظور بن زَبَّان

ٰبـاءُ بـعـدَهُـمُ	انُ الكَلبِ مَنْظورُ

:ومن هذا الضرب قول الأعرابيّ

والياهـا وزَيَّنَـا	، أهلها لا يَزينها
ب إن ساق هَجْمة	ويُهينُـهـا

:وقال عمرو بن معدِ يكرب

ما ذَرَّ شـارقٌ	شَتَ فازبأرَّتِ

:وقال أبو سفيان بن حرب

كُميتٌ طِـمِـرَّة	ءَ لابن شَـعـوب
مَزْجَرَ الكلبِ مِنهمُ	نَـتْ لِـغُـروبِ

:وقال عبد الرحمن بن زياد

لـحـديث وظـالـع	، خاف بَصبصَةَ الكَلبِ

:وقال شريح بن أوس

ِاق ونخْـلـه	، شيَّطه الجمرُ

:وقال آخر وهو يهجو قوماً

شعيرٍ عَلَيْهِمـا	ـال أعقَدَ سافِدِ

:وقال الحارث بن الوليد

أوني مُقبـلاً	هَشُّوا وقالُوا
كأنَّ حديثَـهـم	شَتَ في مَنْهَل

:وقال سَبْرة بن عمرو الفقعسيّ، حين ارتشى ضَمْرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداويّ فقال سبرة

كمتَ أمُّك هابلٌ	ـه المتعـمَّدُ
رَعيت أمـانة	ئلها لا يُنشدُ
ُ نـهـشـلاً	وتُـنْـجِـد
حكمك حبُّـهـا	ٌ متـجـرِّد
استمرَّ كـأنّـه	عِظال ويَطّرُدُ

لكنْ دونَـها ... ، شوكَتَها اليدُ
ـكـتَـا زيفيَّة ... براثن أعْقَدُ

وقال مزرِّدُ بن ضرار:

ن بَكَرَاتِكمْ ... لكـالِبُ
فناؤك رحلَه ... الثعالِبُ

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذِكْر الأعضاء، وقال:

ي كِـلابِ ... ببـابِ
ثـوابِ ... ي سرابِ
، ونابي

وقال الآخر:

هط سَلْمَى ... مي الكِلابَا

ومما اشتقَّ من اسم الكلب في موضع النباهة، كليب بن ربيعة، هو كليب وائلٍ، ويقال إنّه قِيل في رجلين: وقال صاحب الكلب

لا حرَّ بوادِي: أعزُّ من كليبِ وائل، والآخر: من بني ربيعة ما لم يُقَلْ في أحدٍ من العرب، حتَّى ضُرِب بهما المثل، وهو قولهم

عَوْف.

وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوِّضْ حوضاً، وكان يحمي الكلأ ولا يُتَكَلَّمُ عندَهُ إلاَّ خفضاً، ويجير الصيد: قالوا

صيدُ أرض كذا وكذا في جواري لا يباح، وكان له جرو كلب قد كَتَّعه فربما قذَف به في الروضة تعجبُه، فيحميها إلى: ويقول

منتهى عوائه، ويلْقيه بحريم الحوض فلا يردُه بعير حتَّى تصدُرَ إبله.

ما قيل من الشعر في كليب

وفي ذلك يقول معبَد بن شعبة التميمي:

، سأطيعه ... ذي كنتُ أمنعُ
ناه واحمرّ وجهُه ... جهُه يتبضَّـع
بيِّن عـامِداً ... تْ لك إصبع
أنـبئت أنَّـه ... باه ويَمنَـعُ
بكـرِ بـن وائل ... ظباءَ فترتَـعُ

وقال دريد بن الصمة:

حين دلّى ... يميحُ
فيان بَغْياً ... م مريح

وقال العبَّاس بن مرداس:

ليبٌ بظلمِه ... اح وهو قتيلُها
ل الكلب مائحاً ... منها حلولُها

وقال عباس أيضاً لكُليب بن عهمة الظفريّ:

م ظالم ... ه ملعونُ

:وقال النابغة الجعدي

راد بـوائل — المطعونُ
تَلْقى مثلها — اتُه المسنونُ

:وقال قُطِران العبشَميُّ، ويقال العبشي

أكثرَ ناصِراً — ضُرِّجَ بالـدَّم
فاستمر بطَعْنَةٍ — ماني المسهَّم

:وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة

مُـرَّة لـم يَرِدْ — احتداه جَهولُـها
الناب طعنة — استخفَّت عقولها
أنـت سـادِرٌ — والِ يُدِيلـهـا

:وقال رجل من بني سَدوس

ابـنة وائلٍ — ى وتَخـيَّلا
شقَّ ضَرعها — لحِمى متذلّلا

:وقال ابن مقبل العَجلاني

بٍ وكلـبةٍ — البيوتِ هَريرُ

:وقال رجل من بني كلاب من الخوارج، لمعاوية بن أبي سفيان

تـبدَّدَ رهـطـهـا — ـنهم شَريدٌ وهـالـكُ
فـيهـم بـقـية — الـها متـمـاسـكُ
يبيتأخوهمذليلاً ولا تُعيي عليه المسالكُ

يبٍ في عشيرتِه — مٌ مثلُ جسَّاس
لنجلاء عانِدُها — فتقُها الآسـي

كان أوَّل عمل وليه الحجّاج بن يوسف تَبالة، فلما سار :هون من تبالة على الحجاج وقال أبو اليقظان في مثل هذا الاشتقاق

لا أُراني أميراً إلاَّ على موضع :تسترك عنها هذه الأكمة، قال :قال ?أين هي، وعلى أيّ سمت هي :إليها وقرُب منها قال للدليل

.أهْوَنُ مِنْ تَبَالَة عَلَى الحَجاج :وكرَّ راجعاً، فقيل في المثل ?تسترني منه أكمة، أهونْ بها عليّ

.لهو أهونُ عَلَيَّ من الاعراب على عركوك :والعامة تقول

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

?هل ترى ملكاً يموت :ولمّا حضرت الحجاج الوفاةُ وقد وليَ قبل ذلك ما وليَ، وافتتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجِّم :قال

فأنا واللّه كليبٌ، أمِّي سمَّتني به وأنا صبيٌ، فمات، :نعم ولستَ به، أرى ملكاً يموتُ اسمه كُليب، وأنتَ اسمُك الحجَّاج قال :قال

.وكان استخْلَفَ على الخراج يزيد بن أبي مسلم، وعلى الحرب يزيد بن أبي كبشة

والعرب إنَّما كانت تسمِّي بكلب، وحمار، وحجر، وجُعَل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل :ما كان العرب يسمون به أولادهم قال

بذلك، وكان الرجل إذا وُلد له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى حجراً سمَّى ابنَه به وتفاءل فيه الشدَّة والصلابة، والبقاء والصبر، وأنَّه يحطم ما لقى، وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً أو رأى ذئباً، تأوَّل فيه الفطنة والخِبَّ والمكرَ والكسب، وإن كان حماراً تأوَّل فيه طولَ العُمر والوقاحة والقوَّة والجَلَد، وإن كان كلباً تأوَّل فيه الحِراسة واليَقَظة وبُعْدَ الصوت، والكسبَ وغير ذلك.

كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالح، فتطيَّر إلى ذلك فطارت عليه :ولذلك صوَّر عبيد الله بن زياد في دِهليزه كلباً وأسداً، وقال.

لو كان الرجل منهم إنَّما كان يسمِّي ابنَه بحجر وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجُعَل، على هذا المعنى فهلاً :وقال آخر سمَّى ببرْذون، وبغل، وعُقاب، وأشباه ذلك؛ وهذه الأسماء من لغتهم.

إنَّما لم يكن ذلك، لأنّه لا يكاد يرى بغلاً وبرذوناً، ولعلَّه لا يكون رآهما قط، وإن كانت الأسماء عندهم عتيدة لأمورٍ :قال الأوّل لعلّهم يحتاجون إليها يوماً ما.

فقد كان يسمع بفرس وبعير، كما كان يسمع بحمار وثور، وقد كان يستقيم أن يشتقَّ منهما اشتقاقات محمودة، بل كيف :قالوا صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمِّي بنجم ولا يسمِّي بكوكب إلاَّ أنَّ بعضَهم قد سمَّى بذلك عبداً له، وفيه يقول:

هْيَ مِيتَتي يا كَوْكَبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسَنَد، وطود، ولا يسمُّونَ بأُحُد ولا ثَبير وأجأ وسلمى ورَضوى، وصِنْدِد وحميم، وهو تلقاء عيونهم متى أطلعوا رؤوسهم من خيامهم، ويمسونَ ببُرْج ولا يسمون بفَلَك، ويسمون بقَمر وشمس عَلَى جهة اللقب أو على جهة المديح، ولم يسمُّوا بأرض وسماء، وهواءٍ وماء، إلاَّ على ما وصفنا، وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أنَّ جبلاً أبلغُ من حجر، وطوداً أجمع من صخر، وتركوا أسماءَ جبالهم المعروفة.

وقد سمّوا بأسد وليث وأُسامة وضِرغامة، وتركوا أن يسمُّوا بسبع وسبعة، وسبع هو الاسم الجامع لكلِّ ذي ناب ومخلب.

قد تسمَّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمَّوْا بأبَان وسَلْمَى :قال الأوّل.

إنَّما هذه أسماء ناسٍ سمَّوا بها هذه الجبال، وقد كانت لها أسماءٌ تركت لثقلها، أو لعلَّة من العلل؛ وإلاَّ فكيف سمَّوا :قال آخرون قد كانوا ربَّما فعلوا ذلك على أن يتَّفق لواحدٍ ولَودٍ ولمعظَّمٍ جليل، أن يسمع أو يرى :وقال بعضهم .بسلمى وتركوا أجأ ورَضوى حماراً، فيسمِّي ابنه بذلك؛ وكذلك الكلب والذئب، ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذِكر فرس ولا حِجْر أو هواء أو ماء؛ فإذا صار حمار، أو ثور، أو كلب اسمَ رجل معظَّم، تتابعت عليه العرب تَطِيرُ إليه، ثم يكثر ذلك في ولده خَاصَّةً بعده، وعلى ذلك سمَّت الرعية بنيها وبناتِها بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليٍّ يكنى بأبي الحسن، وكل عُمَر يكنى بأبي

حفص، وأشباه ذلك، فالأسماء ضروب، منها شيء أصليٌّ كالسَّمَاء والأرض والهواء والماء والنار، وأسماءٌ أخَرُ مشتقَّاتٌ منها على جهة الفأل، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنَه عميراً، ويسمِّي عميرٌ ابنَه عِمران، ويسمِّي عمرانَ ابنَه مَعْمَراً، وربَّما كانت الأسماء بأسماء الله عزَّ وجلّ مثل ما سمى الله عز وجل أبا إبراهيم آزر، وسمَّى إبليس بفاسق، وربّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدثُ في الأسماء؛ مثل يوم العَرُوبة سمِّيت في الإسلام يوم الجمعة، واشتقَّ له ذلك من صلاة .يوم الجمعة

.الألفاظ الجاهلية المهجورة وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره، ثم نعودُ إلى موضعِنا الأوَّلِ إن شاء الله تعالى

:ترك النّاسُ مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتُهم للخَراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السُّلطان

:الحُملان والمَكْس، وقال جابر ابن حُنَيّ

ـعِراقِ إتـاوةٌ مروٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

:وكما قال العبديُّ في الجارود

لَتَنا أم حسبتَـنـا الماكسِين مُكوسا

وقال قيس بن زُهير بن جذيمة، ليزيد ?وكيف أمسيتم ?كيف أصبحتم :وكما تركوا انْعَمْ صباحاً، وانْعَمْ ظلاماً، وصاروا يقولون .قيس بن زهير :قال ?نعمتَ فمن أنت :انعَمْ ظَلاماً أبا ضَمْرة قال :بن سنان بن أبي حارثة

:وعلى ذلك قال امرؤ القيس

ها الطّللُ البـالِـي ـان في العُصُر الخَالِي

:وعلى ذلك قال الأوَّل

ـنُّون قالـوا عِمُوا ظَلاَما

:أبيت اللعن، كما قيل :وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السَّيِّد المطاع

لا تأكُلْ مَعَهْ

.أبيت اللعن، وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً :وقد زعموا أن حُذَيفة بن بدرٍ كان يُحيًّا بتحيَّة الملوك ويقال له

وقد ترك العبْد أنْ يقول لسيده ربِّي، كما يقال ربُّ الدار، وربُّ البيت، وكذلك حاشية السيِّد والملِك تركوا أن يقولوا ربّنا، كما قال :الحارث بن حلّزة

ـلُ مَـنْ يم ا لدَيهِ الثّناءُ

:وكما قال لبيد حين ذكر حُذَيفة بن بدر

ـَ كِنْدَةَ وابنَه ـبْت وعَرْعَر

:وكما عيّر زيدُ الخَيل حاتماً الطائيّ في خروجه من طيِّء ومن حرب الفساد، إلى بني بدر، حيث يقول

العَوان ولم يكُنْ متطبِّبا
ـ أن كان آبياً الَ وأعتَبا
ـلا ما يهمنا بُنا أنْ تطربا

إنّه ربي وربِّ الكعبة، وزوجُه أمُّ أناس بنت عَوف، وكما تركوا أن يقولوا لقُوّام الملوك :وقال عوف بن محلّم، حين رأى الملك

.السَّدَنة وقالوا الحَجَبَة

:وقال أبو عُبيدة مَعْمر بن المثنَّى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي حين أنشدَه شعر الأسديّ

ـي أبوها والغلامُ

لا، هذا من الكلام المتروك وأسماؤُه زالت مع زوال معانيها، كالمِربَاع والنَّشيطة :قال ?للجارية غلامة :فتقول :فقلت له :قال

رُبع جميع الغنيمة الذي كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنَّه اللّه تعالى، وأما :وبقي الصَّفايا؛ فالمرباع

النَّشيطة فإنَّه كان للرئيس أن ينشِط عند قِسمة المتاع العِلقَ النفيسَ يراه إذا استحلاه، وبقي الصفِيّ وكان لرسول اللّه صلى الله

.عليه وسلم من كل مَغْنم، وهو كالسيف اللَّهذَم والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشيء النادر

:وقال ابن عَنَمة الضبّي حليف بني شَيبان، في مرثيته بِسطام بن قيس

والصَّفايا ةُ والفُضولُ

فضول المقاسم، كالشيءِ إذا قسم وفضَلَت فضلة استهلكت، كاللؤلؤة، والسيف، والدِّرْع، والبيضة، والجارية، وغير :والفُضول

.ذلك

كلمات إسلامية محدثة وأسماءُ حدثت ولم تكن، وإنَّما اشتقَّت لهم من أسماءٍ متقدِّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرَكَ الجاهليَّة

والإسلام مُخَضرم كأبي رجاءٍ العُطارديِّ، بن سالمة، وشقيق بن سالمة؛ ومن الشعراء النابغة الجَعديُّ وابن مقبل، وأشباههم من

الفقهاء والشعراء، ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنَّهم في الجاهليَّة لم يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا

.الجاهليَّة، ولا كانوا يعلمون أنَّ الإسلام يكون

:ويقال إنَّ أوَّلَ من سمَّى الأرضَ التي لم تُحفَر قطُّ ولم تحرثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغةُ حيث يقول

اً ما أبيِّنُها ـ بالمظلومَةِ الجَلَدِ

:ومنه قيل سقاءٌ مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه، وقال الحادرة

هلالُ حَريصةٍ بُعيْدَ المَقْلَع

:وقال آخر

ى ذِي سَلَم الشعْبُ ألَمّ
ـيومُ ظَلَمْ

:يقول ظلم حين وضعَ الشيءَ في غير موضعه، وقال الآخر

يومُ ظلَمْ

:وقال ابن مقبل

ـرِ وكان بـهـا	ـلألاَّمُونَ للجزُرُ

:وقال آخر

لم تَنلنـي أذاتـه | ـي له عامداً أجْرُ

:وقال آخر

ـيفوا وِطابَهُمُ | جُزْرِهم ظلمُ

.أن يعرقبوها، وكان في الحقِّ أن تنحر نحراً، وظلمهم الجزُر أيضاً أن ينحروها صِحاحاً سماناً لا علّة بها :وظلم الجزور

.الحرب غَشوم؛ وإنَّما سمِّيت بهذا لأنَّها تنال غير الجاني :ومن ذلك قولهم :قال

.قد وضع الشبه في موضعه :مَنْ أشْبَهَ أباه فما ظلَم، يقول :ومن ذلك قولهم :قال

ومن المحدَثِ المشتقِّ، اسم منافق لمن رَاءَى بالإسلام واستسرَّ بالكفر أُخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدامَّاءِ، ومثل المشرك

"فامْسَحُوا بوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْه" :أي تحرَّوْا ذلك وتوخَّوْه، وقال "فتَيَمَّمُوا صَعِيداً طيِّباً" :والكافر، ومثل التيمُّم، قال الله تعالى

فكثُر هذا في الكلام حتَّى صار التيمُّم هو المسح نفسُه، وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيءِ إذا طالتْ صُحبتهم وملابستهم له،

.وكما سمَّوا رَجيع الإنسان الغائط، وإنَّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاءَ الحاجة للستر

ومنه العَذِرة، وإنَّما العذِرة الفناءُ، والأفنية هي العَذِرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النَّجْو والزِّبل في أفنيتهم، سمِّيت تلك الأشياء التي

.أنْقُوا عَذِرَاتكم :رَموا بها، باسم المكان الذي رميت به، وفي الحديث

:وقال ابن الرقيَّات

دَفـنُـوهـا | الطَّلَحَـاتِ
صـديقَ ولا يعـ | الـعَـذِرَاتِ

.ولكنَّهم لكثرةِ ما كانوا يُلقون نجوَهم في أفنيتهم سموها باسمها

ذهب يَنْجُو، :الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك :والنّجو .وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاءَ الحاجةِ تستَّر بنجوة :ومنه النّجو

.كما قالوا ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثمَّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى

ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضَّأ، وإلى المذهب، وإلى الخَلاءِ، وإلى الحُشّ، وإنّما الحشّ القطعةُ من النَّخل وهي :وقالوا

الحِشّان، وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاءَ الحاجة دخلوا النخل؛ لأنَّ ذلك أستر، فسموا المتوضأ الحشّ، وإن كان بعيداً من النخل؛

كلّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخَرْءِ، لأنَّ الاسم الخرءُ، وكل شيءٍ سواه من ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية، ومن

.هذا الباب الملَّةُ، والمَلَّة موضع الخُبْزة، فسموا الخُبْزة باسم موضعها، وهذا عند الأصمعيِّ خطأ

ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة فسمِّيت المزادة باسم حامل المزادة، ولهذا المعنى سمَّوا حاملَ الشعر والحديث راوية.

وإنَّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصَّدَاق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها: ساق إلى المرأة صَداقها، قالوا: ومنه قولهم النافجة، وقال شاعرهم:

وراثةِ والدي   تَفاد النوافِجِ

فإذا كانوا يدفعون الصَّدَاقَ عيناً ووَرِقاً فلا يقال ساق إليها الصَّداق: تَهنِيك النافجة، قال: وكانوا يقولون.

ومن ذلك أنَّهم كانوا يضربون على العروس البناءَ، كالقبَّة والخَية والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بني عليها، اشتقاقاً من البناءِ، ولا يقال ذلك اليومَ، والعروس إمَّا أن تكون مقيمة في مكانها أوْ تتحَوّل إلى مكان أقدم من بنائها.

قحْبة، وإنَّما القُحَاب السعال، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنَتْ وتكسَّبت: ومن ذلك قولهم في البَغيّ المكتسِبة بالفُجور: قال بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية، وقال الشاعر:

نُحَاب

وقال:

احدةٌ   ها فَخَضَفْ

المتاع، وكذلك الفرج وإنَّما: كشف علينا متاعَه وعَورته وشواره، والشَّوار: وكذلك كان كنايتهم في انكشاف عورة الرجل، يقال يعنون الأير والحِرَ والاسْت.

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد

ماتَ حتْف: إذاً لا ينتَطِح فيها عَنْزان، ومن ذلك قوله: من ذلك قوله: وكلمات النبيِّ صلى الله عليه وسلم، لم يتقدَّمْه فيهنَّ أحد لا يُلسَعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين: كلُّ الصَّيدِ في جَوفِ الفَرا، وقوله: يا خيلَ اللّه اركَبي ومن ذلك قوله: أنفه، ومن ذلك قوله.

شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم، يعني شبه ابن العبَّاس بالعبَّاس، وأخزَم: شنشنة أعرفها من أخزم وقال عُمر رضي اللّه تعالى عنه: فحل معروف بالكرم.

ما يكره من الكلام وأما الكلام الذي جاءَت به كرَاهيةٌ من طريق الروايات، فروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: لا يقولَنَّ أحدُكم خَبثَت نَفسي ولكن ليقلْ لَقِسَت نفسي، كأنه كره أن يضيف المؤمنُ الطاهِرُ إلى نفسه الخُبث والفساد بوجهٍ من الوجوه.

استأثَر اللّهُ بفُلان، بل يقال مات فلان، ويقال استأثَرَ اللّه بعلم الغيب: وجاءَ عن عمر ومجاهد وغيرهما النهيُ عن قول القائل

.واستأثر الله بكذا وكذا

قراءة عبد الله، وقراءة سالم، وقراءَة أُبَيّ، وقراءَة زيد، وكانوا يكرهون أن يقولوا سنَّة أبي :كانوا يكرهون أن يقال :قال النَّخَعيّ .بكر وعمر، بل يقال سنَّة الله وسنَّة رسوله، ويقال فلان يقرأ بوجْه كذا، وفلان يقرأ بوجه كذا

هم وإن لم يريدوا التصغير :وكره مجاهد أن يقولوا مُسيجِد ومُصيحِف، للمسجد القليل الدَّرْع، والمصحف القليل الورق، ويقول .فإنَّه بذلك شبيه

أخافُ على هذا العُريب، وليس التصغير بهم :وجوه تصغير الكلام وربَّما صغَّروا الشيءَ من طريق الشَّفَقة والرِّقَّة، كقول عمر كُنَيْفٌ مُلئ علماً، وقال :إنَّما فلانٌ أخَيِّي وصُدَيِّقي؛ وليس التصغير له يريد، وذكر عمرُ ابنَ مسعود فقال :يريد، وقد يقول الرجل الحُميراء، :أنا جُدَيْلها المحكك، وعُدَيْقُها المرجَّب، وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة :الحُباب بن المنذر يوم السَّقِيفة .دبّت إليه دويْهِيَة الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقة المسلك :أبو قُبيس، وكقولهم :وكقولهم لأبي قابوسَ الملك سُليم، وضُمَير، وكليب، وعُقير، :ويقال إنَّ كلَّ فُعيل في أسماء العرب فإنَّما هو على هذا المعنى، كقولهم المُعَيْدِيّ، وكنحو نُجيل :وجُعيل، وحُميد، وسُعيد، وجُبير؛ وكنحو عُبيد، وعُبيد الله، وعُبيد الرماح، وطريق التحقير والتصغير إنَّما هو كقولهم ورُبّ اسمٍ إذا صغَّرْتَه كان أملأ للصَّدْر، مثل قولك أبو عبيد الله، هو أكبر في السماع من أبي عبد الله، وكعب بن :ونُذيل، قالوا جُعَيل، هو أفخم من كعب بن جعل، وربَّما كان التصغير خِلقة وبنية، لا يتغيَّر، كنحو الحُمَيّا والسُّكَيْتِ، وجُنَيدة، والقطيعا، .وليس هو كقولهم القُصَيْرى، وفي كبيدات السماءِ والثرّيا -والمريطاء، والسُّميراء، والمليساء

أنا، :فقلت ?من هذا :دقَقت البابَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال :وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه .أنا كأنَّه كره قولي أنا :فقال

كان عمرو بن عُبيد يجلس في دَاره، وكان :حدَّثنا عيسى بن حاضر قال :وحدّثني أبو عليٍّ الأنصاري، وعبد الكَريم الغِفاريّ قالا ما :أنا، فقال :فقلت ?من هذا :لا يَدَع بابَه مفتوحاً، فإذا قرعَه إنسان قامَ بنفسه حتَّى يفتحه له، فأتيتُ الباب يوماً فقرعتُه فقال :فقال ?مَن هذا :أعرف أحداً يسمَّى أنا، فلم أقُلْ شيئاً وقمتُ خلفَ الباب، إذ جاءَ رجلٌ من أهل خراسان فقرَع الباب، فقال عمرو رجلٌ غريبٌ قدِم عليك، يلتمس العلم، فقام له ففتح له الباب، فلمَّا وجدْتُ فرجةً أردت أن ألجَ الباب، فدفَع البابَ في وجهي بعُنف، والله إنِّي يومَ أتغضَّب على عمرو بن عُبيد، لَغَيرُ رشيدِ الرأي، فأتيتُ البابَ فقرعته عليه :فأقمتُ عنده أيَّاماً ثم قلت في نفسي .عيسى بن حاضر، فقام ففتح لي الباب :فقلت ?من هذا :فقال

اتَّقُوا تكذيب الله، ليتَّق أحدكم أن يقولَ :وقال الربيع بن خُثَيم ?وما عَلَمَك :أليس الله قال كذا وكذا قال :وقال رجل عند الشَّعبيّ

.قال اللّه في كتابه كذا وكذا، فيقول اللّه كذبتَ لم أقلْه

.لا يقل أحدُكم أهريقُ الماء ولكن يقول أبول :وقال عمر بن الخطَّاب رضي اللّه عنه

قد خَزينا إن كُنَّا لا نعلم أنَّ اللّه أعلم؛ إذا سُئِلَ أحَدُكم عن شيءٍ فإن كان :اللّه أعلم، فقال عمر :وسأل عمرُ رجلاً عن شيءٍ، فقال

.لا علم لي بذلك :يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال

وقليلٌ مِنْ " :إنِّي سمعت اللّه عزّ وجلّ يقول :قال ?ما هذا الدعاءُ :وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول؛ اللهمَّ اجعلني من الأقلّين قال

.عليك من الدعاءِ بما يُعرَف :، قال عمر"وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ" :وقال "عِبادِيَ الشَّكُورَ

وراثَ -هلاَّ قلتَ تحت يدِك وتحت مَنكِبك وقال مَرَّة :ضعْه تحت إبطِك، وقال :وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجل لصاحبه

.ارفَعوا ذلك النَّثِيل، ولم يقل ذلك الرَّوث :فقال -فرسٌ بحضْرة سليمان

تحت استك، :عَمَدْتِ إلى مَالِ اللّه فوَضَعْته تحْتَ، كأنَّه كره أن يقول على عادة الناس :وقال الحجَّاج لأمِّ عبد الرحمن بن الأشعَث

.تحتَ ذيلِك :فتلجلج خوفاً من أن يقول قَذْعاً أو رَفَثاً، ثمّ قال

فتَايَ وفتاتي، ولا يقول المملوكُ ربِّي :لا يقولَنَّ أحدُكم لمملوكه عَبْدِي وأمَتي، ولكنْ يقول :وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم

.ورَبَّتي، ولكن يقول سيِّدي وسيِّدتي

.اللّهُمَّ أخْزه :وكره مُطرِّف بن عبد اللّه، قولَ القائل للكلب

أنَعمَ اللّهُ بك عيناً؛ ولا أنعَمَ اللّهُ بك عيناً، وقد كرهوا أشياءَ ممَّا جاءت في :وكره عِمران بن الحُصين، أن يقولَ الرَّجلُ لصاحبه

لا يكرهونها، ولا نستطيع الردِّ عليهم، ولم نسمع لهم في ذلك أكثرَ من الكراهة، :الروايات لا تُعرَف وجوهها، فرأيُ أصحابنا

ولو كانوا يروون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّت المؤنة، ولكنّ أكثر الروايات مجرّدة، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دونَ

لا تسمُّوا :حكاية العلة، ودون الإخبار عن البرهان، وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدة، قال ابن مسعود وأبو هريرة

.العِنَب الكَرْم؛ فإنَّ الكَرمَ هو الرجلُ المسلم

.وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم

:وجهُ هذا عندَنا، أنَّ القوم قالوا :لا تسُبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الدهر هو اللّه فما أحسن ما فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهديّ قال :وأمَّا قوله

ذلك اللّه، يعني أنَّ الذي أهلك القرونَ هو اللّه عزّ :فلما قال القوم ذلك، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "وَمَا يُهْلِكنَا إلاَّ الدَّهْرُ"

.وجلَّ، فتوهم منه المتوهِّم أنَّه إنَّما أوقع الكلام على الدهر

قال النبي صلى الله عليه :قُلْ ومَعَك رُوح القُدُس فقالوا :وكما غلطوا في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسَّان :وقال يونس

ليتَ أنّ رُوحَ اللّه مع كلّ :قُلْ ومَعَك جبريل؛ لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماءِ جبريل، ألا ترى أنّ موسى قال :وسلم لحسَّان معه روح :معه روح دكالا، ومعه روح سيفرت، وتقول اليهود :أحد، وهو يريد العصمة والتوفيق، والنصارى تقول للمتنبِّي وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ " :روحه روح القدس، وروحه روح اللّه، وقال اللّه عزَّ وجلّ :بَعلزَبول، يريدون شيطاناً، فإذا كان نبياً قالوا .، يعني القرآن"رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا

إنّ سهيلاً لم يأتِ بحرٍّ ولا ببردٍ قطُّ، ولهذا الكلام مجازٌ :طلع سُهيل وبَرُد الليل، فكره ذلك وقال :وسمع الحسن رجلاً يقول .ومذهب، وقد كره الحسنُ كما ترى

ما أخلقها للمطر وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس، كأنّهم من :وكره مالك بن أنس أن يقولَ الرجُلُ للغيم والسحابة .خوفهم عليهم العودَ في شيءٍ من أمر الجاهليّة، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلّق

قوس قُزَح، :لا تقولوا والذي خَاتَمه على فمي، فإنَّما يختِم اللّه عزّ وجلّ على فم الكافر، وكره قولهم :ورووا أنّ ابنَ عبَّاسٍ قال قزح شيطان، وإنَّما ذهبوا إلى التعريج والتلوين، كأنّه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وكان أحَبَّ أن يقال قوس :وقال .اللّه، فيرفع من قدره، كما يقال بيت اللّه، وزُوَّار اللّه، وأرض اللّه، وسماء اللّه، وأسد اللّه

لا نَبيَّ بعده فإلاّ تكنْ ذهبتْ إلى :قولوا لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم خاتَم النبيين، ولا تقولوا :وقالت عائشة رضي اللّه عنها .نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلاّ أن تكُون قالت لا تغيِّروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفِظوا بمثله سواء

ليس الإسلام إلاّ لِلّه عزّ وجلَّ، وهذا الكلام مجازُه عند :أسلمت في كذا وكذا، وقال :وكره ابن عمر رضي اللّه عنهما قول القائل .الناس سهل، وقد كرهه ابنُ عمر، وهو أعلم بذلك

.أنا كسلان :وكره ابنُ عبَّاسٍ رضي اللّه عنهما قولَ القائل

.لا تسمُّوا الطريق السِّكَّة :وقال عمر

قل تبعت جنازة، كأنّهُ ذهب إلى أنّه عنى أنّه كان في جوفها، وقال قل تبعت :كنت في جِنازة، وقال :وكره أبو العالية قول القائل أعطاني :جنازة، والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم، وقد كرهه أبو العالية، وهي عندي شبيهٌ بقول من كره أن يقول القَفِيز بدُنَينير، ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به :فليس جوابه أن تقول ?كيف تكيل الدقيق :إذا قلت :فلان نصف درهم، وقال .هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوط :الدقيق، ويقول

قد قَضَوُا الصلاة، وقد فرَغوا من الصلاة، وقد :الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة، قال بل قولوا :وكره ابن عبَّاس قول القائل كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة، وقد انصرفوا من :وكلام الناس :، قال"ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ" :صلَّوْا؛ لقوله

السُّوق، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفةُ الناسَ من الدار اليومَ بخير، وكنت في أوَّل المنصرفين، وقد كرهه ابن عبّاس، ولو دخل رمضان، وذهب :وكره حَبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامِث، وكره مجاهد قول القائل .أخبرونا بعلّتِه انتفعنا بذلك .قولوا شهر رمضان، فلعلّ رمضان اسم من أسماء اللّه تعالى :رمضان، وقال

فقد قال الناس يوم التَّروية، ويوم عَرَفة ولم "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" :إنما أتى من قِبل قوله تعالى :قال أبو إسحاق .يقولوا عرفة

.رأي النظَّام في طائفة من المفسرين وصور من تكلفهم

لا تسترسلوا إلى كثير من المفسِّرين، وإن نصَبوا أنفسَهم للعامَّة، وأجابوا في كلِّ مسألة؛ فإن كثيراً منهم :كان أبو إسحاق يقول يقول بغير رواية على غير أساس، وكلَّما كان المفسِّر أغربَ عندَهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عِكْرمةُ، والكلبيُّ، والسُّدّي، والضَّحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ، في سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله إنّ اللّه عزّ وجلَّ لم يعن بهذا الكلام مساجدَنا التي نصلّي فيها، بل إنَّما عنَى الجبَاهَ وكل ما سجد :"وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ" :عزَّ وجلّ إنَّه ليس يَعني :"أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" :من يدٍ ورجلٍ، وَجَبْهَةٍ وأنفٍ وثَفِنَة، وقالوا في قوله تعالى :الناس عليه .الجمال والنُّوقَ، وإنَّما يَعني السحاب

.الطلح هو الموز :قالُوا "وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" :وإذا سُئلوا عن قوله

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا " :وجعلوا الدليلَ على أنَّ شهر رمضانَ قد كان فرضاً على جميع الأمم وأنّ الناس غيَّروه، قولهُ تعالى ."كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

.يعني أنّه حَشَرَهُ بلا حجَّة :قالوا "رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً" :وقالوا في قوله تعالى

الويل وادٍ في جهنم، ثم قَعَدُوا يصِفون ذلك الوادي، ومعنى الويل في كلام العرب :"وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ" :وقالوا في قوله تعالى .معروف، وكيف كان في الجاهليَّة قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم

المِقْطَرة بلغة :الفلق :وادٍ في جهنم، ثمَّ قعدوا يصِفونه، وقال آخرون :الفَلَق :قالوا "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" :وسئلوا عن قوله تعالى .اليمن

سَلْ :وإنَّما هي :أخطأ من وصَلَ بعض هذه الكلمة ببعض، قالوا :قالوا "عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً" :وقال آخرون في قوله تعالى وقالوا ?سبيلاً إليها يا محمد، فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمَّى، وعلى أيِّ شيءٍ وقع قوله تسمَّى فتسمَّى ماذا، وما ذلك الشيء قالوا الجلود كناية عن الفروج، كأنه كان لا يَرَى أنّ كلام الجِلد من أعجب "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا" :في قوله تعالى

.العجب

إنّ هذا إنّما كان كناية عن الغائط، كأنه لا يرى أنّ في الجوع وما ينال أهلَه من :"كَانَا يَأْكُلان الطَّعامَ" :وقالوا في قوله تعالى

ما يُكتَفَى به في الدّلالة على أنّهما مخلوقان، حتّى يدَّعيَ على الكلام -الذِّلّة والعجز والفاقة، وأنّه ليس في الحاجة إلى الغذاءِ

.ويدّعي له شيئاً قد أغناه اللّه تعالى عنه

.إنّه إنما عنَى قلبه :"وَثِيَابَكَ فَطَهِّر" :وقالوا في قوله تعالى

إنّ " :يكون جبّاراً في الضِّخَم والقوَّة، فتأوّل قوله تعالى :الجبّار من الرجال يكون على وجوه :ومن أعجب التأويل قول اللّحياني

، وقولَه لموسى عليه "وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ" :ويكون جبّاراً على معنى قتّالاً، وتأوّل في ذلك :قال "فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ

المتكبِّر عن عبادة اللّه تعالى، وتأوَّل قوله عزّ :أي قتّالاً بغيرحقّ، والجبارُ "إنْ تُرِيدُ إلاّ أنْ تَكُونَ جَبَّاراً في الأَرْضِ" : :السلام

:أي لم يجعلني متكبِّراً عن عبادته، قال "وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً" :، وتأوّلَ في ذلكَ قول عيسى"وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً" :وجلَّ

.اللّه :أي مسلّط فتقهرهم على الإسلام، والجبَّار "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" :وهو قوله :المسلَّط القاهر، وقال :الجبَّار

والخوفُ على ألف وجه، وكذلك الجبَّار، وهذا كله يرجع إلى :وتأوَّل أيضاً الخوف على وجوهٍ، ولو وجدَه في ألفِ مكانٍ لقال

.معنًى واحد؛ إلاّ أنّه لا يجوز أن يوصَف به إلاّ اللّه عزّ وجلَّ

اذهبْ :إنّ أبي أوصى بثُلث مالِه في الحصون، قال :تكلف بعض القضاة في أحكامهم وقال رجل لعُبيد اللّه بن الحسن القاضي

:أما سمعتَ قول الأسْعَر الجُعْفِيّ :إنّه إنّما ذكَر الحصون قال :فاشتر به خيلاً، فقال الرجل

تجنُّبـيَ الـرَّدى		لُ لا مَدَرُ القُرَى

.فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنّه ما قيل للمدن والحصون حصون إلاّ على التشبيه بالخيل

?ولم :ليس لك شيء، قلت :أوصي جدّي بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده، قال :قلت للحسن القاضي :وخبَّرني النُّوشِروانيّ قال

:أو ما سمعت قول الشاعر :قال

بِنـاتُـنـا		ـال الأباعِدِ

.فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شرًّا :قال

، وبئس "تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" :لقوله تعالى :وساءك أبرصك، قال :ناءك، أبعدك، قالوا :مَا سَاءَكَ ونَاءَك :وقالوا في قوله

.التكلُّف

:وقال ابن قميئة

هي أعْرَضـت		سطِيعُها المتكلّفُ

وقال الله وهو يخبر عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم: "وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ".

وليس يُؤْتَى القوم إلاّ من الطمع، ومن شدَّةِ إعجابهم بالغريب من التأويل.

رأي في أبي حنيفة: وسئل حَفص بن غِياث، عن فقه أبي حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكنْ، وأجهلُ الناس بما كان.

وقالوا في قوله تعالى: "ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنَ النَّعِيم" قالوا: النعيم: الماءُ الحارُّ في الشتاء، والبارد في الصيف.

الصَّرورة: ومن الأسماء المحدَثة التي قامت مقامَ الأسماء الجاهليَّة، قولهم في الإسلام لمنْ لم يحجّ: صَرورة.

وأنتَ إذا قرأتَ أشعارَ الجاهليَّة وجدتَهم قد وضعوا هذا الاسمَ على خلافِ هذا الموضع، قال ابن مَقرومٍ الضَّبّيّ:

لأشْمَطَ رَاهبٍ ... ةٍ مُتَبَتِّلِ
نْ حَدِيثِها ... بتنَزُّلِ

والصرورة عندهم إذا كانَ أرفعَ الناس في مراتب العبادة، وهو اليومَ اسمٌ للذي لم يَحجَّ إمّا لعجزٍ، وإمَّا لتضييع، وإمَّا لإنكار، فهما مختلفان كما ترى.

ألفاظ القرآن الكريم

فإذا كانت العرب يشتقُّون كلاماً من كلامهم وأسماءً من أسمائهم، واللغة عاريّة في أيديهم ممَّن خلقهم ومكّنهم وألهمهم وعلَّمهم، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس؛ فالذي أعارهمْ هذه النِّعمة أحقُّ بالاشتقاق وأوجبُ طاعة، وكما أنَّ له أن يبتدئَ الأسماءَ؛ فكذلك له أن يبتدئها ممَّا أحَبَّ،، قد سمَّى كتابَه المنزلَ قرآناً، وهذا الاسم لم يكنْ حتى كان، وجعل السجودَ للشمس كفراً، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلاّ وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً، والترك للشيء لا يكون إلاّ بالجارحة التي كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلاً منه وعَقِباً، فواحدةٌ أن يسمَّى السجود كفراً، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركاً، والسجود ليس بجَحْد، والجحد ليس بإشراك إلاّ أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً.

ما اشتق من نباح الكلابِ وما قيل من الشعر فيه

وقال طُفيل الغَنَوِيّ:

نُبُوحَ مقامةٍ ... ولِ مجرَّمِ

وإنَّما أُخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.

وذكروا أن الظَّبيَ إذا أسنَّ ونبتَتْ لقرونه شُعَبٌ نَبَح، وهو قول أبي دُؤاد:

أْنسَا ... ب

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم:

ِ نـبـحـاً كـأنّـه ِتْ مَـا يُرِيبـهـا
مسوَدٌ غَيْرَهـا مْض المراحِم نِيبُها
:لأن الظّبيَ إذا هزل ابيضّ، والبعير يَشِيب وجهَه من أكل الحَمْض، وكذلك قال ابن لَجَأ

ن ذكَائِها
:كما قال الآخر

جُوه شِيبُ القَلِيبُ
:وقد تصير النَّاقة الحمراء إذا أتمَّت حبشيّة، ولذلك قال الشاعر
الإتمام
:وما أشبه ذلك بقول العَبديّ

نَتْ حَبَشِيَّةً ا وسَدُوسا
.اللبن، فلذلك تصير الفرس إذا ألقت شعرها وطرّت، تستديل هذا اللون :والدَّواء

:وقال خالد بن الصقعب النَّهديّ

بَطْن خَبْتٍ الخُصُـوم
تَـلاقـى طٍ ورُوم
لِـيٍّ فيه لأَنَس المقِيم
:وهو يصف الحمام الذَّكَرَ كيف يصنع فيها -ويقال إنَّ الهدهد ينبَحُ، وربَّما جعلوا الهُدْهُدَ، الذي ينبح، الحمامَ الذكر، قال الشاعر

فيها هُدهُدٌ بْتَهُ بجِسادِ
:وقال طُفيل في النُّبوح والمجاعات

نُبـوح مُـدَقَّـع ف الدهرُ مُخْتَل
:وقال الجعديّ

النُّـبـاح إلا التماسَا
:وقال ابن عبدل

جـتـهـداً ا به بَـحَـحُ
منـزلـتـي نَوا وإنْ نَبَحُوا
:وقال عمرو بن كلثوم

الحَيِّ مِنَّا يَلِـيـنَـا
إن كلابَ الحَيِّ كلُّ :كلاب الحيّ شعراؤهم، وهم الذين ينبحون دونَهم، ويحمون أعراضَهم، وقال آخرون :وقال بعض العلماءِ

.عقورٍ، وكلُّ ذي عُيون أربع

:وأما قوله

على أُبَيٍّ الحمِـار
ـى أُبَـيٍّ اكَ حار
.إنَّ الطاعونَ وخْز مِنَ الشيطان :فالطَّواعين هي عند العرب رماح الجن، وفي الحديث

:وقال أبو سلمى

أرماح نُبـاح
ـالرَّاح

:وقال الأعشى

فُـهَـا يها ونَبَحْ
، مجلسِهِمْ اس نَبَحْ

:وقال

اً مِن ورائكم كُم أن أُوَنَّبا

:وقال أبو ذؤيب

يبعد تعْرِها كاةِ كلابُها

:شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم :كلابها

لآلِ لأمٍ شي في الرِّفاق

:وقال أبو زُبَيْد

لأياً كـلابَـهُـمْ لُبي وَهي عُقرُ

هجاء ضروب من الحيوان

قد علمنا أنّكم تتبَّعتم على الكلب كلَّ شيءٍ هُجي به، وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدْره وعلى لؤم طبعه؛ :قال صاحب الكلب

وقد رأينا الشعراءَ قد هَجَوا الأصناف كلها، فلمْ يُفلت منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمة ولا طائر ولا هَمَج ولا حشَرة، ولا رفيع

من الناس ولا وضيع، إلاّ أن يَسلم بعضُ ذلك عليهم بالخمول، فكفاك بالخمول دِقَّة ولُؤماً وقِلّة ونَذالة، وقال أميَّة بن أبي عائذ

:لإياس بن سهم

ـضَ ابن أُختِكـمْ حسنـه أو تـبـدَّلِ
فإني ابنُ أُختكـم ن نَدَى الخال مغتلِي
ـاً أو شـبـيهَـه إلـيك وأشـكـل
، أختِ ثُـعـالةٍ يثِ ريبالُ أشبُـلِ
خـوالَ ثـعـلَـبٍ لـودُ بـمـدخـل

:فهذا من الثعلب، وقال مزرِّد بن ضرار

ن بَكَراتِكمْ تكالـب
فناؤك رحله الثعالـبُ

:فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاك به نذالة، قال ابن هرمة

مَن رُؤوسـاً ها نِـزارَا
حُ من خلاها ا الشِّفَـارا

:وهذا قول الشاعر في العنز، وقال ابن أحمر

وقال الفرزدق:

ـهُمْ وجامِلِـهـم		وقيها فترتَضِعُ

ئْ على الأرض حَيّة		قـرَّ عَـقُـورهـا
بِـانــي لأهْـلِـه		تـسـتـثـيرُهـا

فهذا قولهم في العنز، ولا نعلم في الأرض أقلَّ شرّاً ولا أكثر خيراً من شاة.

وقال الخُرَيميُّ:

ـ مَلِـلـتُـهـم		دى البـلـيَّات
زير تُعارِضُها		جْنا بـحـيَّاتِ
يْرُ كسبـهـمُ		سمَّوه الأمَانات

فهذا قولهم في العقارب والحيَّاتِ والضِّباع والخنازير.

وقال حماد عَجْرِدٍ في بَشَّار:

غزالة شاغِلٌ		وفي ثوْبَان
ـتِها وشِرادِها		ـة المُجّـان
ـسه وركوبها		ـي الأثمـان

هذا قول حماد في القرد، وقال حمَّاد في بشَّار بن بُرد أيضاً:

ـستُ بـقـاذِفٍ		ـومٍ نـوائح
ـمى لِجَهلٍ وأمّه		ـيَ واضـح
عن حُصينٍ لأمِّه		ابن بَرْدٍ بصافِح

وقال الآخر:

يدَ بن خَثْعَمٍ		زيرَ مُحتَبيان
من آل خَثْعَم		جوه بطـان

وقال العتَّابي:

ـد في زَمَانِه		وانـه
ـي سلطانه

وقال أبو الشمقمق:

ـن شـحِّـه		في سَلْحِهِ
ـتـاحـهُ		ـن فتْـحِـهِ

وقال خلف بن خليفة:

ـه واسع		ـرْدَهْ

وهذا كثير، ولعمري لو جُمِع كلُّه لكان مثلَ هِجاء الناس للكلب، وكذلك لو جمع جميعُ ما مُدِح به الأسدُ فما دُونه، والأمثالُ السائرةُ التي وقعت في حَمد هذه الأشياء، لمَا كانتْ كلُّها في مقدار مديح الكلب، فهذه حُجَّتُنَا في مَرتبةِ الكلب على جميع السباع والبهائِم. ولما قال معبدٌ في قتل الكلب، وتلا قول اللّه عزَّ وجلَّ: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ "

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ وإن كنتَ إنَّما جعلتَ الكلب شرّ الخلق بهذه العلّة، فقد قال :، قال أبو إسحاق"ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فاقْصُصِ الْقَصَصَ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ " :على نسق هذا الكلام ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنَم أعظم، فَأَسْقِطْ من أقدارها بقدر معنى الكلام، وأدنى "يَسْمَعُون بِهَا أُولئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ذلك أن تُشرك بين الجميع في الذمّ فإنَّك متى أنصفتَ في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفها في تتبُّع ما لها من الأشعار .والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبَّعت ما عليها

الشرف والخمول في القبائل

إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء :سنضرب مثلاً بيننا يكون عَدلاً :وقال صاحب الكلب والفُرسان والحكماءِ والأجواد والشعراء، وكثيرَ السادات في العشائر، وكثيرَ الرؤساء في الأرحَاء وكان الآخر قليل الدَّرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثيرٌ ولا شر كثير، خملوا أو دخلوا في غمار العرب، وغَرِقُوا في معظم الناس، وكانوا من المغمورين ومن المنسيِّينَ، فسَلموا من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك، وسلموا من أنْ يُضرَبَ بهم المثل في قِلَّةٍ ونذالة إذا لم :يكن شرٌّ، وكان محلُّهم من القلوب محلّ من لا يَغْبِط الشعراءُ، ولا يحسدهم الأكفاءُ؛ وكانوا كما قال حُميد بن ثور

ـا أرْضَ عـامـرٍ ... ، نهْداً وَخَثْعَمَـا
بن رَبَّـانٍ إنَّـهم ... ي الهَزاهِز مِحْجما

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذّرْءُ وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثيرٌ، ومثالِب ومناقب، ولم يَسلَموا من أن يُهجَوا ويُضْرَبَ بهم المثل، ولعلَّ أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسير على ألسنة العلماء، فيصيرُ حينئذٍ من لا خير فيه ولا شرَّ، أمْثَلَ حالاً في العامَّة، ممَّن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقص، ولا سيَّما إذا جاوَروا من يأكُلهم وحالفوا من لا ينصفهم، كما .لقيت غَنِيّ أو باهلة

ولو أنَّ عبْساً أقامت في بني عامر ضعِفَ ما أقامت؛ لذهب شَطْرُ شرفها؛ ولكنَّ قيسَ بن زُهير لمَّا رأى دلائل الشرِّ قال .الذلُّ في بني غَطَفَان خير من العزِّ في بني عامر :لأصحابه

وقد يكون القوم حُلولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضْلهم عليهم حَسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك عليهم وتعاظَمَهم، بأكثر من قدره، فَدَعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم، فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم، فوقَ الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدْعُوَهم ذلك إلى النَّدم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرُّجوع، حميةً واتقاء، ومخافةَ أن .يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومِن شدَّة الصَّولة عليهم

بكل وادٍ بنو سعد

بكلِّ وادٍ بَنُو سعد، :وقد خرج الأضبَط بن قُريع السَّعْدِيُّ من بني سعد، فجاوَرَ ناساً، فلما رأى مذْهَبهم وظُلمهم ونَهْكهم، قال

.فأرسلها مثلاً

وقد كان عبَّاس بن ريطة الرِّعلي سيِّد بني سُليم، وقد ناله ضيم في بعض الأمر، فأبى الضَّيم، فلما حاولَ مفارقتَهم إلى بني غَنْم

:عزَّ عَلَيْهِ فقال في كلمة له

ِام لبَعْلِها رِّحْم عاقِرُ

:وزعموا أنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر، وخبَّر عن هذه القصّة في يومٍ من أيامه، فدمعت عينُه، فحلف شُبَيل بن عَزرة بالطلاق

قبائل في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة فمن القبائل المتقادمة !- 6إنَّه لعَرَبيٌّ في الحقيقة لغِيَّةٍ أو لرشْدة

الميلاد التي في شِطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف وضَعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومثل فزارة ومرَّة

وثعلبة، ومثل عبس وعبد الله بن غطفان، ثم غَنِيّ وباهلة، واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر في عَبس وذبيان، والمبتلى

والملقَّى والمحروم والمظلوم، مثل باهلة وغنيّ، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتَّى كأنَّهم آلة لمدارج الأقدام، ينكب

فيها كلُّ ساعٍ، ويعثُر بها كلُّ ماش، وربّما ذكروا اليَعسوب والطفاوة، وهاربة البقعاء وأشجَع الخنثى ببعض الذّكر، وذلك مشهور

في خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورَهم، وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلاَّ بغنيٍّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً

:ومناقب، حتى صار من لاخير فيه ولا شرَّ عنده أحسنَ حالاً ممَّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر

ـَةِ الطَّلْحَات مبتدئا تَثْبِتْ وكُنْ حكما

ْ لؤم ومِن كـرمِ ولا كـرمـا

.وقد ظرف في شعره فظلم خُزاعة ظلماً عبقريّاً

:وقال في مثل ذلك الأشعر الرَّقبان الأسديّ

أن يعْلموا ـضيرّ

الحُـوَارِ أنت مُرّ

:وكما قال الشاعر في علباءَ بن حبيب حيث يقول

لْبَاءِ

ـارو ـُ

.فهذا ونحوه من أشدِّ الهجاءِ

.والخمول اسمٌ لجميع أصناف النَّقص كلّها أو عامَّتها، ولكنَّه كالسَّرْو عند العلماء، وليس ينفعك العامَّةُ إذا ضرّتك الخاصَّة

ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثور وعُكل، وتيم ومزينة، ففي عُكل وتيم ومزَينة من الشرف والفضل، ما ليس في ثور، وقد

سلِم ثور إلاَّ من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلاَّ العلماء، ثم حلَّت البليَّةُ وركَدَ الشرُّ، والتحف الهجاء على عُكْل وتيم، وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً، ولكنَّهم حبَّبهم إلى المسلمين قاطبةً ما تهيأ لهم من الإسلام، حين قلّ حظُّ تيم فيه، وقد نالوا من ضبَّة، مع ما في ضبَّة من الخصال الشريفة؛ لأنَّ الأبَ متى نقص ولدُه في العدد عن ولد أخيه فقد ركبهم الآخَرون بكلِّ عظيمة، حتى يروا تسليمَ المرباع إليهم حظّاً، والسير تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب؛ حتَّى ربَّما كانوا كالعضاريط والعُسَفاء، والأتباع، .وفي الأتباع والدخلاء، ثم لا يجدون من ذلك بدّاً؛ كأنهم متى امتنعوا خذلوهم، فاستباحوهم، فرأوا أن النَّعمة أربحُ لهم

عبيدٌ في الجاهليَّة، أتباعٌ في الإسلام، فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في :وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف البلاد، فصار حكمُهم حكم من درج، وحكمُ أبيهم كحكم من لم يُعقِب، وإذا هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من .الذلّ والغرم

الحِلْفُ عند العرب

فأحدهما كانضمام عبس وضبَّة، وأسد وغطفان فإنَّ هؤلاءِ أقوياءُ لم يُنهكوا كما نُهكت باهلة وغنيّ، لحاجةِ :والحِلْف ضربان .القوم إليهم، ولخشونة مسِّهم إن تذكَّروا على حال؛ فقد لقِيت ضبَّةُ من سعدٍ، وعبسٌ من عامر، وأسدٌ من عيينة بن حصن ما لقُوا

.وقد رأيت مشقَّة ذلك على النابغة، وكيف كره خروج أسد من بني ذبيان

.وعيينةُ بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنَّ النابغة كان أحزم وأعقل

وقد سلمت ثور وابتُليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خُثَيم وسُفيان الثوري، لما علمت العامَّةُ أنَّ في العرب قبيلة يقال لها ثور، .ولَشَريفٌ واحدٌ ممَّن قبَلت تيم أكثرُ من ثور وما ولد

وكذلك بَلْعَنبر، قد ابتُليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُّعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، .ومن نوادر الرِّجال إسلاميِّين وجاهليِّين

وربَّ قومٍ قد رضُوا بخُمولهم مع السلامة على العامَّة، .وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلاَّ الخمش والنُّتف فلا يشعرون حتَّى يصبَّ الله تعالى على قمم رؤوسهم حجارةَ القذف، بأبياتٍ يسيِّرها شاعر، وسوطَ عذابٍ يسير به الراكبُ

:والمثل، كما قال الشاعر

ـارِم البراجِمِ

:وقال الشاعر

شَرِّ المطَايَا ـٌ بني تميمِ

.فما الميسم في جِلد البعير، بأعلق من بعض الشعر

أثر الشعر في نباهة القبيلة

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعَدد والفَعال، مثل نُمير، يصير أهلُه إلى ما صارت إليه نُمير وغير نمير، فما ظنُّكَ بالظُّلّيم وبمناف وبالحَبطات، وقد بلغ مضرَّةُ جرير عليهم حيثُ قال:

كَ مِن نُمير لا كلابـا

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قَوْماً آخَرين:

ـنَعةٌ هِجَائِي ؛ بَنِي نُمَيْر

وحتّى قال أبو الرُّدَيْنيّ:

نُـمَـيْرٌ نَ هَجَاهَا

بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهم لذلك ولأمر ما بكت العربُ بالدموع الغِزار من وقع الهجاء، وهذا من أوَّل كرمها، كما بكى مخارقُ بن شِهاب، وكما بكى عَلقمة بن عُلاثة، وكما بكى عبد اللّه بن جُدعان من بيتٍ لخداش بن زهير، وما زال يهجوه من غير أن يكون رآه، ولو كان رآه ورأى جماله وبهاءَه ونبله والذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبته ومن إجلاله والرقة عليه أمسك، ألا ترى أن النَّبيت وغسَّان بن مالك بن عمرو بن تميم، ليس يعرفهم بالعجز والقلّة إلاّ دَغفل بن حنظلة، وإلاّ النخّار العُذريّ وإلا ابن الكيِّس النمريّ، وإلاّ صُحار العبدي، وإلاّ ابن شَرِيَّة وأبو السَّطّاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من مواريثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمي، فهو يعطي حقّ القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصّة، والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.

أنْ يكون القبيلُ متقادِم الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهيَّأ أن يصير في ولدِ: ما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول وبليَّة أخرى إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلِّ من رآهم أو سمع بهم، أضعافُ الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتُلوا بشرف إخوتهم.

كعبد: ومِنْ شؤم الإخوة أنّ شرفهم ضعةُ إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أنّ شرفهم شرفُ من قبْلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم اللّه بن دارم وجرير بن دارم، فلو أنَّ الفُقَيم لم يناسب عبد اللّه بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.

سَنامَ الأرض وجبلها وعينَها التي تبصر -لما جاءتْ به من الخصال الشريفة التامّة؛ مِنْ أركان كنانة -ولقد ضعضعتْ قُريش بها، وأنفَها التي بها تعطس، فما ظنُّك بمن أبصر بني زيد بن عبد اللّه بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع بن دارم، ثمَّ وكذلك كلُّ أخوَين إذا برَع أحدُهما وسبق وعلا الرِّجال؛ في الجود والإفضال، أو في الفُرُوسة ?رأى بني فقُيم بن جرير بن دارم

أو في البيان، فإن كان الآخر وسَطاً من الرجال، قصدُوا بحسن مآثره في الطبقة السفلى لتَبين البراعةُ في أخيه، فصارت قرابته التي كانت مفخرةً هي التي بلغت به أسفَل السافلين، وكذلك عَنَزَة بن أسد في ربيعة، ولو كان سودد ربيعة مرَّةً في عَنَزَة ومرّة في ضُبَيعة أضْجَمَ، لكان خيراً لهم اليوم، ولودَّ كثير من هؤلاءِ القبائل التي سلمت على الشعراءِ أو على العوامِّ أن يكون فيهم شَطْرُ ما للعنَزيِّين من الشرف، ولو أنَّ الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل خيرها وشرِّها لكانوا سَوَاءً.

وقال صاحب الكلب: ذكرتَ عيوبَ الكلب فقلتَ: الكلب إذا كان في الدار مَحَق أُجُور أهل الدَّار حتى يأتيَ على أقصاها، لأنَّ في الكلب أشدُّ الأذى: الأجور إذ أُخِذ منها كلَّ يوم وزنَ قيراط، والقيراط مثل أحد، لم يلبث على ذلك أن يأتيَ على آخرها، وقلتَ على الجار والضيف والدخيل، يمنعه النَّومَ ليلاً والقائلة نهاراً، وأن يسمَعَ الحديث، ثمّ الذي على سامع النُّباح من المؤنة من الصوت الشديد.

ولو لم يكن في الكلب ما يؤذي بشدَّة صوتِهِ إلاّ بإدامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك ممّا ينغّص العيش، ويمنع من الكلام والحديث.

شعر في النباح والاستنباح وقال أرطأة بن سُهَيّة في بعض افتخاره:

ضَيّف موهنـا ... البخيلُ المواكلُ
ب كَثِيرَةٌ ... أنا فـاعـلُ
من تلادٍ تحوزُه ... تُصانَ الحَلائِلُ

وقال ابن هَرْمة:

لبـي لـصـوتِـهِ ... يَفَاع فـجَـاوِبِ
تِ قد مسَّهُ الضّوى ... لغِرارَيْن قاضِـبِ
تَ حتَّى بسطـتـهُ ... ـهـا كـلَّ آئبِ

وقال آخر:

يَكْعمُ كلبَـهُ ... ما الكلبُ نابحُ

وقال مزرِّد بن ضرار:

الذمَّ بـالـقِـرى ... من فَزارةَ راغبُ
عَ الكلبَ صوتَـه ... بِ والكلـب دائبُ

وقال بشَّار بنُ برْد:

بتلِّ عبدي ... قِـبـابِ
وطالتْ ... الكلابِ

وقال رجل من بني عبد الله بن غَطفان:

وُدَّ صـحـابةٍ ... بثَّ المعاتِبِ
أ السَّوءِ عُدَّةً ... الناس جانبِ

عدين ونبحهَـا ـابُ الأقـارب

:وقال أحيحة بن الجُلاح

ن مُليكة واللـ ـائبُـها

هـجـع الـ ـُ صاحبُها

وفي الكلب قذارةٌ في نفسه، وإقذاره أهله لكثرة سُلاحه وبوله، على أنّهُ لا يرضى بالسُّلاح على السطوح، حتَّى يحفر :وقلتَ

.ببراثنه وينقب بأظافره، وفي ذلك التخريب

ولو لم يكن إلاّ أنّهُ يكون سبب الوكف، وفي الوكف من منع النَّوم ومن إفساد حُرِّ المتاع، ما لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضِّ

الصبيان وتفزيع الوِلدان، وشقِّ الثياب، والتعرُّض للزوّار؛ ومع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه

.ورجْمه وتهييجه بالعبث، ويكون سبباً لعقْرهم والوثوبِ عليهم

وبئس الشيء هو في الدار، وفيها الحُرَم والأزواج، والسَّراريُّ والحظِيّات المعشوقات؛ وذلك أن ذكَره أيَرُّ ظاهر الحجم، :وقلت

وهو إما مُقْبَع وإمّا قائم، وليس معه ما يواريه، وربما أشَظَّ وأنعَظ بحضرتهنَّ، ولعلّهنَّ يكنَّ مُغِيباتٍ أو محتاجاتٍ إلى ما يحتاج

.إليه النساءُ عند غيبة فحلهنّ، وإذا عجزَ عن أن يَعُمَّهن

وفد قرحان وقد رمى ضابئُ بن الحارث البُرجُميُّ أمّ أناس من العرب، أنّ الكلب الذي كان يسمَّى قُرْحان، كان يأتي أمَّهم، حتَّى

استعدَوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بنُ عفّان رضي الله تعالى عنه، ولولا أنّ المعنى الذي رماهم به كان مما يكون ويجوز

:ويُخافُ مثلُه، لما بلغ منه عثمانُ ما بلغ، حتّى مات في حبسه، وفي ذلك يقول ضابئ ابن الحارث

قُرحانَ شُقَّة وهي حَسِيرُ

حوا كأنما ـزان أمـيرُ

ا وكلبَـكم ـاتِ كـبـيرُ

ـ الليل دُخْنة ـرير هَريرُ

قصص تتعلق بالكلاب

والنُّفرُ منها ومن السبع، -وزعم اليقطريُّ أنّهُ أبصرَ رجلاً يكُومُ كلبة من كِلاب الرعاء، ومرَّ بذلك الزُّبِّ العظيم في ثفرها

فزعم أنّها لم تعقِد عليه، ولا ندري أمكنته أم اغتصبَها -كالحِرِ من المرأة والظَّبْية من الأتان والحِجر، والحياء من الناقة والشاة

.نفسَها

أنّ رجلاً أشرفَ على رجل وقد ناك كلبةً فعقَدت عليه، فبقي أسيراً مستخْزياً يدور معها حيث :وأمّا النَّاس ففي مُلح أحاديثهم

.أخزاه الله أيُّ نيَّاكِ كلباتٍ هو :اضربْ جَنبَيها، فأطلقته، فرفعَ رأسه إليه، فقال :فصاح به الرجل :دارت، قال

وخبّرني من لا أردُّ خبره، أنّه أشرفَ من سطحٍ له قصير الحائط، فإذا هو بسَوادٍ في ظلِّ القمر في أصل حائط، وإذا أنينُ كلبة،

فرجمتُه :فرأى رأسَ إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظِلّ القمر، فتأمَّل في ذلك فإذا هو بحارس ينيك كلبة، قال فلقد ظننتُ أنّك ستركب البحر أو ?وما جاء بك ?ما حاجتك :وأعلمته أنّي قد رأيتُه، فصبَّحني من الغد يقرَع الباب عليّ، فقلت له قلت ويلك، :جُعِلتُ فِداك، أسألك أن تستُر عليّ، ستَرَ الله عليك، وأنا أتوب على يديك قال :تمضي على وجهك إلى البراري، قال جُعلت فداك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو ينيك إناثَ الكلاب إذْ كنَّ عِظامَ الأجسام، :قال ?فما اشتهيتَ مِن كلبة لو رَامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتتْ معه فأدخلها في كِسائه في ليالي :قال ?فما يخاف أن تعضَّه :فقلت :قال فهل تعقِد على أيور النّاس كما :ونسيتُ أنْ أسأله :البرد والمطر، لما تركته، وعلى أنَّه إن أراد أن يوعبه كلَّه لم تستقرّ له، قال لا أدري لعلَّها لا تعقد عليه، لأنَّهُ لا يُدْخِلُهُ فيها إلى أصله، لعلّ ذلك أيضاً :فلقيته بعدَ ثلاثين سنة، فقال ?تعقِد على أيور الكلاب قد نكّت عامَّة إنَاث الحيوانات :قال ?فَطيِّبٌ هو :فقلتُ:إنَّما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام، قال فإذا :فطال الحديث حتى أنِس فقلتُ له :ما ذاك إلاّ لشدَّة الحرارة، قال :قال ?وكيف ذلك :فوجدتُهُنَّ كلَّهنَّ أطيَبَ من النساء، قلتُ أمَا إنَّ الكلابَ أطيبُ شيءٍ أفواهاً، :فربَّما التزمتُ الكلبة وأهوَيت إلى تقبيلها، ثم قال :قال ?دار الماء في صُلْبك وقرُبَ الفراغ وأعذَبُ شيءٍ ريقاً؛ ولكن لا يمكن أنْ أنيكها من قُدَّامٍ، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثَنيتُ رأسَها إلى أنْ أقبِّلها، لم آمَنْ أنْ تظنَّ فإنّي أسألك بالذي يستُرُ عليك، هل نَزَعت عن هذا العمل مُنْذُ أعطيتَني :بي أني أريدُ غيرَ ذلك فتُكذِّم فمي ووجهي، قال فقلت ربَّما حنَنتُ إلى ذلك فأحتبسُ بعهدك :قال ?صفقة يدِك بالتَّوبة.

والله إني لأحِنُّ إليها، ولقد تَزَوَّجتُ بعدَك امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعوّد شيئاً :قال ?وإنَّك لتحنُّ إليها :وقلتُ :قال نعم، خذ محموَيه الأحمر، وخذ يشجب :قال ?هل تَعرف اليومَ في الحُرّاس مَن ينيك الكلبات :فقلت له :لم يكد يصبرُ عنه قال الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحَمّاميّ فإنّ فارساً كان حارساً وكان قيِّم حَمّام، وكان حَلَقيّاً، فزعم أنّه ناكَ الكلابَ خمسين وكان معه بخير حتَّى :فلم يزَلْ يحتالُ لكلب عندَه حتى ناكه، قال :سنة، وشاخ وهُزِلَ وقبُح وتشنَّج، حتّى كان لا يُنيكه أحد، قال فالكلاب كما ترى تُتَّهم :قتله اللصوص، ثمَّ أشرفَ على فارسٍ، هذا المحتسِبُ الأحدبُ، وهو ينيك كلبةً فرماه بحجر فدمَغَه، قال بالنساء، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيءٌ أحقّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها، ونحن من السباع العادِيَة الوحشيَّة في راحة، إلاّ في الفَرْط فإنّ لها عُراماً على بعض الماشية، وجنايةً على شرار العامَّة وكذلك البهائم، وما عسى أن يبلغ من وطْءِ بعير ونطح كبش، أو خمش سِنّورٍ أو رَمْح حمار، ولعلّ ذلك يكون في الدهر المرّةَ والمرّتين، ولعلَّ ذلك أيضاً لا ينال إنْ :قال صاحب الكلب .إلاَّ عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتَمل، فالكلاب مع هذه الآفات شركاءُ الناس في دورهم وأهاليهم كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون، وإلى قَشر طِين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السُّلاح وقذَر المأكول والمشروب

هُنَّ مِنَ الطَّوَّافاتِ عليكم، فإذا كان :تقصدون، فالسِّنَّورُ أكثر في ذلك، وقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أنّه قال ذلك في السنانير مغتفراً، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثرُ، وهي بالاعتقاد أحقّ، وفي إطلاق ذلك في السنّور .دليلٌ على أنّه في الكلاب أجْوَز

وأمَّا ما ذكرتم من إنعاظه، فلعمري إنّه ما ينبغي للغَيور أن يُقيم الفرسَ ولا البرذونَ والبغلَ والحمارَ والتَّيس في المواضع التي تراها النساءُ، والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً، وقد كره ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والدِّيكة والدجاج والبطّ خاصة؛ لأنّ له عند السفاد قضيباً يظهر، وكذلك التيس من الظباءِ، فضلاً عن تُيوس الصفايا، فهذا المعنى الذي ذكرتمْ يجري في وجوهٍ كثيرة وعلى أنّ للحمام خاصَّةً من الاستشارة، والكَسْم بالذنب، والتقبيل الذي ليس للناس مثلُه، ثمَّ التقبيل والتغزّل والتَّنفُّش، والابتهاج بما يكون منه بعدَ الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها، ما يكونُ أهيجَ للنساء ممَّا ذكرتم، فلم أفردتم الكلب بالذّكر دونَ هذه الأمور، التي إذا عاينت المرأة غُرمُولَ واحدٍ منها، حقرت بعلها أو سيِّدَها، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرمول يعارضها في النوم، وينبِّهها ساعة الغفلة، ويُحدِث لها التمنِّيَ لما لا تقدر عليه، والاحتقارَ لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجلُّ وأعظمُ إلى فإنْ كنتم تذهَبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العَبث والتعرُّض، والتَّحَكك والتهييج ?ما هو أخسُّ وأصغر أنْزَلُوهُ -والصِّبيانُ أقسى الخلق وأقلّهم رحمة -والتحريش، فلو أنّ الذي يأتي صبيائكم إلى الكلب، من الإلحاح بأصنَاف العَبَث بالأحنف ابن قيس، وقيس بن عاصم، بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حُذَيفة، لخَرَجُوا إلى أقبَحَ ممَّا يخرج إليه الكلب، ومَن .ترك منهم الأخذَ فوق يدِ ابنه، فهو أحقُّ باللائِمة

وبعد فما وجدْنَا كلباً وثبَ على صبيٍّ فعقره مِنْ تلقاءِ نفسه، وإنّه ليتردَّد عليه وهو في المهد، وهو لحمٌ على وضَم، فلا يشَمُّه ولا يدنو منه، وهو أكثرُ خلق اللّه تعالى تشمُّماً واسترواحاً؛ وما في الأرض كلبٌ يلقى كلباً غريباً إلاّ شمّ كلُّ واحدٍ منهما استَ صاحبه، ولا في الأرض مَجوسيٌّ يَموت فيُحْزَن على موتِه ويحمل إلى الناوُوس إلاّ بعد أن يُدنى منه كلبٌ يشَمُّه، فإنّه لا يخفى عليه في شمِّه عندَهم، أحيٌّ هو أم ميِّتٌ؛ للطافَةِ حِسِّه، وأنّه لا يأكل الأحياءَ، فأمَّا اليهود فإنّهم يتعرَّفون ذلك من الميّت، بأن :يدهُنوا استَه، ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية

تٌ مَسَحُوا اسْتَهُ ـه بقرَام

جنايات الديك

فإذا ذكرتم جناياتٍ الكلاب، فواحدٌ من جنايات الدِّيَكة أعظمُ من جنايات الكلاب؛ لأنّ عبد اللّه بن عثمان بن عفّان، ابنَ :وقالوا بنت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، إنَّما مات من نقْر ديكٍ في دار عثمان، نقر عينه فكان سبَبَ موته، فقتْلُ الديك لِعِتْرة رسول

.اللّه صلى الله عليه وسلم، أعظمُ من كثيرٍ ممَّا تستعظمونَه من جنايات الكلاب

.وقد نقر ديكٌ عينَ ابن حَسَكة بن عَتَّاب، أو عين ابن أخته

وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعورّ، ثمَّ ضربته الحُمرة فمات، ووثبَ ديك فطعن بصِيصَتِه عين فأتاني الصّريخ، فو اللّه ما وصلتُ إليها حتى كَمد وجهها كلُّه واسودَّ الأنفُ والوَجْنتان :بنتٍ لثُمامة بن أشرس، قال ثمامة ذكر أنَّ رجلاً ذكر أنَّ ديكاً عند بقَّالٍ لهم، يقاتل به :عجباً من العجب -فيما زعم ثمامة -وغارت العينان، وكان شأنُ هذا الديك فأتيتُ البقَّال الذي عنده فسألتُه عن الديك، فزعم أنَّه قد وجَّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك، فلم أبرحْ :الكلاب، قال .حتَّى اشتَرَيْتُهُ؛ وكنتُ أصونُه وجعلته في مَكَنّة، فخرجت يوماً لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتي هذه لتنظر إليه، فكان هذا جزائِي منه وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بن علي، حتَّى وطئَ في ذؤابته ثمّ أقبَلَ ينقُرُ دِماغه وعينيه، فقال رجل من قريش، لمن حضر :قال :ذلك من الخدم

ن ذؤابة زيد ... اهُ الدَّجاجُ

نفع الكلب

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسُو، بل ما يدفَع اللّه بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثرُ وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول، والديك يفقأ العُيونَ وينقُر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشُجُّ ولا يأسو؛ فشرُّه صِرف وخيره ممزوج، إلاّ أنْ يزعموا أنّه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان، ومن عارض منافع وذلك عيان ونفعه -الكلاب وحراستَها أموالَ الناس من اللصوص، ومنعَ السِّباع من الماشية، وموضعَ نفع الكلب في المزارع بما يُدَّعَى من حراسة الدِّيكة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازن ولم يَعرف المقايسة، ولا وقف قطُّ على معنَى -عامٌّ وخطبه عظيم .المقابلة ودَلَّ بذلك على أنَّ مبلغَ رأيه لا يجوز رأيَ النساء

العواء وما قيل من الشعر فيه

:ويكون العُواء للكلب والذئبِ والفصيل، وقال النابغة

ِ كتموني ... عُواءُ

:وقال الشاعر

نَعِرُّ ذؤابـتـي ... والغرابِ المحجَّل

:وقال الشاعر

ـلـ الرّيحُ ثـوْبَـه ... بالثَّوب مُعْصمُ

لليل بعدَ اعتسافِه | فـزَعَ نُـوّمُ
الصوتِ للقِرَى | ْينَ مَطْـعَـمُ
الضيفَ مُقْبِلاً | هـوَ أعـجَـمُ

:وقال ذو الرُّمَّة

ا كأنَّ عواءَه | َ الليلِ مُختَل

:وقال آخر

عـلامُـه | ِتَزقُو هامُه

:وقال عَقيل بن عُلّفة يهجو زبَّان بن منظور

قـومٍ يسـودهـمُ | مشدود على كُـور
إلاَّ شـرارُهُـم | لَ زبّان بن منظور

:وقال غَيلان بن سلمة

شاء بـه | العقل
قـنـي | جِذلُ
رتِـه | ةٍ شكلُ
زعـهـا | سَحْل

:وقال مغلّس بن لقيط

فطرَّب عـادياً | ثارِ سخيمهـا
من ذي قرابةٍ | ها ولحومُها

:وقال الأحيمِرُ السعديُّ

أنستُ بالذئبِ إذ عوى

:وصوَّتَ إنسان فكِدتُ أطيرُ وقال آخر

لُ مستحلس الندى | تالية النَّجـم

وذلك أنّ الرجلَ إذا كانَ باغياً أو زائراً، أو ممَّن يلتمِس القرَى، ولم ير بالليل نَاراً، عوى ونبح، لتجيبَه الكلاب، فيهتدي بذلك

.إلى موضع الناس

:وقال الشاعر

ى يَلمَس القِرى | الأرض نازح

:وقال عمرو بن الأهتم

هدُوٍّ دعـوتُـه | ي الشّتاءِ طروق

.فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب

ما قالوا في أنس الكلب وإلفه

:وممّا قالوا في أنْس الكلب وإلفه، وحبِّه لأهله ولمن أحسَنَ إليه قول ابن الطّثريّة :وقال صاحب الكلب

ي المـوعـودا   انة وعُـهُـودا
َ أهلِكِ بالضُّحَى   ِرَهُنَّ رُقُـودا
؛ مِن فرحٍ بنـا   ـاً وخـدودا

وقال الآخر:

مراً يومَ زرتُكم   ي صاحب الدَّارِ
المِسكِ يفعمنـي   كيه على النـار
ي حين أبصرنـي   ح الزِّقّ والقـار

وقال أبو الطّمَحان القينيّ في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمار الشَمْخي:

كلِّ رَكـب   لَّ رَدْلِ
ن مخاضٍ   ، وبُـزْلِ
مُ ثيابـي   تُ أهلـي
شَمْخٍ زِنَـادٌ   فرع وأصل

وقال الشاعر في أَنَس الكلاب وإلفها، يذكر رجلاً:

عِشارِ ورَعْيِها   يدِ رفيقُ
يمضَغْ ثَوبَه   ات طَريق

وقال الآخر:

الكـلاب تَـشَـمُّـه   الهلال على الطَّوَى

وقال ذو الرمة:

ي حتَّى ألِفَنَـنـي   نكبوت على رحلي

وقال حسَّان بن ثابت:

قبرِ أبـيـهـمُ   كريم المُفْضِلِ
ةَ حُجزاتُـهـمْ   لطِّراز الأوَّل
ُهزُّ كلابـهـم   سّوادِ المقبِـل

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

مَـعـلـمٍ   لمسْرِح
َ القِرَى   تَـنْـبِـح
تلك المطيِّ   لأفيَح
ق زائغ   ك الأوضَح

وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكِنَّه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة،

قال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت:

ِاكَ ولـكـنْ   القُصور ذرَاكا

وقال البزَّار الحلّيّ، في المعنى الأول:

بَـحُـهُـمْ   الخيرَ وحُرّ

وقال عِمران بن عصام:

قَـوْمِـه   امِـرَهْ

ـهـم
ـتـفِين
السائلـي
ا الثَّنـاءُ

مـرهْ
لـزَّائرهْ
؛ المـاطرهْ
ائرهْ

:وقال هلال بن خثعم

ارة جـارَتـي
لها لم أكنْ لـها
حاديثَ سِرِّهـا
، يكفيك ملـؤهُ

َ اغتـيابُـهـا
؛ إليَّ كلابُهـا
حوكٍ ثِيابُهـا
الأمورِ اجتنابُها

:وقال حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد الله، ويكنى أبا سَقَّانة، وكان أسره ثوب ابن شَحمة العنبريّ مُجير الطير

ُ هَرَّتْ كـلابُـه
، بيتـي مـوطَّـأً
أقِرَّت وعُـوِّدت

ـبِ الغريـبِ عَقُورُها
ُ شَحَّ ضمـيرُهـا
َريها هَـريرُهـا

هجو الناس بهجو كلابهم

إنّ كثيراً من هجاءِ الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنَّما يراد به هِجَاءُ رجلٍ، فيجعل الكلب وُصلة في الكلام ليبلغ :وقال صاحب الكلب
:ما يريدُ من شتمه، وهذا أيضاً مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب، ولذلك قال االشاعر

ِنُ ليل مظلـمٍ
عليك ضغـينة
مثلُ أسودَ سالخ

كلب مُوسَدُ
ئم لا يَحمَدُ
ك الأسـودُ

:فهذا قول الشاعر، وقال الآخر

عيبٍ فإنِّـي
ولُ الفصيلِ

:فهو لم يردْ مدحَ الكلب بالجبن، وإنَّما أراد نفسه حين قال

كلب موسد

:فإن كان الكلبُ إنما أسرَه أهلُه، فإنَّما اللوْم على من أسرَه، وإنما هذا الضَّرب كقوله

أضيافُ كلبهمُ
على النَّارِ

.ومعلوم أنّ هذا لا يكون، ولكن حقَّر أمرهم وصغَّرهم

:وقال ابن هَرْمة

مستنبح
كلابي

:وقال ابن مهية

نُعَبَى تَشَكَّـى
ن جـعـدي
يق حتَّـى

والنُّـسـورا
قتلوا غرورا
ا عَـقـورا

:ومعلوم أنَّ هذا لا يكون، إنما هو مثل، وقال أعرابيّ

ُ المجدَ فُرصة
لكريم نبـاحُـه

لا تُـخَـفَّـرُ
ءِ والكلبُ أبصَرُ

وقال ابن هَرْمة:

ِ الحيِّ يتبَعُها ا اعِي وتَرعِيبُ

فهذا قول هؤلاءِ، وقال الآخر:

يَكعَمُ كلبَه ما الكلبُ نابحُ

وقال الآخر:

ٍ مِن خَشيةِ القِرى مِنْ دُونها سِتْرُ

وقال أعشى بني تغلب:

ة بن عمرو قتِ الكلابا

فالكلب مرَّةً مكعوم، ومرّة مخنوق، ومرّة مُوسَد ومحرَّش،ومرةً يجعله جباناً، ومرّةً وثاباً، كما قال الراعي في الحطيئة:

طيئة إنّه ضافه فهو سالحُ
خنقُ كلبَه ما الكلبُ نابحُ

وقال أعشى بني تغلب:

خبيثٍ قريتَه ى الزادِ نابحُ

وقال الفرزدق:

ف إلاّ إلى فتًى ح الكلبُ أوقدا

وقال الآخر:

ما الكلبُ نابحُ

وقال الآخر:

ا لكَ نابحُ

وقال الفرزدق:

حَ الكلبُ أوقدَا

فهذا على أنّهم يتشقون بذكر الكلب، ويرتَفِقُونَ به، لا على أنّ هذا الأمرَ الذي ذكروه قد كانَ ?ومتى صار الكلب يأبى النباح

وقال الآخر، وهو جرير :على الحقيقة:

ِانَ أو بعَمَايةٍ بيعة راكبُ
اللَّيل وَطؤُه طْوُه متقاربُ
عَ وصَوْبَه وهو كاذب

فذكر تقارُبَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنَّه مع ذلك قد أثار الكلاب من آخر الليل، وذلك وقت نومها وراحتها، وهذا يدلُّ على

تيقُّظها ودِقَّة حسِّها.

وفيما ذكروا مِن حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي يلقى، وكيف الشأن في ذلك، قال أعشى باهلة:

يَضُ الصَّقِيع بِهِ تفاحه الحُجَرُ

:وقال الحطيئة

الصَّقِيعُ اتَّقَيْنَه　　　　لا قِفِـراتِ

:وقال ابن هَرْمة

ـعصِّب والأضـ　　　　ـبَّـوْا لـديّا
نبَحَ الـكـلـ　　　　نَبْحاً خَفِيّا
ـمُبسٌّ إلى النَّا　　　　ـ الحيّ ريّا
ـن تـراثٍ　　　　ـُ ذاكَ عَليّا

:وقال الأعشى

ـءِ الـعَــرو　　　　ـَقرقتَ فيه العبيرا
ـ يستَـطـي　　　　ـب إلا هـريرا

:وقال الهذلي

ـفَرثِ جازرُها　　　　المُثرينَ داعيها
ـها غيرَ واحـدةٍ　　　　ـري أفاعيهـا

:وقال الفرزدق

ـسَّماءِ وهَتَّكَت　　　　ـيِّ نَكْباءُ حرْجَفُ
ـ قبلَ إفَالِـهـا　　　　ـفَه وهي زُحَّفُ
ـة كلُّ ذِفـرَّةٍ　　　　ـق النَّـيِّ أعرَفُ
ـصَلّى بلبـانـه　　　　ما يتـحـرّفُ
عن نارِ أهلِـه　　　　ـصِّلا متكـنَّـفُ
ـلصَّقيع كـأنّـه　　　　ـبِ قُطْن مُندَّفُ